THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.











ثورة نوبل

حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL

تأليف: شافي آيين / تصوير: كيم مانريسا












ثورة نوبل

حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL

تأليف

شافي آيين / تصوير: كيم مانريسا

Textos: Xavi Ayén

Fotografías: Kim Manresa

ترجمة

ناصر مريخان

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني
REBELDÍA DE NOBEL
Conversaciones con 16 premios Nobel de literatura
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
El Aleph Editores, Barcelona (España)
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع معه

تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج «أضواء على حقوق النشر» في أبوظبي
This edition has been produced with a subsidy by the Spotlight on Rights programme in Abu Dhabi

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-9948-446-19-4

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

مُقدّمة

العودة إلى العالم مع ستة عشر حائزاً على جائزة نوبل

بدأ كل شيء بالصدفة، في اليوم الذي جاءني فيه كيم مانريسا ليسألني إن كان في وسعي أن أحصل له على إهداء من أحد الأدباء الحاصلين على جائزة نوبل للآداب، لكتابه الذي يحوي مجموعة فريدة من صور لمشاهد يومية قام بالتقاطها في مدارس منتشرة في القارات الخمس على مدى سنوات طويلة ورائعة في آنٍ معاً؛ هي سنوات عمله. أخبرني أن «أياً من الأدباء يفي بالغرض». كانت تكفيه جملة واحدة تبرز أهمية التعليم وتجمع جمال الصور مع الالتزام الأخلاقي الذي لطالما عدّه أمراً جوهرياً في مهنة الصحافة. وحين أمسينا جاهزين للقيام بذلك والاتصال بأحد الأدباء، سألنا نفسينا: لِمَ لا نستغل الفرصة لنجري معه مقابلة أيضاً؟ بعد ذلك، أخذت الأمور تتخذ منحًى آخر: طُرحت فكرة دخول منازل كبار كتّاب العصر، والتطفل ليس على مكاتبهم فحسب، بل على مطابخهم أيضاً، ثم التحدث إليهم من دون الاهتمام بالوقت، والتجول في المدن التي اختاروا الإقامة فيها، أو تلك الأماكن التي أوحت لهم بكتابة أعمالهم، بالإضافة إلى التعرف إلى عائلاتهم...

أمسى الهدف يكمن في أن نتطرق إلى زوايا غير مطروقة، ونعرض للقارئ معلومات عن بعض عباقرة الأدب المعاصر؛ التعرف إليهم من دون العوائق التي تفرضها مقابلات الفنادق (كما تعرفون، نصف ساعة في بهو عمومي للحديث حصراً عن كتابهم الأخير...). بعد ثلاث سنوات من العمل، توصلنا إلى التعرف إلى ستة عشر أديباً حاصلاً على جائزة نوبل، عبر لقاءات امتدت ما بين ست ساعات وثمانية أيام طبعت جميعها في هذا الكتاب. القسم الأعظم من المواد المستخدمة مثّل أساساً لمقابلاتٍ نُشِرت في الملحق الثقافي الذي تصدره اثنتان وعشرون صحيفة إسبانية[1].

في نهاية المغامرة، بات لدينا كنز لا ينضب من النوادر والخبرات، وسرعان ما اكتشفنا أن جميع الأدباء تقريباً كانوا ملتزمين إلى حدٍّ ما بقضية لا تتعلق بالأدب، وأنهم لا يستوعبون دورهم في المجتمع ما لم يتدخلوا بجوانب اجتماعية تتجاوز حدود الثقافة. فحتى أكثرهم بغضاً، السيد فيديا نايبول، حدثنا بحماسة عن مبادراته العديدة من أجل الحيوانات... كما اتفقوا جميعاً على أنهم يشعرون بأنهم على هامش المجتمع، بدرجات مختلفة، وبعيدون عن الكثير من القيم السائدة، ومناهضون لمظاهر أساسية على خط السلطة المتغلغل في الكثير من الأشياء التي لا نلاحظها. لهذه الأسباب، قررنا تسمية المجموعة **ثورة نوبل**، على أن تتضمن علاوة على ذلك مبادرات المؤازرة التي طرحها كلٌّ منهم.

أثارت بعض المواقف إعجابنا، وعلى وجه الخصوص مرافقتنا للمصري نجيب محفوظ في أحاديثه الأخيرة مع أصدقائه في القاهرة، قبل وفاته بأسابيع.

(1) الطليعة، إسبانيا الجديدة، ليفانتة EMV، فارو دي فيغو، صحيفة قادس، المعلومات، لا بروفينثيا، صحيفة لاس بالماس، صحيفة مايوركا، صحيفة إشبيلية، رأي مورثيا، رأي ثامورا، رأي لا كورونيا، صحيفة خيريث، صحيفة إيبيثا، رأي ملقة، يوم قرطبة، رأي غرناطة، جنوب أوروبا، رأي تينيريفة، معلومات أويلفا، آلكاريا الجديدة، صوت آلميريّة.

لـم تمنعـه إصابتـه بالعمـى والصمـم شبه التام بسـبب هجوم تعرض له في العام 1994 عن الحفاظ على عادته الدائمة من دون أن يرفّ له جفن، بالرغم من أنه أمسى مضطراً إلى القيام بذلك بوجود مرافقة من رجال الشـرطة، والانتقال من مكانه بشـكل دائم. وبمـا أن الطعنـة التـي تعـرض لهـا قد أصابـت وتريه الصوتيّيـن بضـرر دائم، لم تسـتمر نقاشـاتنا لأكثر من ساعة متواصلة، واستغرقت منا أياماً عديدة.

تعلمنا درساً آخر عن الإنسانية من ممثلَي آسيا. فهنـاك مـن جهة الكاتب الياباني كينزابورو أوي الذي قرر منذ سنوات خلت أن يكرّس حياته لابنه، المعوّق ذهنياً، بالرغم من نصائح الجميع والعدائية التي يبديها الصبي أحياناً. أما اليوم، فهيكاري (الذي استقبلنا قائلاً بإسـبانية ممتـازة: «كيف حالكما أيها الشـابان؟») هو أحـد المؤلفيـن الموسـيقيين الأكثر مبيعاً فـي اليابان، ولقـد تمكنـا مـن التحقـق من أن إعاقتـه لا تمنعه من التمتع بحياة أسرية كاملة مع أبويه. كما رافقنا أوي في أماكـن متعـددة من طوكيو وأهدانا عند الوداع زجاجة شراب ثمينة. من جهة أخرى، هناك غاو كسينغجيان، أحـد ضحايـا الثـورة الثقافية في الصيـن، الأمر الذي جعله ينسف أعماله كلها عدة مرات، والذي استقبلنا فـي منفـاه فـي باريس. قبل حصولـه على جائزة نوبل كان يكسب قوتاً متواضعاً بفضل عمله كرسام.

إلا أن المقابلة التي أثارت ضجة كبيرة – وصلت أصداؤها إلى شبكات التلفاز مثل الجزيرة والسي أن أن – هـي تلـك التي أجريت مـع الكولومبيّ غابرييل غارثيا ماركيث في قضيته المكسـيكية. كان قد مضى على مؤلِّف **مئة عام من العزلة** أكثر من عشر سنوات من دون أن يتكلم مع أي صحفي، وقد اختارنا ليؤكد علنـاً أنـه قـد توقـف عـن الكتابـة. تحضيـرات اللقاء كانت أشبه بأفلام الجواسـيس: جلّ ما عرفناه هو أنه سيتوجب علينا المبيت في فندق محدد في المكسيك وأنهـم «سـيتصلون بنـا». ذاك الانتظـار المزعج الذي دام يوميـن ظللنـا خلالهمـا قريبَين مـن الهاتف ومعنا حقائب سفر مليئة بالهدايا التي أرسلها إليه الأصدقاء مـن برشـلونة، عوَّضَنـا عنه لقاءٌ حـارٌّ حضرته زوجته ميرثيديس بارشا، وابنه غونثالو، وأبدى فيه غابو توقاً شديداً إلى معرفة تفاصيل حياة فائزين آخرين بجائزة نوبل. حين عدنا إلى إسبانيا، اتصل بنا هاتفياً ليكمل بعض الأمور التي كان قد صرح عنها.

أما المكان الأصعب للوصول إليه فهو نيجيريا، حيث لم يصدق رجال الشرطة في مطار لاغوس أننا ذهبنـا إلـى ذاك البلد لإجراء مقابلـة أدبية، في الوقت نفسـه الـذي كانـت فيـه ثـلاث عصابـات مـن أصول مختلفـة تمـارس نشـاطاتها فـي مناطـق متنوعـة، فتمّ اختطـاف العديـد مـن الأجانب، وارتفعت مؤشـرات الخطـر لتتجـاوز حدهـا المعهـود. بعـد نحو السـاعة مـن الاسـتجواب صـاح الضابط متنهداً ومبتسـماً في آنٍ واحـد: «حسـناً، إذاً، فقـد جئتما إلى هنا للحديث عـن الكتـب. لِـمَ لا؟ إننـا بلـد ديموقراطـي ذو ثقافة غنيـة. أهلاً وسـهلاً بكما في نيجيريـا». على الجانب الآخر، وجدنا بانتظارنا حارسـين شـخصيَّين أرسلهما إلينـا مضيفنـا وول سـوجينكا، الـذي اصطحبنا بدوره بالسيارة إلى ضيعة آبيوكوتا، مسقط رأسه.

تركنـا نبيـت فـي منـزل قريـب بنـاه بنفسـه في الأدغـال، ثم شـغل المولد الكهربائي فانتشـر النور، كمـا قـدّم إلينا طعامـاً وفيراً. في اليـوم التالي، ذهبنا إلـى لاغـوس لنرافقـه فـي مؤامراتـه مـع الجمعيات الديموقراطيـة، وجعلنـا نمـر بما يدعـى **حي خطوط الأنابيـب** حيـث يقـوم عشـرات الأشـخاص بثقـب الأنابيـب التـي تنقـل النفـط ليعيـدوا بيعـه كتجـارة حرة، متسـببين بذلك بانفجارات قاتلة ومتفرقة. بعد الحديث مع أصدقائه الناشطين، أجرى مقابلات مع رؤسـاء أحزاب سياسـية، كل على حدة، في محاولة منـه لحثهـم علـى القيـام بإصلاحـات لأجـل الناس المتواضعين. في أثناء ذلك، كان يقدمنا على أساس أننا «صديقاه الإسبانيَّان الموثوق بهما».

الحملـة الثانيـة علـى القـارة السـوداء كانت من

أجل رؤية نادين غورديمر، مناضلة محنكة ضد التمييز العنصري، والتي أرادت أن تعرض علينا رمز إفريقيا الجنوبية الديموقراطية الجديدة: فرع المحكمة الدستورية في بلدها، القائمُ في السجن القديم حيث كان صديقها نيلسون مانديلا مسجوناً، وحيث يتحد النظام القانوني الغربي مع تقاليد الآباء الإفريقية، كتحقيق العدالة تحت شجرة مورقة على سبيل المثال. استقبلتنا غورديمر في حيها السكني الراقي المعروف بعدم الأمان (فصاحت بنا من النافذة «استقِلاّ السيارة! لقد نُهِبَ ثلاثة أشخاص الأسبوع الماضي!»). وبالفعل، بعد أن استقبلتنا بعدة أيام، قام بعض اللصوص بتكبيلها ونهب منزلها.

أكثر المقابلات تسلية هي تلك التي أجريناها مع داريو فو، الذي أمضينا بصحبته بضعة أيام في روما كانت ضرباً من الاحتفال الطريف والسياسي والثقافي. فلقد توالت العروض المسرحية الجامعية، وارتجالاته المرحة وسط الشارع، إضافة إلى تجمعات اليسار الاشتراكي الإيطالي وأغانٍ مثل **بيلا تشاو تشاو تشاو** مع أصدقائه حتى الفجر. كما غنّت لنا – سراً – الشاعرة المحافظة ويسلاوا زيمبورسكا التي أذهلتنا حين هاجمتنا بمجرد دخولنا قائلة: «أولاً، لا أحب الحديث عن الشعر. ثانياً، لا أحب الحديث عن ويسلاوا زيمبورسكا، أي أنا. وثالثاً، لا أحب الحديث عن السياسة». لكنها لحسن الحظ، سرعان ما نكثت بوعدها. وهي بالإضافة إلى غابو وليسينغ الثلاثة الوحيدون ممن أجرينا معهم مقابلة، والذين لم نتمكن من إخراجهم إلى الشارع. لقد تغاضى التركي أورهان باموق – الذي هدَّدَتْه في ذلك الوقت عصابات قومية تركية بالموت – عن أمر اصطحاب حارس شخصي معه، ورافقنا في نزهة في حيه وهو يقهقه ضاحكاً على مزحته المبهمة التي مفادها: «لو جاء قاتل ما لاعتقد أنكما حارساي». استغل باموق وجودنا لينفي للمرة الأولى خبر هروبه من اسطنبول، كما كانت قد أكدت بعض وسائل الإعلام.

من النزهات الممتعة الأخرى، من دون شك، تلك التي أمضيناها في برلين مع إيمرة كيرتيس، الذي لم يرغب باصطحاب زوجته ليرينا الآثار الهامة، بل قام بجولة معنا في حيه شارلوتنبيرغ، وأرانا المحلّ الذي يشتري منه الخضار، والتراس الذي يأكل فيه البيتزا، واللوحة التذكارية البسيطة للمكان الذي اعتقل فيه، وهي أحد أوجه تاريخ أوروبا الذي وجدناه متبايناً مع لقائنا بغونتر غراس، الذي اعترف حديثاً بماضيه مع الشوتزشتافل، والذي رافقنا في مدينتين: في منزله الذي تحول إلى متحف في لوبيك، ثم في مدريد بعد بضعة أسابيع. تجولنا مع البرتغالي خوسيه ساراماغو وزوجته بيلار ديل ريو في كل أماكن لشبونة المذكورة في رواياته، لاحقين بجسده الطويل من دون تنفس على السلالم والمنحدرات اللامتناهية للشبونة. وبعد أن أمسينا كظله، رافقناه إلى الأوبرا ونشاطات الحزب الشيوعي وعروض عدة.

الخلاصة، إنّ الجملة المخطوطة باليد التي طلبها مني كيم قد تحولت إلى ساعات وساعات من التسجيل، وست عشرة قصة لشخصيات فريدة تشكل مجموعة استثنائية. لم ينقصنا إلا أربعة فائزين: ألفريد يلينيك الذي احتمى برهابه الاجتماعي المشخّص ليتهرب من لقاء شخصي طويل يتضمن جلسة تصوير متعِبة (كتلك التي جعلت ساراماغو المنهك يصيح في لشبونة: «سأطلق الرصاص على المصور!»)، ودجيه أم دجي لو كليزيو، ودجيه أم كويتزي، الكارهان للصحافة أبداً، والإيرلندي سياموس هيني الذي كان يعاني من مشاكل صحية (بسيطة) في الفترة التي كان في وسعنا خلالها أن نزوره. وأخيراً، فإن مجلدنا يتضمن ديريك وولكوت، بالرغم من أنه في اللحظة الأخيرة لم يستقبلنا في سانتا لوثيا بل في أوفييدو وبرشلونة. لا يقدر أيّ من هذه اللقاءات بثمن.

شافي آيين

وول سوجينكا



ثورة نوبـــل

الرجل الذي أضاف الكلمات إلى أحلام إفريقيا.

من الصعب أن تقرأ كتبه في إسبانيا، إلا أن نتاجه في مجالات الكتابة كافة هو من الأعمال الأساسية في الأدب المعاصر. يعيش وول سوجينكا في بلاده نيجيريا التي ينتقد من دون خوف افتقادها إلى الديموقراطية الحقيقية، وتجارة النفط التي تُثري الحكومة وأصدقاءها، والأزمة بين المتعصبين في أي دين كان. إنه قدوة شعبية، إذ يدعوه الكثيرون بمانديلا النيجيري.





الصحفي جالس في مدينة أوفييدو، إلى جانب المصور كيم مانريسا، في البهو الفخم لفندق التحرير، وهو ينظر إلى الساعة ببعض القلق. يقيم الأديب النيجيري الحائز على جائزة نوبل وول سوجينكا بضعة أيام في هذا المبنى الأثري في عاصمة مقاطعة أستورياس ليشارك في اليوم العالمي للشعر الذي نظمته الأمم المتحدة ومؤسسة أمير أستورياس. يصل مبتسماً ومعتذراً عن تأخره: «عذراً، لكنني كنت أحرر بعض الرهائن».

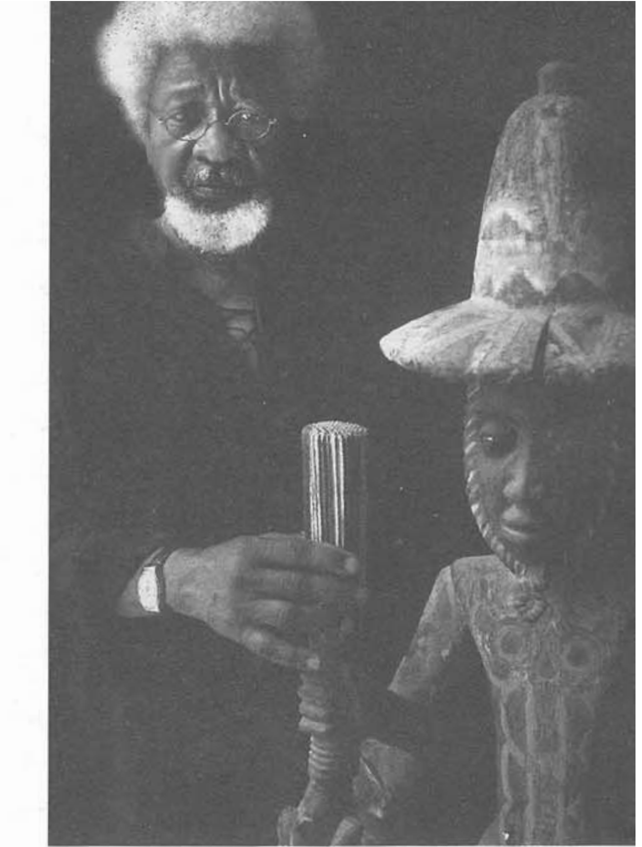
يصيح ديريك وولكوت، أحد الشعراء الجالسين إلى الطاولة: «ماذا؟ ما هذا الذي تقوله يا وول؟».

– لقد اختطفت عصابة دلتا النيجر تسعة غربيين يعملون في شركة شيل. كنت أجري بعض الاتصالات ليحرروهم... لا تنظر إلي هكذا يا ديريك، فقد توصلت إلى تحرير ستة منهم، ولم يبقَ إلا ثلاثة. لكننا سنحررهم أيضاً، انتظر وسترى...

ليست نيجيريا بلداً مملاً؛ نتذكر ذلك اللقاء الأول، في الطائرة التي تنقلنا من لندن إلى لاغوس، بعد شهر، ونحن نتصفح مجلة **ذا ويك** التي ينشرها في العاصمة البريطانية منفيون نيجيريون، والتي تتضمن تحت عنوان **الموت للخونة** صوراً لرؤوس بعض الثوار في المنطقة الغنية بالبترول في دلتا نهر النيجر. وبما أن متوسط العمر في نيجيريا هو أربعون سنة، فإن الشعب النيجيري الذي يعد من أفقر شعوب العالم بالرغم من الثراء الفاحش الذي ينعم به بعضهم بسبب البترول، يواجه مشاكل كالكراهية الدينية، وأزمة الخدمات الاجتماعية، والمصحات، والبنى التحتية المزرية، والمعدلات المرتفعة للجريمة في مناطق مثل لاغوس؛ أكثر مدن إفريقيا سكاناً بقاطنيها الذين يربو عددهم على خمسة عشر مليوناً. يكاد السفر إلى هناك لإجراء المقابلة يبدو جنوناً.

تواعدنا مع الكاتب في نقطة معينة من الطريق. وحين رآنا قادمَين ترجّل من سيارته لاستقبالنا. إنه طويل ومليء بالطاقة. يعيش هذا الرمز للديموقراطية في بلده: «ثلث العام في الولايات المتحدة، وثلثه الآخر في نيجيريا، والثلث الأخير في الطائرات».

عانى السجن، والجلد، وعقوبات مختلفة خلال الحقبات السياسية المختلفة التي مرت بها نيجيريا منذ العام 1960 حين نالت استقلالها من بريطانيا العظمى. عانقنا وهو ويقول: «أهلاً وسهلاً. سنذهب اليوم في



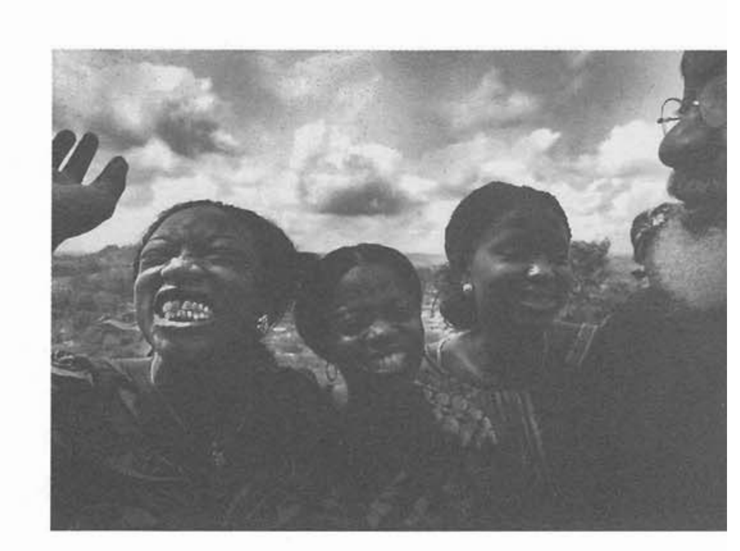
رحلـة إلـى آبيوكوتـا». وهي المدينة التي ولد فيها في العام 1934، وتبعد ساعة ونصف عن لاغوس.

تحدّثنـا عـن كتاب ذكرياته الجديـد (الذي يُفيدُ عنوانـه معنـى: **عليـك أن تباشـر طريقـك مـع الفجر**) والمنشـور حديثـاً فـي إفريقيـا والولايـات المتحـدة، والـذي مثّـل لـه تحدياً مهنياً كبيراً. يقـصّ علينا: «في الخيـال يمكنـك أن تقتل شـخصية، أو تبعث بها إلى مـكان آخـر، أو تجعلها تمـرض أو تقع في الحب... في الخيال، القرار كله بيدي، ولكن هنا، أفّ...».

الكتاب هو أيضاً قصة البلد خلال الخمسين عاماً الأخيـرة، ويحاول شـرح كيف يمكـن لإحدى القوى النفطيـة فـي العالم أن تكون في الوقت ذاته رائدة في الفقـر والحرمـان. «قيدتنا حكومات عسـكرية متتالية. جعلنـا النفط نفقد نظامنا الإنتاجي: هجرنا الصناعات الصغيرة والزراعة... أطاح النفط بكل شـيء، وتحول إلـى مركـز نظامنـا الاقتصـادي. وبمـا أنـه حكر على الحكومـة، فـإن حكومتنا هي الأغنى في العالم. لكن الغنى لا يتجاوز الحلقة الحاكمة المحدودة».

وصلنـا أخيراً إلى بيته، وقد بدا كسدّ من الطوب الأحمـر، حديـث البنـاء، ينتصـب فـي وسـط الغابـة الاسـتوائية فـي جبـال آبيوكوتـا، وتحيط بـه النباتات من كل مكان. «حين فزتُ بنوبل امتلأ رأسي بالمال. فقد امتلكتُ أكثر بكثير مما كسـبته أجيال من عائلتي مجتمعـة، وأردتُ إنشـاء منـزل تقـام فيـه وُرَش عمل للكتّاب، يمكنهم أن يأتوا ليعملوا فيه بهدوء».

إلا أن بعـض الأكيـاس والأدوات والشـذوذ في السـطح تعطينا انطباعاً بأن البناء قيد الإنشـاء. «أجل، لقد دمره العساكر، لكنني أعيد بناءه ليصبح مطابقاً لما كان عليه تماماً. يسجلون كل شيء، وقد اعتقدوا أنني



امتلكتُ أجهزة إذاعة المعارضة الديموقراطية، لكنهم لم يجدوا شيئاً، ها ها».

منزل سوجينكا - الذي صممه بنفسه - فيه اكتفاء ذاتي من الماء والغاز والكهرباء. «الديّ مولد، وصفائح لتوليد الطاقة باستعمال الأشعة الشمسية، وجِرار غاز، وبئر. لا يمكنك أن تثق بأن الحكومة ستؤمِّنها لك، فقد قال الرئيس أوباسانجو إننا جميعاً سننعم بالكهرباء خلال سنتين، لكنهم أعلنوا لتوّهم أن هذا لن يحدث قبل العام 2056! لا يهمهم إصلاح ذلك، لأن تجارة بيع المولدات ضخمة وتدرّ أرباحاً كثيرة من الضرائب والعمولات».

وبالرغم من هذا النظام المقلقل (بحيث ينقطع التيار الكهربائي عن المنزل أحياناً) فإن المكان المليء بمنحوتات تقليدية تنتشر فيه روح أصالة أخاذة. يعرض علينا سوجينكا بحبور المسرح الدائري «حيث يمثّل الفنانون». بعد اجتياز غرفة تتكدس فيها علب الكتب، نصل إلى الاستوديو: وُضِعت فيه طاولة أمام نافذة ضخمة تتيح المجال لرؤية الغابة المحيطة بالمكان كلّها. نبذل جهداً لنسمعه، من دون الاستسلام لتأمل الغابة المورقة التي لعلها تملي عليه في الليل بعضاً من القصص الإفريقية التي يكتبها.

وبينما يرش برذاذ قاتل للحشرات قناعاً يوروبياً احتلّه النمل الأبيض (وهو يصرخ على هذا الدخيل: «سأقتلك أيها الملعون!») يدعونا لتذوّق الشراب.

القضية: مع الديموقراطية وضد النسيان

منذ التزامه المبكر باستقلال نيجيريا، تحول وول سوجينكا إلى وجه وصوت الصراع من أجل الديموقراطية وحقوق الإنسان في بلده، مواجهاً المرة تلو الأخرى الحكومات العسكرية المتتالية التي بلغت سدة الحكم في هذا البلد شديد التنوع الذي تنتشر فيه مئات اللغات والأعراق، بالإضافة إلى موظفي السلطة التنفيذية المنتخبين منذ العام 1999. لوحق وسجن مرات عدّة، ونُفي في الفترة الممتدة بين عامي 1970 و1975. يعتقد سوجينكا أنهم بحاجة إلى دستور وعملية ديموقراطية. «لا ينفك يزداد في هذا البلد

القضية: مع الديموقراطية وضد النسيان

منذ التزامه المبكر باستقلال نيجيريا، تحول وول سوجينكا إلى وجه وصوت الصراع من أجل الديموقراطية وحقوق الإنسان في بلده، مواجهاً المرة تلو الأخرى الحكومات العسكرية المتتالية التي بلغت سدة الحكم في هذا البلد شديد التنوع الذي تنتشر فيه مئات اللغات والأعراق، بالإضافة إلى موظفي السلطة التنفيذية المنتخبين منذ العام **1999**. لوحق وسجن مرات عدّة، ونُفي في الفترة الممتدة بين عامي **1970** و**1975**. يعتقد سوجينكا أنهم بحاجة إلى دستور وعملية ديموقراطية. «لا ينفك يزداد في هذا البلد عدد مخالفات حقوق الإنسان، فلم يسمعوا يوماً رأي الناس هنا. نطالب بجمعية تشريعية تسنّ دستوراً لامركزياً وديموقراطيّاً».

التزامه الآخر يتعلق بإقرار السلام في بلده، وهو صلة وصل بين الحكومة وعصابات دلتا النيجر التي تكافح للتحكم بالثروات النفطية في المنطقة، كما أنه يدافع عن توزيع أكبر للأرباح التي يدرّها الذهب الأسود، وكثيراً ما يزور تلك المنطقة. يقول مازحاً: «لو رافقتماني أعدكما بألا يختطفوكما».

عـدد مخالفـات حقوق الإنسـان، فلم يسـمعوا يومـاً رأي الناس هنا. نطالب بجمعية تشريعية تسنّ دستوراً لامركزياً وديموقراطيًّا».

التزامه الآخر يتعلق بإقرار السلام في بلده، وهو صلة وصل بين الحكومة وعصابـات دلتـا النيجـر التـي تكافـح للتحكم بالثروات النفطية في المنطقة. كما أنه يدافع عن توزيع أكبر للأرباح التي يدرّها الذهب الأسـود، وكثيراً ما يـزور تلـك المنطقة. يقول مازحاً: «لو رافقتماني أعدكما بألا يختطفوكما».

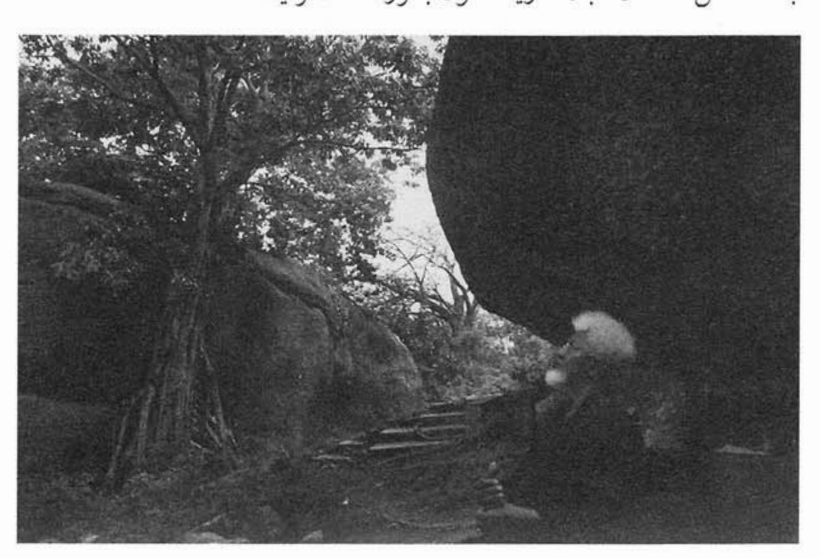


إفريقـي «يشـبه كثيـراً الأوروخـو» مـن ثمـار القصب البـري. نلاحـظ الإرادة الهائلـة لهـذا الرجـل، الـذي أعـاد بنـاء منزلـه بعناد، في نوادره، كـذاك اليوم الذي عـاد فيـه إلـى الخربـة التي حلّت محـل منزله بعد أن دمره الجيش: «وجدتُ عدداً هائلاً من الخفافيش التي احتلّت كل شيء. فاق عددها الخمسـة آلاف! وشيئاً فشيئاً أخذتُ أخرجها أو أقتلها».

أوغون، هو سيد سوجينكا المبجل

أوغـون هـو سـيد سـوجينكا المبجـل، وبما أنه يوروبـي جيـد، فقـد اختار واحداً من بين عدّة أسـياد مبجلـة محتملـة. يشـكل اليوروبيون واحداً وعشـرين بالمئـة من سـكان البلاد، ويعملـون بالزراعة المنزلية، كمـا أن بعضهـم من أهم فنانـيّ إفريقيا. وبانضمامهم إلـى مجموعـات العبيـد، انتشـروا في بـلاد مثل كوبا (حيث نشروا الديانة السانترية) وجامايكا.

الفلسـفة اليوروبية الداعية إلى السلام والتسامح لا تزال حية في بلد أطاح به العنف. يتحسر الكاتب قائلاً: «لدينا متعصبون من الديانتين الإسلام والمسيحية هدفهم القضاء على بعضهم بعضاً. يعتقد كل من أتباع هاتيـن الديانتيـن أنـه متفـوق علـى الآخريـن. تحدث جرائـم قتـل وتدميـر في القرى بشـكل دوري... هذا يحزننـي لأنّ غنـى الأديان المختلفـة والعلاقات بينها تشـدني منـذ طفولتـي. اعتدتُ النهـوض لأذهب إلى المدرسة المسيحية وأنا أصغي إلى صوت المؤذّن في الجامـع. وعلـى الطريق، كنت أرى العروض الحيوية للديانـات الإفريقيـة التقليديـة: جـو الكرنفـال ذاك بشـخصياته الجذابـة... كل ذلـك عنـى لي الأمـر نفسـه: مجـازات تعبر عـن محاولـة البشـر للتواصـل مـع الكـون الواسـع المجهول. تمكّن اليوروبا من البقاء، وليس في وسـع أحد اجتثاثها. سـاعد الراديو كثيراً على الحفاظ على التراث المحكيّ».



كيـف تصـف أوغـون، سيدك المبجل الحارس؟



لستُ تقيّاً ولا متعبداً. ليس هذا جيداً. لكن شخصية أوغون هو السيد المبجّل للطرقات والدروب، وكلاهما مهمّان جداً في حياتي، كما يمثلان الطبيعة الثنائية المتناقضة للبشر؛ نحن بنّاؤون ومدمّرون في الوقت ذاته. أعتبر تطابقي مع صفاته بمثابة تحرير لي. أوغون حربي جداً، أو إنه بالأحرى يمتلئ بالطاقة عند الأزمات، ويكتسب قوته من ذلك. إنه سيدنا المبجل؛ نحن عاشقو الوحدة، كما أنه شاعر غنائيّ وصيّاد.

ليست اليوروبا «ديانة مهجورة، فهي تتجدّد باستمرار لتتضمن الحقائق الجديدة: كالاستعمار في حينه، والتكنولوجيا اليوم». يفتن سوجينكا التشابه بين السادة المبجلة لدى كل من الإغريق واليوروبا: «أدهشني اكتشاف امتلاكنا هيكل السادة المبجلة نفسه. في كلتا الحالتين، هناك الكثير من السادة المبجّلة التي يختص كل منها بموضوعات محددة جداً، وتتصرّف بطرائق إنسانية جداً: ترتكب أخطاء فادحة، وتكذب، وتتّصف بالشبق والفظاظة... تمثّل طرة عملة صفاتنا ونقشها».

يأخذنا سوجينكا في نزهة إلى المدرسة القديمة التي درس فيها في صغره. لا تزال الجدران الأربعة للبناء الذي يبدو على وشك الانهيار قائمة، بالإضافة إلى بعض المقاعد ولوح قديم. يجلس في المكان نفسه الذي اعتاد الجلوس فيه، وتصنّع وجه الصبيّ المتفاجئ ممّا يقوله له الأستاذ، فتعود إليه ذكريات «كان ذاك في اليوم الأول من الدراسة، حين لم يتجاوز عمري السنتين والنصف. لم يكن عليّ الذهاب إلى المدرسة بعد، لكنني ذات صباح لحقتُ بأختي الكبرى إلى هنا... وبقيت».

نصعد إلى صخور آبيوكوتا وصوت المؤذن الذي ينتشر كالنسيم العليل يرافقنا. هذه الصخور هي حالياً مركز جذب سياحي (وهي مفارقة في بلاد لا يزورها السياح بعد بالرغم من جهود الحكومة).



يشرح الكاتب أنه: «بين هذه الصخور اختبأ رجال العصابات وقاموا بهجماتهم». من هذا الارتفاع يمكننا أن نرى المدينة بأكملها.

ماندیلا النيجيري

تتحوّل سوق المدينة التي تبدو كفوضى من الألوان والصخب والروائح المفعمة بالحياة إلى قنّ دجاج حقيقي، ولكن من البشر. حين يدخلها سوجينكا، تناديه النساء ليظهرن له عواطفهنّ: «بابا!» أو «يا بني!» كل واحدة حسب عمرها. كل الناس يصورونه بهواتفهم النقالة، يقاطع الباعة والزبائن نشاطاتهم، حتى إن أحد الصبية يركل عنزة كسولة على ظهرها لأنها اعترضت طريق سوجينكا. ليس هناك ما يثير الغرابة في أن يُدعَى ماندیلا نيجيريا وفي سبب طلب الكثيرين منه أن يترشح لرئاسة البلاد. «رفضت ذلك في النهاية. هذا لا يناسب مزاجي، فالحرية والسلطة على طرفي نقيض». وزيراً للثقافة؟ «لاااا! سيتوجب عليّ عندئذ التعامل مع الفنانين، وهم أكثر الناس إثارة للمشاكل، ولا يقتنعون أبداً. أفضّل أن أصبح وزيراً للسجون قبل ذلك...».

تفوح من لاغوس، أكثر مدن القارة سكاناً، رائحة البنزين. بكل ما للكلمة من معنى. تلك الرائحة نفسها التي نشمها في محطات الوقود تنتشر هنا في أحياء كاملة، خاصة تلك القريبة من الشاطئ والجزر حيث تمر أغلب القنوات التي ينساب فيها الذهب الأسود. كُتب على ملصقات وضعتها الحكومة بأحرف كبيرة: «لا تشاركوا في أعمال تخريب أنابيب النفط». قبل وصولنا بيوم انفجر فرع من هذه الأنابيب، ومات قرابة مئتي شخص. أعمال التخريب التي تتحدث عنها الحكومة محاولات يائسة يقوم بها آلاف الأشخاص الذين لا يجدون طريقة لإطعام عائلاتهم إلا بثقب الأنابيب التي تنقل النفط ليبيعوه بعد ذلك بسعر زهيد.

ليست آبيوكوتا الجميلة المركز الأساسي للاغوس، لكننا جئنا إلى هنا لنرافق سوجينكا في يوم عمل مليء بمؤامرات سياسية متنوعة.

في أثناء اجتماعات الحركة الديموقراطية، خلف أبواب مغلقة، انتظرناه بصبر يحرسنا مرافقوه من نظرات الجالسين. وعلى العكس، في أثناء اجتماعاته بالحكّام انضممنا إلى موكبه. عبر نافذة سيارة أخرجوها بأعجوبة من مكبّ السيارات، راقبنا البؤس العالمي بأشد أشكاله: هناك أطفال عراة يلعبون فوق النفايات، كيلومترات وكيلومترات من الأكواخ، مراهقون منتشرون على أرصفة الطرقات السريعة ليبيعوا بضاعتهم للسائقين...

يرفض سوجينكا الحديث عن حياته الخاصة رفضاً قاطعاً، ولا يقول لنا إلا إنه يملك الكثير من الأبناء والأحفاد. ويذكر بشكل عام أن «المرأة النيجيرية متحررة أكثر بكثير من غيرها في مجتمعات أخرى. وحتى في حالات تعدد الزوجات، فإنهن يسيطرن إلى حدٍّ ما على حياتهن. بالنسبة إليّ، لا علاقة لتعدد الزوجات بالتمييز بين الجنسين».

في طريقنا إلى المطار كنا نفكر في التمرد الذي انفجر قبل أيام في رحلة بين مدريد ولاغوس: منع الركاب الطائرة من الهبوط بسبب وجود نيجيريتين بينهم لا تملكان أوراقاً أعادتهما الحكومة الإسبانية إلى وطنهما. يستوعب سوجينكا سبب التمرد: «لكل بلد سياساته المتعلقة بالهجرة. السؤال هو: أي سياسة يجب تطبيقها؟ ويبدو لي من المؤسف أنه حين يخاطر الناس بالكثير، حتى بحياتهم، ليدخلوا بلداً، فإنهم يعانون فوق ذلك من التمييز، أي تفضيل الأجانب مثلهم - الذين يأتون من بلاد أخرى - عليهم».

يبتسم الكاتب حين يذكر أن «كوفي عنان، أمين عام الأمم المتحدة، جاء إلى نيجيريا عند موت الديكتاتور آباتشا، وقال لي: وول، عليك أنت وشعبك أن تكونوا منطقيين. نكون منطقيين؟! أتعرف ما طلبناه؟ جمعية تشريعية تدعو لانتخابات ديموقراطية. ألا يبدو هذا لك منطقياً؟ الملايين من البشر مثلي يريدون أن يصبح العالم أكثر منطقية...». يقول ذلك من دون أن يفقد ابتسامته، بينما السيارة تبتعد عن رائحة البنزين.

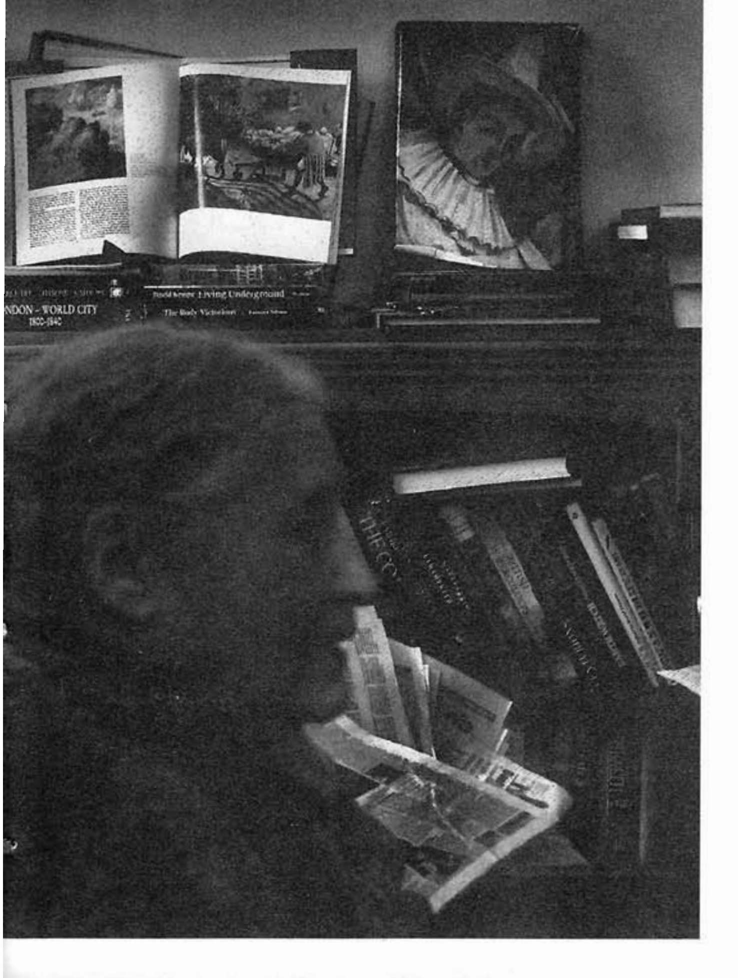
دوريس ليسينغ

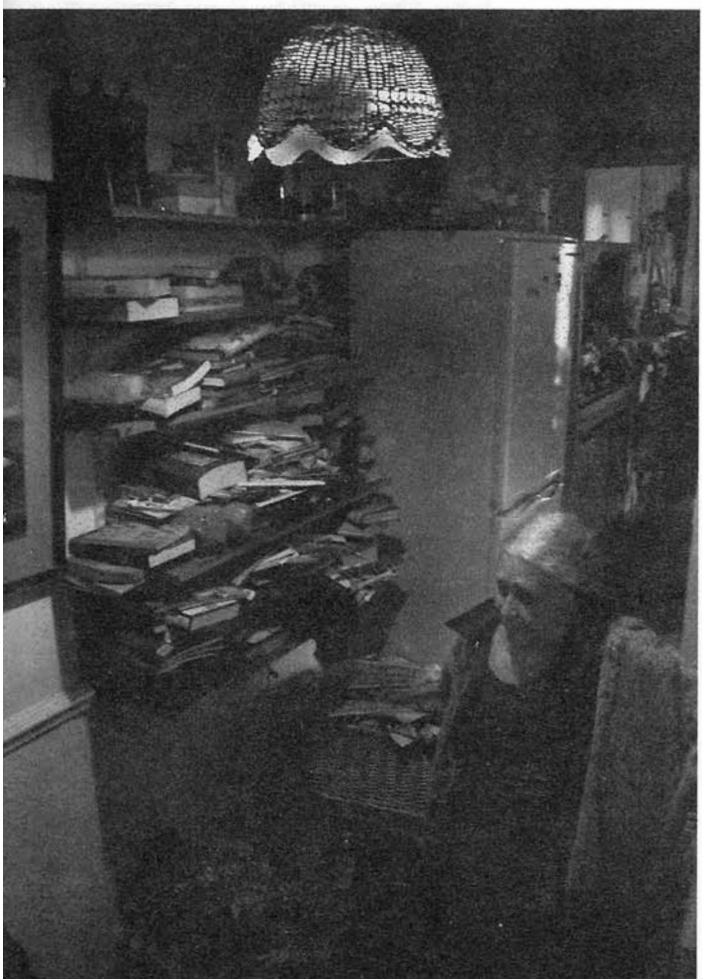


«الرجال والنساء يعيشون في عالمين مختلفين».

تتحدث دوريس ليسينغ عن رجال ونساء، عن مشاكل الناس الحقيقية، وعن العمر والحب. تتجول كتبها الجديدة وكتب الخيال العلمي في فضائها الثري، المتقلب، المزدحم.







يُسمع عبر التلفاز ضجيج الأدغال، فمهرجان ركوب الخيل في شلتنهام هو إحدى المناسبات التي ينتظرها بفارغ الصبر مشجعو سباقات الخيل الإنكليز كل عام. تتابع مضيفتنا باهتمام أخبار حصان سباق يدعى كاوتو ستار، وهو على ما يبدو من عرق الأحصنة المدعو بالزيدان. في إحدى اللحظات، تبدو وكأنها قد خرجت من عالم التلفاز لتسألنا «ألا تحبّان الأحصنة؟»، ثم تسحب بيأس، وتهذيب في آنٍ واحد، جهاز التحكم عن بعد الموضوع تحت جبل من الصحف، وسرعان ما تتحول شاشة التلفاز التي يظهر عليها حصان يقفز فجأة إلى السواد. «هيا، فلنباشر المقابلة». تستقبلنا البريطانية دوريس ليسينغ ذات الثمانية والثمانين عاماً بحيوية، وتلفظ الكلمات كما لو كانت ممثلة مسرح؛ هي طبيعية جداً، بملابس المنزل، في يوم ماطر كئيب، في منزلها ذي الطوابق الثلاثة في لندن. وبعد أن تدعنا نلتقط لها بعض الصور، تتجه إلى أريكة حمراء طويلة، فتبعد قليلاً الملاءة والبطانية وتأمرني «اجلس هنا، إلى جانبي!».

– وهذه الملاءة؟

– نحن جالسان على سريري أيها الشاب. أنام هنا ليلاً في الوقت الحالي؛ سريري الحقيقي في الطابق العلوي، لكن عليّ صعود سبع درجات للوصول إلى هناك، وهذا يتعبني كثيراً لأن ظهري يؤلمني...

نبدأ بالحديث عن آخر رواياتها المنشورة، **الأنثى**، التي تدور أحداثها في عصر رجل الكهف، وتروي اللقاء الأول بين الرجال والنساء. تبيّن ليسينغ قائلةً «هناك علماء يؤكدون أن الإنسان الأول على الأرض كان امرأة، ولذلك فقد جاء الرجال في ما بعد. ومن دون التطرق إلى صحة ذلك أو عدمه، يبدو الأمر موحياً جداً بحيث إنني كلما فكّرت أكثر في الموضوع، وجدت له احتمالات أكثر. هكذا، بدأت أتخيل ما الذي كان سيحدث لو أن النساء وحدهنّ قد سكنّ الأرض لمدة طويلة، في جزيرة ما ذات طقس رائع، ولديهن طعام تحت تصرّفهنّ، فتصورت مجتمعاً بدائياً يقتصر على النساء، يمتلكن فيه القدرة



على التكاثر من دون اشتراك الرجال. وفي أحد الأيام يولد ذكر فجأة. أتتخيلان ذلك؟ لا شك في أن تأمُّل أعضائه التناسلية قد سبّب صدمة كبيرة للنساء، وعلى الأغلب أنهنّ قد نظرن بازدراء إلى تلك اللواحق البشعة جاهلات وظيفتها. وهكذا نجد في كتابي أن الصقور تحمل الأطفال المسوخ (كما يدعونهم) إلى مكان آخر ليعيشوا ويكبروا بعيداً عن الإناث، إلى أن تقرر في أحد الأيام جماعة منهنّ مباشرة حملة للوصول إليهم، إلى الجداول».

يمكن قراءة الكتاب كحكاية رمزية تطرح موضوعات مختلفة كمفاهيم المتعة، والعمل، والمسؤوليات بين الجنسين، واضعة الرجل في مرحلة أكثر طفولية، ولكن من دون ازدرائه، فيبدو ذكر البشر مخلوقاً «رائعاً وحيوياً». نقول لها إن العنف في بعض المشاهد يتناقض مع الطابع اللطيف العام للقصة، فتجيب: «أبإمكاني أن أخبرك بأمر حول ذلك؟ في المقالات النقدية قالوا ما أبشع تشويه الأطفال الصغار حين تقتلع النساء أعضاءهم التناسلية كما أكدوا على القسوة النسائية؛ إذاً، فلنقل إن أحد النقاد قد شعر بشكل أو بآخر أن أعضاءه التناسلية شخصياً قد استُؤصلت. لكن ما يثير الفضول هو أنني قد وصفتُ اغتصاباً جماعياً في البداية، حين يتعرف الصبيان إلى الفتيات، فيغتصب الجميع المرأة قبل قتلها، ولم يذكر أحد الموضوع! أتساءل إذا كان هذا أقل عنفاً من استئصال أعضاء الذكور التناسلية». على كل حال، تقول ليسينغ: «الرجال والنساء يعيشون في عالمين مختلفين، ليس في كتابي فحسب، بل في الواقع أيضاً. نحن مختلفون جداً، وإنكار ذلك خطأ فادح. إننا عرقان مختلفان يحاولان الحياة معاً كي لا نشعر بالوحدة؛ هكذا أرى الموضوع».



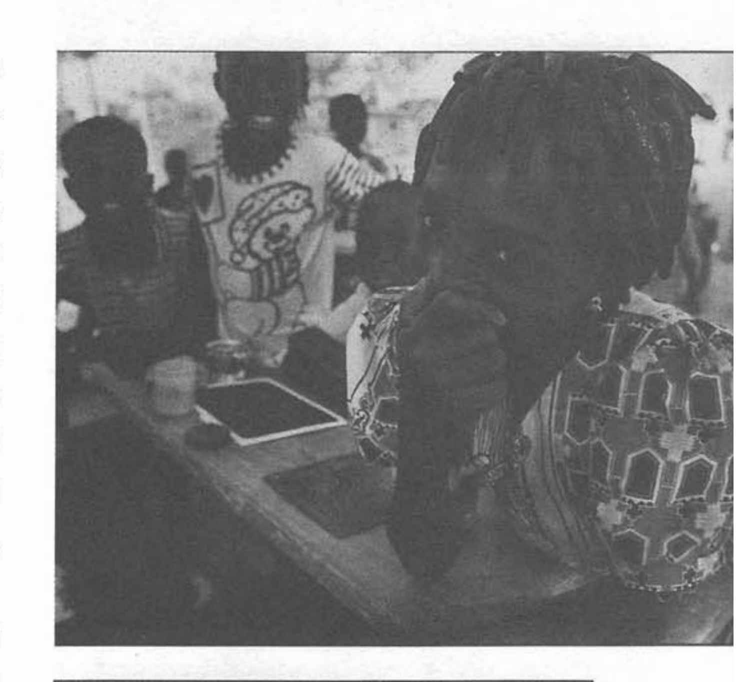
يرن الهاتف فجأة. على عكس غيرها من الحائزين على جائزة نوبل في سلسلة المقابلات هذه، ليس لديها مساعدون للقيام بالأعمال المكتبية. دائماً تُجيبُ هي شخصياً، كما لو كانت الأم العزباء نفسها التي وصلت في العام 1949 إلى لندن الرمادية التي دمرها قصف الحرب العالمية. يومها كانت تحمل بين



ذراعيها ابنها بيتر، وهو الشخص ذاته الذي كان ينتظر في المطبخ في اللحظة التي كنا نتحدّث فيها. لم يعودا يسـكنان في نزل يتقاسـمان فيه الطابق مع الساقطات، وإنمـا فـي منـزل برجوازي، بريطاني جداً، ذي لمسـة فوضوية تظهر من خلال الكتب المتكدسة في الزوايا الأقل توقعاً في المنزل، مشكّلة أكواماً تتحدى قانون الجاذبية، أو تجدها فوق بعض الدرجات كما لو أنها تهـرب مـن العلـب الكرتونية نصـف الممتلئة. تضيء الشـمس أحيانـاً، فـي البهـو حيـث نتحـدث، الغبـار المتطاير من البسـط والسـجاد الفريد المتراكم والذي يكاد أن يقع.

مـن الممكـن متابعة أحداث ليسـينغ العائلية في كتب سيرتها الذاتية مثل **بحثاً عن إنكليزي** (1960) – الذي أعيد نشره تحت عنوان **صنع في إنكلترا** – **وفي داخلي** (1994)، **ونزهة في الظلال** (1997). باختصار، بعـد أن ولـدت في إيران لأبوين بريطانيين، وهجرتها أمهـا فـي عمـر الخمـس سـنوات حيـن سـافرت إلى روديسـيا (زيمبابـوي الحاليـة)، تزوجت وهي صغيرة جـداً، فأنجبـت صبيّـاً وبنتـاً، ثـم تطلقـت، وتزوجت بغوتفرايد ليسينغ، أحد نجوم الحزب الشيوعي، والذي تركها لأجل فتيات أصغر سناً بعد أن أنجبت منه ابنها بيتـر (الـذي لا تـزال تعتني به بسـبب إعاقته). ذهبت ليسينغ بمفردها إلى إنكلترا وفي جيبها ما لا يزيد عن المئة جنيه ومخطوط روايتها الأولى **الأعشاب تغني**، تاركة عائلتها السابقة.

جعلتهـا التجـارب المتتابعـة تفقـد ثقتها بالحب الرومانسـي المثالي، الأمـر الذي يطابق تقريباً موقفها مـن الشـيوعية. ونظـراً إلـى أنهـا أم عزبـاء ولا تملك النقود، فقد عملت في كل المجالات: عاملة مقسم، جليسـة أطفـال، عاملـة مكتبيـة، حتـى إنهـا اشـتغلت كصحفيـة، ثـم تركـت العمـل لأنـه كما تقـول: «كان المديـر يملـي علـيّ الأفكار التي توجّـب علـيّ الدفاع عنهـا فـي مقالاتي، وهو أمر لا يغتفر أليس كذلك؟». ابنها الأكبر، جون المزارع، مات بنوبة قلبية في العام 1992، فيما ابنتها جين تقيم حالياً في جنوب إفريقيا. ومع أن بيتر كان موجوداً في المنزل في أثناء حديثنا،



القضية: كتبٌ للعالم الثالث

استغلت ليسينغ فرصة خطبة استلام جائزة نوبل للقيام بحملة لإرسال كتب إلى الدول النامية. تؤكد أن «جميع الحكومات تشكل مصدر خجل لمواطنيها أحياناً». حيث تتذكر بغضب أن حزب العمال الحاكم قد قلص ميزانية بوك إيد إنترناشيونال (BAI)، وهي منظمة تشجع الأدب في بلدان العالم الثالث عن طريق توزيع الكتب المستعملة. تدخلت شخصياً في تأسيس نظام لإيصال الكتب إلى القرى النائية المنسية، لأن «المؤلفين لا ينشأون في بيوت خالية من الكتب». ويجب أن يتمكن الجميع من تطوير مواهبهم.

إن وصفها لواقع زيمبابوي وأهمية القراءة ليتمكن جيل الشباب من التمسك بالأمل حمل دار هاربر كولينز للنشر على التبرع بعشرة آلاف كتاب إلى مدارس روديسيا الجنوبية القديمة. توجه ليسينغ اتهامها مباشرة إلى رئيس زيمبابوي روبرت موغابي لحرمان الشعب من إمكانية شراء الكتب أو الكتابة للحفاظ على «مملكة رعبه الفظيعة».

إلاّ أنّ أمّه لم تكن تريد أن يظهر في التقرير. «عمري ثمانية وثمانون عاماً، وأنا أعتني بابني المريض. ليست هذه الحياة التي كنت أحلم بها بالضبط لكنني بالطبع لا أتحدث عن الموضوع».

لا تزال ليسينغ في مكانها المعهود أبداً: إلى جانب الضعفاء، ولو أنها مع العمر قد شكّلت غطاءً من الشك يحيط بالإيديولوجيات. «لا أحب التفكير المنغلق، وأجدد أفكاري دائماً. كنت شيوعية حتى العام 1954، وقد غرسوا في ذهني فكرة الطبقة العاملة كما لو كانت نوعاً من المثالية الطاهرة، أو من الفضيلة الأفلاطونية التي لا يمكن الوصول إليها، والتي لاحقتها بذهابي إلى المصانع لأعمل، لأرى إذا ما كنت سأصبح عاملة بحق. إلى أن اكتشفت أن الموجود في الواقع هو الناس؛ ناس مختلفون جداً يضطرّون إلى تدبير أمورهم بأقل القليل ليتمكّنوا من الوصول إلى آخر الشهر. هذا كل شيء».

زرنا دوريس ليسينغ في المنزل نفسه قبل أيام قليلة من التصريح بأن حالتها الصحية تمنعها من استلام جائزة نوبل في ستوكهولم. عندها حدثتنا عن مشاكل ظهرها. تكشف قائلةً: «في الحقيقة، أصبت بمشاكل خطيرة في القلب. ليس ظهري بحالةٍ جيدة، لكن الأخطر الآن هو قلبي».

– لعل السبب يكمن في صدمة النوبل؟

– (تتنهد) لن أتفاجأ بتاتاً إذا كانت الجائزة هي السبب. فعندما تفوز بهذه الجائزة (والتي هي من ناحية أخرى مصدر سعادة كبيرة) تتغير حياتك كلياً. بوم بوم بوم! كما لو أنهم يطلقون الرصاص على الأرض كل يوم، وعليك أن تقفز. بوم بوم بوم! يدق الباب، يرن الهاتف، الجميع يريدون رؤيتك... فتتأزّم حالة جسدك وقلبك. عليّ أن أرتاح كثيراً، ولا يمكنني صعود الدرج...

– ولكن، إذا كنتِ تنامين هنا... أين تكتبين؟

– مكتبي في الطابق العلوي أيضاً! هناك ظلت آلتي الكاتبة القديمة بانتظار أن يتحسن ظهري لأتمكن من الصعود والعثور عليها. لذلك، أنا لا أكتب في الوقت الحالي، بل أجري المقابلات، وأستقبل الناس. قال لي أحد الأصدقاء (بينتر، باموق) إنك خلال السنة الأولى التي تلي استلام جائزة نوبل لا يمكنك الكتابة، بل ستمضينها في استقبال الناس. ظننتُ أنها إحدى ترّهات الكتّاب، لكنني الآن أرى أن هذا صحيح.

سلّمت ليسينغ لتوها روايتها الجديدة إلى ناشرها، وهي بعنوان **ألفريد وإيميلي** (اسمَا أبويها) وستنشر في أيار في بريطانيا العظمى. «تدور أحداثها حول كيف كان العالم سيبدو لو لم تنشب الحرب العالمية الأولى. كان أبواي ضحيّتين لهذه الحرب، فلقد فقد أبي إحدى رجليه، لكن المهم أن الأزمة دمرت حياتهما. في القسم الأول من الكتاب أتحدث عما كان سيحدث لو لم تنشب هذه الحرب. على سبيل المثال، ما كنا لنرى الثورة الروسية ولا الاتحاد السوفييتي ولا الرايخ الثالث ولا هتلر ولا لينين، ولا الحرب العالمية الثانية، طبعاً». لكنها ليست رواية تدور حول أحداث تاريخية عظيمة لأنني: «قبل كل شيء أعرض حياة الناس اليومية، وخاصة حياة أبويّ التي كان من الممكن أن تتخذ مجراها الطبيعي. وبالعكس، فإن النصف الثاني من الكتاب هو ما حصل فعلاً، وأنا متأكدة أن القراء سيبكون تماماً كما بكيت وأنا أكتبها؛ عانيتُ مع هذه الرواية فترة رهيبة... إنها ضد الحرب كلياً، فأنا أظهر كيف تحطم الحرب حياة الناس البسيطة. تبرز شخصية أبي الذي كان سيصبح مزارعاً في إيسيكس؛ كان هذا حلمه. وأمي شخصيّة طيّبة جداً وذكية، تنظم كل أنواع النشاطات الإنسانية».

– وأنتِ؟ ما الذي كان سيحصل لكِ؟

– أنا لا أظهر. لم أولد مطلقاً، لا أنا ولا أخي.

السياسة والدين

تدافع عن نظرة تآخٍ للأديان بحماستها تجاه الزهد الصوفي. «لو قرأنا جميع كتب العهد القديم، الواحد تلو الآخر، والأسفار، والعهد الجديد والقرآن الكريم، لأدركنا أنها تدور جميعها حول الأشخاص أنفسهم، وتسرد القصص نفسها، ... هذا يعني أنه يمكن رؤية الإسلام والمسيحية واليهودية كدين واحد في مجالات أو طرائق مختلفة، لكن أتباع

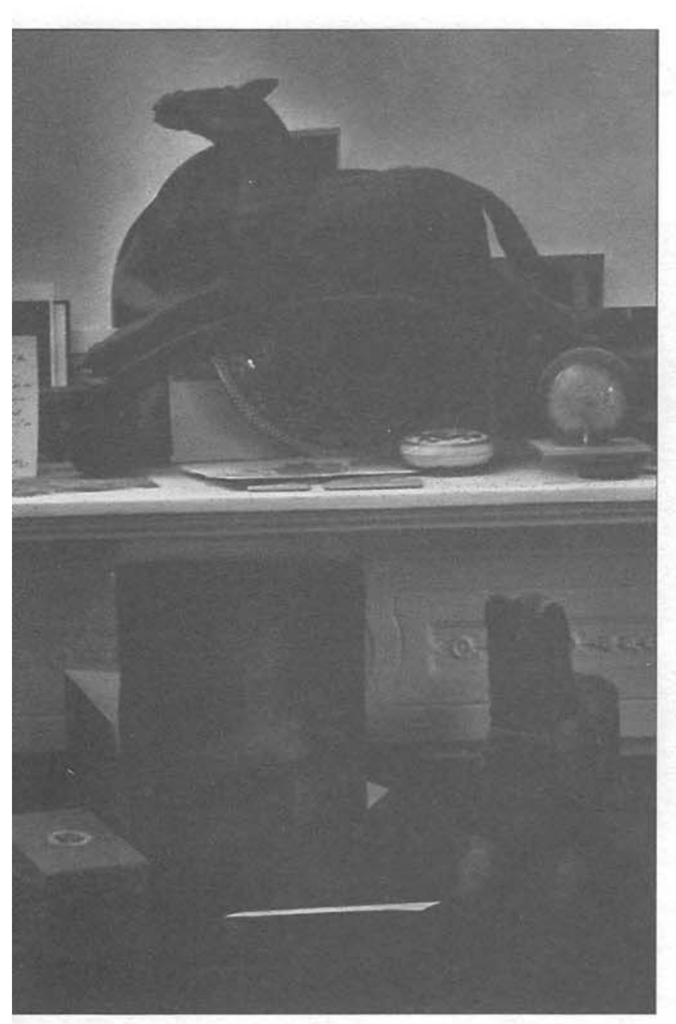
هـذه الأديـان جميعاً يغـارون كثيراً من بعضهم بعضاً، ويؤكـدون أن ديانتهـم هي الديانـة الحقيقية الوحيدة. كتبـتُ **شيكاسـتا** مسـتعينة بمعارفي من جـراء قراءتي للكتـب الثلاثـة هـذه الكتب جميعها، لأن المسـلمين أيضاً يتحدثون عن يسوع ومريم. استعملت كل ذلك لأنتج بنفسي عالماً جديداً، فيه كواكب وإمبراطوريات مجرّيّة وشيطان...».

بالنسـبة إلى السياسـة، تؤكّد قائلة: «إنّ كلمات مثـل اليميـن واليسـار لـم تعـد تعني لـي الكثير. أرى السياسـة كعمـل درامـي كبير، وهو عـرض فيه بعض اللحظـات الجيـدة، كمـا حصـل حين فـرض ملككم خـوان كارلـوس الديموقراطيـة فـي إسـبانيا فـي وجه انقـلاب اليميـن المتطـرف. رائـع! ولكـن مـع بـوش وطوني بلير الرهيبين لم نحظَ إلا باللحظات السيئة. تحسّنّا مع غوردون براون، ليس لأنه شـخص لامع، بل لأنه كان من المسـتحيل أن يسـوء الوضع أكثر». تنظر باستحسان إلى وقوف الديموقراطيين مع رئاسة الولايـات المتحـدة، ولـو أنهـا تـرى أن بـاراك أوباما «لـن يظـلّ رئيسـاً لمدة طويلة. فالعديـد من أصدقائي فـي الولايـات المتحـدة يعتقـدون أنه سـيُقتل إذا فاز. الأمـر غريب بالنسـبة إلـى الأوروبييـن أليس كذلك؟ أن يعتقدوا أن رئيسهم قد يُغتال، إلا أن الكثيرين من أميركا الشـمالية مقتنعون بذلك، وهو أمر مقلق، لأن أحـداً لا يفكـر مثـلاً فـي أن بوش في خطـر الموت، بالرغم من تصرفاته البربرية».

تقصّ علينا ليسينغ مبتسمة كيف اقترب منها مرة فـي السـبعينيات عضـو من لجنة نوبـل وقال لها بنبرة بـاردة: أنـتِ لا تعجبيننـا، ولن تحظـي بالجائزة يوماً. «كان ذلك بسبب مواقفي الانتقادية بخصوص الحركة النسـائية، أخبرونـي أن موقفـي فضائحي. عشـت في ظرف محرج جداً، لأنني بالرغم من تعاطفي مع قضية المرأة، لم أحاول يوماً دعمها في كتبي، وبعد صدور **الدفتـر الذهبي** (1962) اعتبرني العالم أجمع نموذجاً مثالياً عن قضية المساواة بين الجنسين، ووصلتني مئات الرسـائل من نسـاء أصبحن جنديات بعد قراءة كتابي. أصبت بالإحباط لأن أحداً من النقاد لم يتكلف عناء ذكر رأيه في ما لو كانت الرواية مكتوبة بشـكل جيد أم لا، فلـم يتحدثـوا إلا عـن بعض الأفكار المذكورة فيه، وبالغوا كثيراً في التفسـيرات التي اعتبرها الناس جيـدة. لـم أتفـق مع المدافعات عن حقوق المرأة في السـتينيات لأنهنّ اعتقدن بالمسـلّمات. لا أحب مثلاً أن نكرر ما فعلته النسـاء دائماً: الجلوس في المطبخ والشـكوى مـن الرجـال. قـال هـذا، لم يقـل ذلك... هـذا الابتهـال العقيم الذي تكرر علـى مدى التاريخ، والـذي حولتـه بعضهـنّ إلى نمـوذج. كما لا أتفق مع تلك الفكرة العاطفية التي مفادها أن النساء أكثر ميلاً إلى السلام: قادت السيدة تاتشر بوحشية واضحة حرباً ضـد الأرجنتيـن. انظر، إنّ أفضل حليف لحرية المرأة – فـي الحقيقـة – هو العلـم الذي اخترع حبوب منع الحمل وآلات كالغسالة».

بالرغـم مـن أنهـا قـد روت رقة الحـب كما لم يروهـا أحـد، تعتـرف قائلة: «الحب الرومانسـي ليس لـي». ثـمّ تتحـدث مازحـة عـن تجاربهـا السـيئة مـع رجال زنوج («علاقتي بواحد منهم دامت ثلاث دقائق فحسب!»). وتذكر قائلة: «على عكس الأساطير، فإن الرجـال الإنكليـز هـم الأكثـر رومانسية فـي العالـم، لأنهـم يُسـجنون في المـدارس الداخلية حين يكونون في السابعة من عمرهم، حيث يبكون ليلة تلو الأخرى من شوقهم إلى أمهاتهم. ولا شيء يشبه هذا الحرمان المبكـر لـلأم مـن أولادهـا إلاّ أن تنجـب أبناءً يقعون بشـكل متكـرر ودرامـيّ فـي حـب أشـخاص يصعب منالهم. ولكنهم حين يجدون شريكاً في نهاية المطاف يصبحون أفضل العشاق وأكثرهم ذكاءً وتسلية».

مـا يفتنهـا في العشـق هو «السـبب الذي يمكّن شـخصين ن الشـعور في لحظة واحدة أنهما منجذبان إلـى بعضهمـا إلـىٰ هذا الحدّ؛ يؤكـد العلماء أن الأمر وراثـي، لكننـي لا أسـتطيع أن أجـد نموذجاً مشـتركاً بيـن الرجـال الذيـن أحببتهـم». لكنها متأكـدة من أمر واحـد: الشـغف لا ينقص مع التقـدم بالعمر، ولذلك كتبت **الحب من جديد** (1996) وهي قصة رائدة عن المشـاعر المتأججـة لكاتبـة مسـرحية في السـتين من عمرها، تجاه رجلين أصغر منها بكثير. في هذه القصة



«ترى البطلة كيف يصبح العمر أمراً مهماً، بالرغم من أنها تشعر بالحب كما شعرت به في شبابها، وهذه كارثة بالنسبة إليها. فبالرغم من وجود الكثير من الأشخاص الذين يقعون في غرام من هم أكبر سناً منهم، إلا أن المجتمع لا يفهم ذلك». وتعترف قائلة: «مع وصولي إلى مرحلة الكهولة، استسلمت للشرب؛ شعرتُ بأنني مهجورة وغير مرغوبة، وشربتُ كل يوم نصف زجاجة إلى أن قلتُ لنفسي في أحد الأيام وأنا أحبو ساحبة نفسي باتجاه المغسلة كي أتقيّأ: دوريس، عليكِ أن تتوقفي... وتوقفت. لم أعانِ إلا أربعة أشهر من إدمان الشراب».

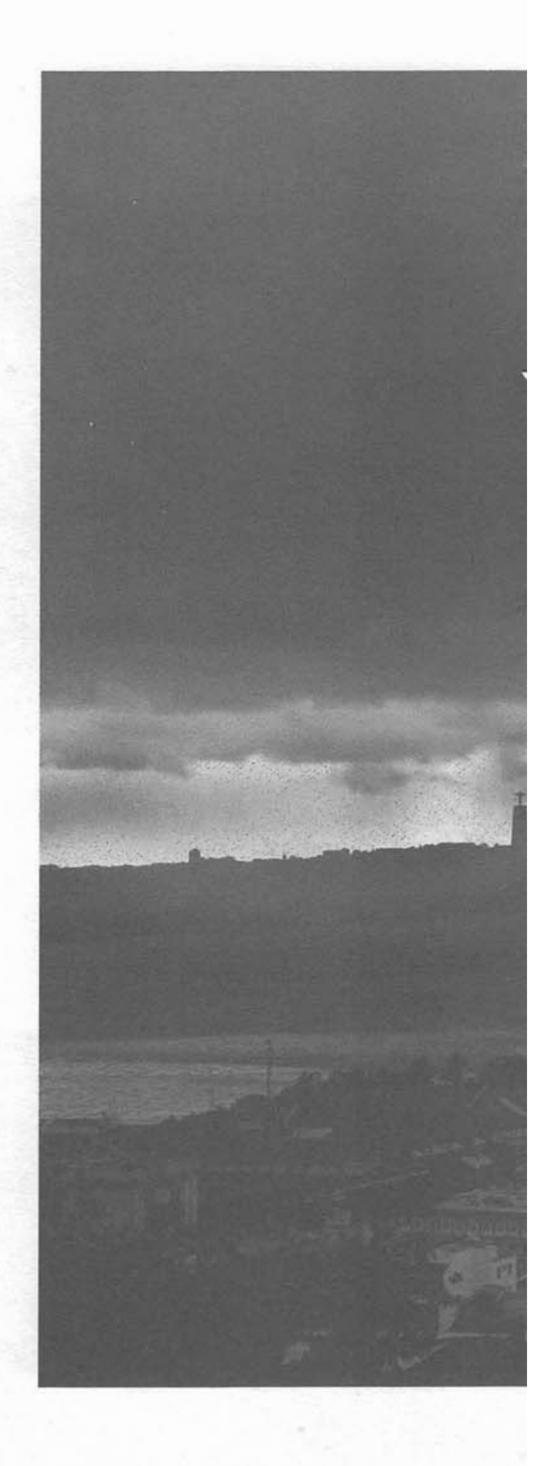
يشتدّ المطر فجأة خلف زجاج منزل ليسينغ الفوضوي والمريح في آن معاً، حيث لا تزال الأوراق والخردوات في مكانها، متكومة كما لو أن جنياً مضطرباً قد بعثرها. توقفت طيور الحديقة عن الزقزقة، وتهادت القطة البيضاء والسوداء على الدرج. تصيح ليسينغ: «لقد كبرنا يا يميم!». وهو اسم أطلقته عليها تيمناً بإحدى شخصيات الأوبرا الكوميدية ميكادو. تقول الكاتبة ضاحكة في رواق منزلها: «التقدم بالعمر أمر سيئ يا صديقيّ!». فتعدينا طاقتها التي تنكر فحوى جملتها.

خوسيه ساراماغو



أنا ألتزم، لكنني لا أضع آمالي في ذلك أبداً".

يقع منزل خوسيه ساراماغو الجديد في حي محافظ وسط لشبونة، وهو منزل فسيح وبسيط، كما أن اسمه: بليموندا، مثل تلك الشخصية التي في وسعها أن ترى عبر الجلد في روايته المذهلة ذكرى الدير.









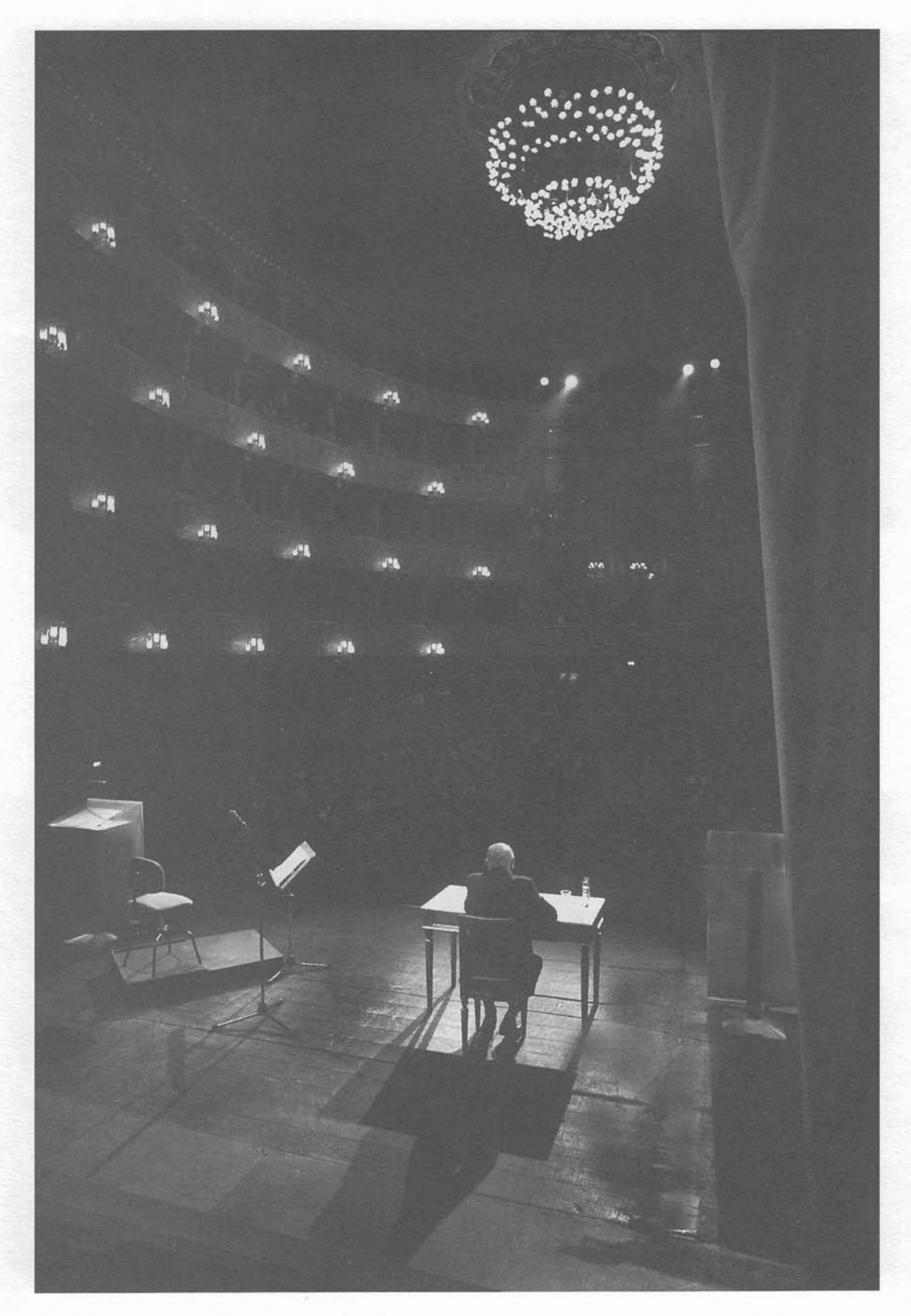












تستقبلنا عند الباب، تحت المطر، زوجته بيلار ديل ريو، الصحفية من غرناطة والتي تقدّمنا إليه: خوسيه، هذان هما السيدان اللذان سيلازمانك كظلك خلال الأيام الثلاثة القادمة.

يقول فيرد الحائز على جائزة نوبل للآداب في العام 1998، والذي قد استيقظ لتوه من النوم: «آه، تشرفنا. أتعرفان أنني اشتريت هذا المنزل من دون أن أراه حين كنت في برشلونة في اليوم العالمي للكتاب؟».

بينما تقدم لنا بيلار الشاي في المطبخ المتواضع والدافئ في آنٍ معاً، تشرح لنا قائلةً: «كنا واثقين ببعض أصدقائنا الذين كانوا قد رأوا المنزل إلى حدّ أننا نسينا أن نسأل عن السعر. وحين أخبرنا البائع أن مشتري المنزل هو ساراماغو اقشعرّ جسده، وقال لنا إنّ المنزل يدعى بليموندا! كان معجباً بخوسيه، حتى إنه دعاه إلى مركبه ذات مرة ليشاهد الدلافين». يوضح الكاتب قائلاً: «كان في ودّنا أن نحصل من جديد على مكان خاص بنا في لشبونة، فالأوقات التي أمضيها في إسبانيا والبرتغال لا تنفك تتقارب، ومع أن مدينة لانثاروتة لا تزال الغالبة بقوة، إلا أنني شعرت بحاجة إلى إعادة توطيد علاقتي الحميمة مع البرتغال».

تخاصم ساراماغو مع السلطة في البرتغال في العام 1992، حين منعت الحكومة البرتغالية رواية **الإنجيل وفقاً ليسوع** – التي تنتقد بشدة الكنيسة الكاثوليكية – من الترشح لجائزة أدبية أوروبية ما. فانتقل في العام التالي إلى لانثاروتة حيث يعيش حتى الآن. في الثاني والعشرين من كانون الثاني التالي، كانت ستقام في البرتغال انتخابات رئاسية، وكان المؤلف قلقاً جدًا من احتمال فوز آنيبال كافاكو سيلفا، المرشح اليميني الوحيد: «لم أنسَ ما فعلوه بي. كان كافاكو سيلفا أول وزير حكومة يمنعني، وبافتراض وصوله إلى سدة الحكم لن يعود لديّ أي دافع للحفاظ على علاقتي به، ولا حتى العلاقات الرسمية».

يسرف خوسيه وبيلار في إظهار مشاعرهما الجياشة، فيمسك أحدهما بيد الآخر، ولا يترددان في تقبيل بعضهما بشغف وسط الشارع. كما أن الأدب يجمعهما (فهي مترجمة أعماله إلى الإسبانية)، وقد بدأت قصة حبهما في العام 1986: «اتصلت بي في لشبونة، وقدمت نفسها على أنها قارئة تريد أن تسرق مني ربع ساعة. فوافقت، واتفقنا على اللقاء عند الرابعة عصراً. كان عمرها ستة وثلاثين عاماً وأنا ثلاثة وستين. تحدثنا كثيراً، ومشينا في الأماكن المذكورة في رواياتي. ذَهَبت، لكنها تركتني متأثراً. بعد ذلك بقليل كتبتُ لها رسالة: لو أن ظروفك الحياتية تسمح لك، ففي ودّي أن نلتقي. كانت تلك طريقتي لمعرفة إن كانت متزوجة أم لا. وعندها بدأ كل شيء. مشينا أول مرة في المقبرة لنرى مكان قبر بيسوا، وبعدها ذهبنا إلى دير لوس خيرونيموس حيث عاشت، وفندق براغانسا وهو مسرح أحداث روايتي **عام وفاة ريكاردو ريس**. سنرى كل هذه الأماكن».

رنّ الجرس ورأينا مدير دار النشر كامينو حيث ينشر ساراماغو كتبه بوفاء. وكان قد جاء ليصطحبه إلى تقديم طابع بريدي جديد عليه صورة آلفارو كونال المتوفّى، وهو القائد التاريخي للحزب الشيوعي البرتغالي (PCP) الذي ينتمي إليه الكاتب. «أعتقد أنني وكونال الشيوعيان الوحيدان اللذان تظهر صورتاهما على الطوابع... مع أنني أشعر ببعض الغيرة لأن طابعه وصورته سينتشران الآن عبر البريد العادي لأن سعر طابعه بضع سنتيمات. لم أرَ يوماً رسالة تحمل طابعاً عليه صورة وجهي، بسبب السعر المرتفع الذي حدّدوه للطابع الذي يحمل صورة وجهي!».

استقللنا السيارة لنلحق بالتقديم، وتحت أضواء زينة الميلاد في الشوارع، كشف لنا ساراماغو لمن كان سيصوّت في دورة ثانية افتراضية: «سأختار ماريو سواريس لو أمكن». لعل الحزب الشيوعي البرتغالي هو الحزب الشيوعي الوحيد في أوروبا الذي لا يزال محتفظاً برموزه، وبالمنجل والمطرقة اللذين يميّزان ملصقاته. «يقدم نفسه باسمه، وهذا لا يسيء إليه. نحن من نحن: لسنا مضطرين إلى وضع مستحضرات تجميل مزيفة؛ ما زلنا نحن الشيوعيين نعتقد أن

مشاكل العالم يمكن حلها بتوزيع أكثر عدلاً للأرباح». ترشحت ابنته للكتلة اليسارية، فيقول بخضوع أبوي: «وهو يسار مستقل وفعال جداً، لكنه يرفض كل ما يتعلق بالحزب الشيوعي. نصيبهم بالغثيان». نترجل من السيارة. ونصل إلى البريد حيث يتأمل الكاتب إصدار الطوابع بعد بعض العناقات الاضطرارية، ويحدق إلى وجه كونال على المغلفات. وفي الخلف يوقّع جيرنيمو دي سوسا، المرشح الشيوعي للرئاسة، للناس كنجوم الروك.

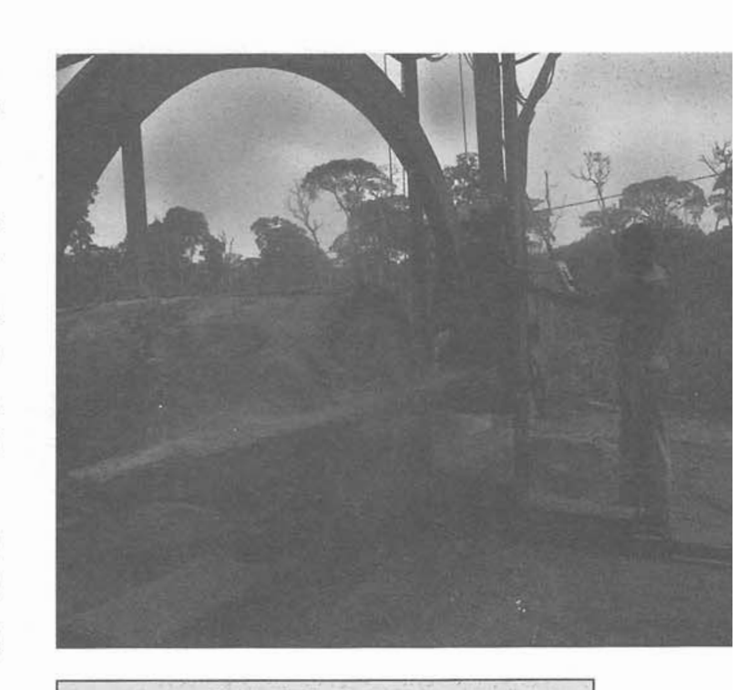
يخصص ساراماغو أيامه هذه للترويج لروايته الأخيرة **انقطاعات الموت**، والتي تروي ما قد يحدث لو أن الموت توقف فجأة في بلد ما وعاش الناس إلى الأبد.

في اليوم السابق للمواكب العديدة على شرف السيدة مريم العذراء - والتي ستُغرق الشوارع - يقول الكاتب الذي يقرأ كتب الفيزياء الفلكية بكثرة: «لست متديّناً، ولا أفهم كيف يمكن للبعض أن يكونوا متديّنين. هذا أمر صعب جداً مع التطور العلمي الحالي. وسيستمر الوضع هكذا حتى اليوم الذي ينتهي فيه كل شيء: الأرض، والمجرة، والنظام الشمسي».

- ألا تفكر حقاً في الموت أبداً؟

- حين ولدتُ كان متوسط العمر لسكان ضيعتي ثلاثة وثلاثين عاماً. وفي السابعة عشرة من عمري أدركت للمرة الأولى أنه علينا جميعاً الرحيل. عشت ذعراً حقيقياً!

«أخذت أتجول في الشوارع وأنا أشعر بالفكرة تقع على رأسي كالمقصلة، فأتوقف وأصيح متعجباً: سحقاً، سحقاً، عليّ أن أموت! ولكنّ هذا الهوس زال مثلما جاء. والآن، وأنا في الرابعة والثمانين من عمري لا أفكر في الأمر؛ علينا التخفيف من الدراما. أفهم أنه أمر محزن بالنسبة إلى العائلة، ولكن ما الذي في وسعنا فعله؟ طالما أنني أتمتع بصحتي، فأنا أعيش كرجل في الخامسة والسبعين من عمره، وهو عمر رائع. أحياناً أعيش كأنني في الثانية والستين من عمري، وهو أيضاً عمر جيد.



القضية: يجب على الكتب ألا تقتل الغابة

إنّ الصراع ما قبل الأخير الذي يخوضه خوسيه ساراماغو هو ضد تصحّر كوكبنا. لذلك، قرر بالتعاون مع منظمة السلام الأخضر غير الربحية أن تُطبع أعماله الأدبية بأكملها باستخدام ورق لا يحتاج إلى تدمير الغابات الرئيسة على كوكبنا. «إن عبارة الورق صديق الغابة لا تعني أنّ الورق لم يُعد تصنيعه أو أنه لم يحتج إلى قطع الأشجار فحسب، وإنما يعني أن كل مراحل العملية قد تمت باستخدام تكنولوجيا لا تضر بالنظام البيئي، ولا تتسبب بدمار أخشاب هذه الغابات. أخبرتُ كل ناشريّ في العالم برغبتي بأن يعملوا بهذه الطريقة، بالرغم من أنني لا أستطيع أن ألزم بذلك ناشريّ في البلدان الفقيرة. الورق يصبح أغلى قليلاً، لكن ذلك لا يشكل عائقاً. على صناعة الورق كلها أن تتخذ هذا النهج، فمن المحزن أننا أمسينا نقتل الغابات لننتج الثقافة. لقد فقدنا حتى الآن أكثر من ثمانين بالمئة من الغابات الرئيسة. وإذا بقينا على حالنا، فسنفقد الغابات الباقية خلال عقود». استجاب لهذه المبادرة كتّاب آخرون مثل دجيه كيه رولينغ، وغونتر غراس، وإيزابيل الليندي، وخافيير ثيركاس، ومانويل ريفاس، وخافيير مورو، وخوسيه لويس سامبيدرو، وروسا ريغاس.

- وما رأيك بحياتك؟

- معجزة... لو أن المعجزات حقيقة. تعلمتُ بنفسي لأن عائلتي كانت فقيرة. عملتُ مصلحاً للأقفال مدة ستتين، وأنا مرتد لباس العمل الأزرق التقليدي. ومارست مهناً أخرى كثيرة. تعلمتُ الأدب في المكتبات العامة لأننا لم نكن نملك أي كتاب في بيتنا، وكانت أمي أمية. لم تكن هناك مؤشرات تدل على أنني سأسلك الطريق الذي سلكته. كتبت رواية واحدة وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، وبعدها لم أكتب شيئاً إلى أن خسرتُ عملي كصحفي في جريدة الأخبار بعد أن تجاوزتُ الخمسين، فقررتُ أن الوقت قد حان لأتفرغ للكتابة. حين يسألونني عن سبب تمضيتي كل تلك السنوات من دون كتابة، أجيبهم بصراحة أنه ليس لديّ ما أقوله.

في الليل يحين وقت الأوبرا، وهو شغفه الكبير الآخر. في برنامج مسرح سان كارلوس أوبرا **عطيل** لفيردي، من إخراج أنطونيو بيرولي، «بالرغم من أن الأوبرا المفضلة لدي هي دون جيوفاني لموزار». عند باب المسرح، تعرض عليه متسولة جريدة للأعمال الخيرية فيعطيها ساراماغو بشكل مفاجئ ورقة من فئة خمسة يورو قبل أن يدخل البهو مسرعاً. تلحق المرأة المذهولة بخطاه؛ ولعلها تريد التأكد من هوية هذا الرجل. وبعد أن تتجاوز المدخل، وتكتشف جمال الصالة المذهّبة والسقف المزخرف وأثواب السيدات الأنيقة ترسم رمز النصارى الديني بذهول وتترك نفسها لحظات لتتأمل باستمتاع. تبدو الخِرَق التي ترتديها مهلهلة بالنسبة إلى سائر الموجودين لكنها تبقى فترة من الزمن وهي تتأمل كل شيء بدهشة.

كانت بيلار هي منظمة نزهتنا. ولقد وضعت خطة لعطلة نهاية الأسبوع، حيث سرنا في أنحاء المدينة التي ذُكِرت في روايات زوجها إلى أن شعرنا بالإنهاك. وبينما كان المطر ينهمر خفيفاً، بدأت نزهتنا في ساحة روسيو، وهي أوضح مثال للمدينة القديمة. في العام 1969 نشر ساراماغو في إحدى جرائد العاصمة قصة يتحدّث فيها عن الأشخاص الذين يجدون رسالة في زجاجة في النافورة الموجودة وسط هذه الساحة. تقرأ بيلار ديل ريو الآن نص القصة بصوت عالٍ، فيما هو ينظر إليها بابتسامة عريضة وكأنه قد عاد شاباً. في القصة، ورد في الرسالة: «النجدة!». في إشارة إلى الحكم الديكتاتوري السائد في تلك المرحلة.

كان اللحاق بساراماغو في نزهة أمراً مرهقاً. فهو طويل، ورشيق، وحيويّ، ويشبه دون كيشوت؛ إذ ينتقل من مكان إلى آخر، ويصعد ويهبط درجات سان كريسبين المئتين، وهو يشرح تاريخ كل زاوية في لشبونة التي تشرق بمساحاتها الخضراء الجديدة، والتي تحاول منذ المعرض الدولي في العام 1998 أن تتخلص من لقب المدينة المنحوسة بسبب الكوارث التي ألمّت بها على مدى التاريخ. «لم يقتصر الأمر على الزلازل والحرائق، بل أيضاً التسونامي الأول في تاريخ الغرب في العام 1775». ولكن، في كل ليلة، تكذّب أصوات مغنّي الفادو الذين ينتشرون في المطاعم الشعبية للمدينة القديمة كل الجهود المتفائلة بجعل لشبونة مدينة معاصرة.

نمر في الحافلة بالساحة التي أحرقت فيها محاكم التفتيش كلاً من المهرطقين واليهود والمثليين، ونتذكر مشهداً قاسياً من كتاب **مذكرات دير**، كما نمر بحفرة الزنوج «حيث كانت جثث الأفارقة تُرمى في القرنين السابع عشر والثامن عشر». تضمّنت النزهة وقفة أمام فندق بارغانسا القديم حيث نزل بطل رواية **عام وفاة ريكاردو ريس** في الغرفة 201. كما عمل ريس في عيادته الطبية في ساحة لويس كامويس، حيث ينتصب حالياً تمثال الهوية - «ضعها بين قوسين» - البرتغالية؛ وأشدّد على كلمة تمثال. «حيث تتجلى قلة احترام طيور الحمام للشخصيات الهامة».

يستخرج الكاتب ألف قصة من زوايا كل شارع وبلاطاته وروائحه. لكن أكثرها شيوعاً هي تلك التي تتحدّث عن الشاعر فيرناندو بيسوا («عاش في كل أنحاء المدينة تقريباً، في شقق مستأجرة»). وهو المسبّب الرئيس لتحوّل عامل الأقفال السابق هذا إلى كاتب. يقصّ علينا قائلاً: «في شبابي قرأتُ قصيدة له تركت أثرها في حياتي:

لتصبح كبيراً، كن بأكملك:
لا تبالغ أو تقلل من أي شيء تملكه
كن بأكملك في كل شيء. ضع كل ما أنت عليه
في أصغر ما تفعله،
لذلك يلمع القمر بكامله
في كل بحيرة، لأنه يعيش بسموّ.
بعد قراءة هذه الأبيات قلت: نعم، سأعيش هكذا».

تعرف ساراماغو إلى الطبيب الذي اعتنى ببيسوا في أواخر حياته، «وأخبرني أنه حين كانت العائلة ترافقه إلى غرفته كان يقول له ادخل، ادخل يا دكتور، ها هو ذا عديم الفائدة. لا تحب العائلة ذكر ذلك. لكن هذا ما حدث؛ بما أنه لم يكن رأسمالياً أو صاحب بنك فهو عديم الفائدة». وبعدها، يهز رأسه متأسفاً أمام قبر الشاعر في دير لوس خيرونيموس، ويعيد ساراماغو قراءة هذه القصيدة، ويطرق على حجر القبر كما لو أن أحداً سيجيبه، ثم يتحدث برقة إلى بقايا الشاعر ويقول لنا ببعض الجدية: «ها هو ذا بيسوا أيّها السيدان!».

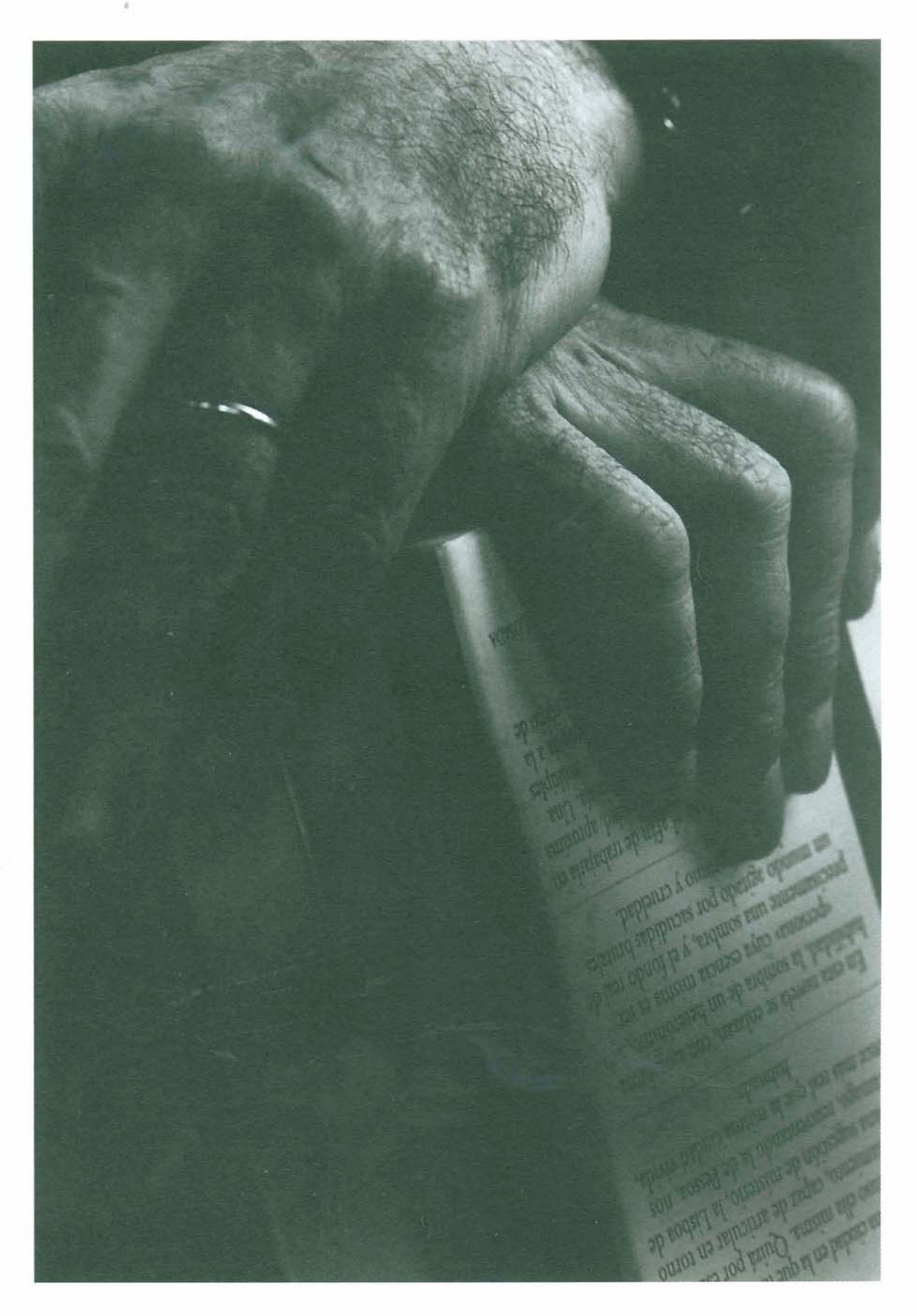
الالتزام والأدب

بعد زيارة قلعة سان خورخيه، بالقرب من منزل مصحح كتاب **تاريخ حصار لشبونة** نأكل في مطعم مارتينو دا آركادا وهو الأقدم في العاصمة، حيث يحتفظون بالطاولة التي اعتاد أن يجلس عليها عديم الفائدة ذاك المدعو بيسوا، كما لو كانت كنزاً. في انتظار الطعام، يعبّر ساراماغو عن آرائه المبدعة حول البلد، فيوضّح: «لست متأكداً من استمرار وجود البرتغال بعد خمسين عاماً. نعيش عمليّة انحدار بطيئة، فيها بعض مواضع الحماسة كالجمهورية أو ثورة المنثور. هذا يؤكد عدم قدرتنا على الاحتفاظ بنبض عالٍ للحياة، وهو ما قد لا يسمح لنا بالبقاء. قد يبقى البرتغاليون بصفتهم جماعة من الناس الناطقين بالبرتغالية، لكن الحكومة البرتغالية قد تندثر. قبل فترة اختفى بلد يدعى يوغوسلافيا. نحن باقون هنا طبعاً، لكن التغيرات الجيواستراتيجية والاقتصادية قد تقودنا إلى درجة غير مسبوقة من البدائية. حتى لو لم يحدث ذلك غداً، فإنه مرتبط بالدور القوي للحكومة الإسبانية، فإسبانيا بلد حي يتطور. من المنطقي أن تنجذب البرتغال إليه، وأن تنضم إلى حكومة أيبيرية جديدة، ولو أن ذلك سيتمّ بدرجة عالية من الحكم الذاتي. هذا مجرد تخمين، لأنني شخصياً لست مع ذلك ولا ضده، لكنني سأقول لك إنه من الممكن أيضاً أن تمتلك البرتغال، بصفتها حكومة فيدرالية إلى جانب إسبانيا، أهمية لا تتمتع بها حالياً».

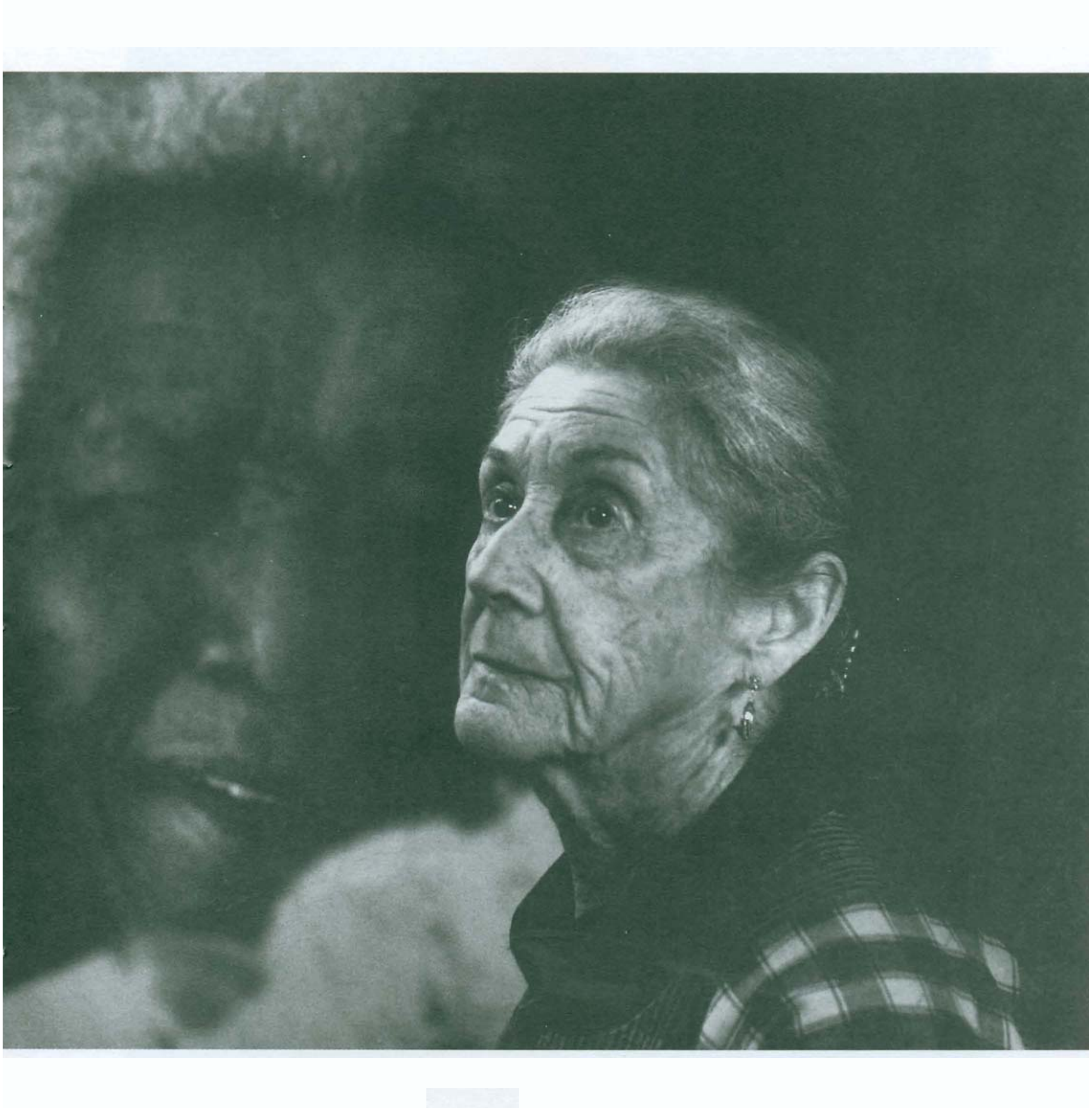
مع حلول الظلام نكتشف أن بيلار ديل ريو تنزعج كثيراً حين يصفون ساراماغو على نحو يجافي الحقيقة، بقولهم إنه ملتزم محترف أو أنه يحب المثالية أو أنه محاضر تقدمي. يعتقد الكاتب في الحقيقة أن «الفن لا يستطيع تغيير العالم. لو كان الأمر كذلك لأمسينا سعداء جداً لكتابة أعمال مثل دون كيشوت والإخوة كارامازوف وهاملت... يجب على الكاتب ألا يتخذ موقف الرسل. أنا ملتزم، لكنني لا أضع آمالي في ذلك».

تؤكد بيلار قائلةً: «منزلنا ملجأ أخير يقصده الناس الذين يعانون من مشاكل كثيرة، وقد حاولوا كل شيء من دون فائدة: أفارقة بلا مستشفيات، وأطفال معوّقون، ومهاجرون بلا أوراق رسمية... هناك كاتالانيّ غبي - اكتبه هكذا - ألّف كتاباً تدخّل فيه بحياة زوجي ومانويل باثكيث مونتالبان، من دون أن يعرف أن في العالم الكثير من الألم والكثير من الناس الذين يعانون الكثير من دون مكان يلجأون إليه».

يقلل ساراماغو من أهمية الانتقادات ويقول: «إنّ البعض يقولون لي إنني أبالغ في وضع الإيديولوجيات في كتبي. بالنسبة إليهم كتاباتي هي إيديولوجيا، وكتاباتهم ليست كذلك. لا يعتبرون الكاثوليكية إيديولوجية ولا القناعات الثابتة. وحدهما الشيوعية والماركسية إيديولوجيتان بالنسبة إليهم. أشعر أن الناس يحبّونني، لكن قسماً منهم يزعجه أن أبيع كل هذه الكتب. لدي ما أقوله لهم: في الطبيعة أشجار لا تنمو كثيراً لأنها تنتمي إلى نوع مختلف، لكن أشجار السيكويا ليست أفضل من الزيتون. والعكس صحيح».



نادين غورديمر



الكرامة التي هزمت التمييز العنصري

إنها صغيرة الحجم وقوية. ناضلت نادين غورديمر الجنوب إفريقية والحائزة على جائزة نوبل للآداب في العام 1991 ضد التمييز العنصري في بلادها، وانتصرت. تتذكر الكاتبة الذعر الذي شعرت به في تلك السنوات التي كانت تدافع فيها عن إنجازات الديموقراطية حديثة السن. أما الآن، فهي غارقة في كفاحها ضد الإيدز، وملتزمة بالكتابة كل صباح حول الواقع الذي يحيط بها.

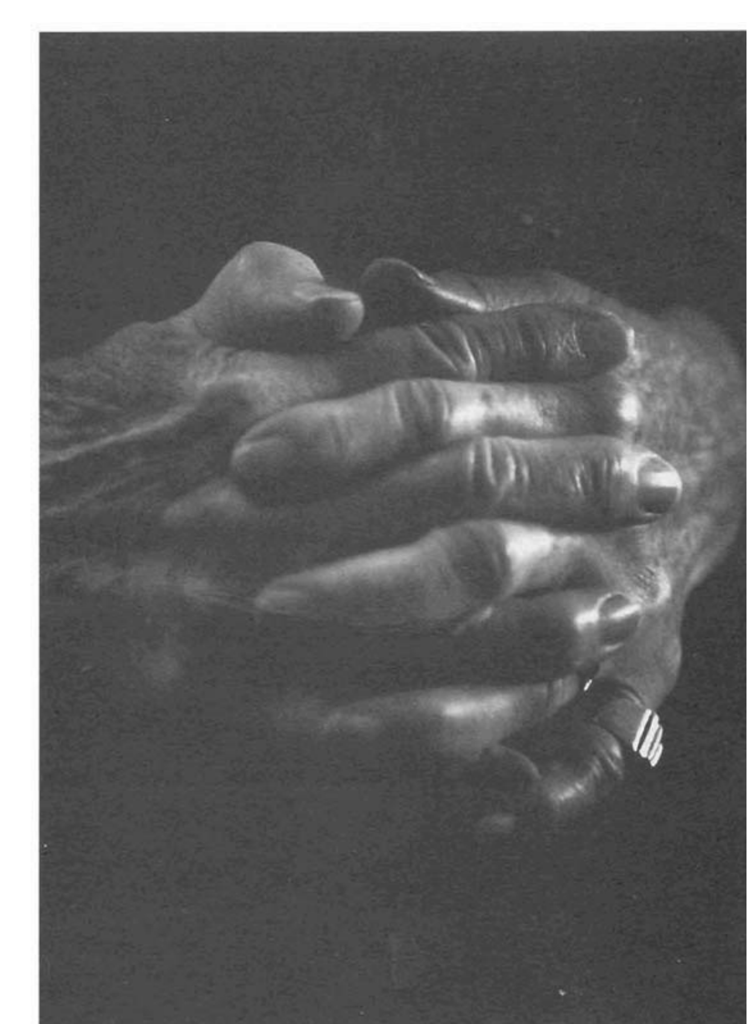
يتحدث شاب وشابة ويضحكان، ثم يقول الشابّ فجأة: «أعتقد أن هذه العلاقة يجب أن تنتقل إلى المرحلة التالية». لم تستطع الشابة أن تخفي انفعالها، وصارت تنتظر أن يلفظ تلك الكلمات الرائعة التي قالها متمتماً: «هل ترغبين بالخضوع لفحص الإيدز؟». تغمر الفرحة الشابة فتصيح: «أجل، أريد ذلك!».

أهلاً بكم في جنوب إفريقيا. الإعلان الذي نراه على شاشة تلفاز الفندق جزء من الحملة الحكومية الأخيرة للحد من انتشار فيروس الإيدز. فحسب إحصائيات الأمم المتحدة، يحمل 20 بالمائة من سكان هذا البلد الفيروس. ويشكل هذا المرض، إضافة إلى الفقر (الذي يؤثر في 53 بالمائة من السود مقابل 4 بالمائة من البيض) وارتفاع معدلات الجرائم (تتعرض امرأة من بين كل أربع نساء للاغتصاب قبل أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها) المشكلة الأساسية للأمة التي ألغت في العام 1991 نظام التمييز العنصري القائم على العرقية وحرمان الزنوج من حقوق الإنسان.

في جوهانسبورغ، العاصمة الاقتصادية، وُضع فاصل حدودي واضح بين الأحياء التي يمكن زيارتها والأحياء التي يحظر المرور بها. يعد حي باركتاون ويست حيث تقطن نادين غورديمر منذ نحو خمسين عاماً منطقة آمنة – خلال النهار على الأقل – إلا أنه لا يخطر ببال أحد التنزه في طرقاته التي تلتف بين الحدائق والبيوت القديمة. لا نجد في طريقنا أي سيارة أو مارّة، والمؤشر الوحيد إلى الحياة هو العشب وموظفان في شركة الكهرباء يحملان سلماً بتكاسل. بعد دقائق من البحث هباء عن الجرس، تكتشف المؤلفة بحدسها وجودنا، فيفتح أحد الخدم باب شقتها المؤلفة من طابقين، وهي من تصميم المهندس الإنكليزي هيربرت بيكر، مصمم بناء البرلمان الهندي في نيودلهي والبرلمان الجنوب إفريقي في بريتوريا. تصرخ امرأة صغيرة الحجم من النافذة: «ماذا تفعلان؟ استقلاّ السيارة! لقد نُهِبَ ثلاثة أشخاص الأسبوع الماضي!».

المرأة هي نادين غورديمر، بالطبع. إنها مليئة





بالطاقة وواثقة من نفسها، حتى إنها متأمرة قليلاً، وقد وافقت على تخصيص يومين من حياتها المليئة بالأشغال لنا، من دون أن يؤثر ذلك في إيقاع عملها المنظم. «أكتب صباح كل يوم، مدّة أربع ساعات على الأقل، لا أرد خلالها على الهاتف ولا أفتح الباب... أنقطع تماماً عن العالم الخارجي». في الحديقة تعدو **تيللا**، الكلبة الضخمة ذات العشر سنوات، والتي تنبح عند رؤية الجبال في الأفق في الأيام الصافية.

في اليوم التالي، باشرنا مع غورديمر رحلة قصيرة إلى قلب الذعر العنصري. أخبرتنا في أثناء وجودنا في السيارة أننا «ذاهبون إلى المحكمة الدستورية التي تأسست في العام 2004. كانت حصناً عسكرياً قديماً لجمهورية البويريين تحوّل إلى سجن، فأمسى مركزاً للزنزانات الإفرادية والتعذيب والقتل خلال مرحلة التمييز العنصري. أمضى نيلسون مانديلا هناك قسماً من السنوات السبع والعشرين التي أمضاها في السجون. لو أنه موجود في بلاد أخرى لكان قد هدم، لكننا قررنا تحويله إلى إحدى مؤسساتنا الأكثر شرعية، وهي المسؤولة عن الدفاع عن دستورنا».

في إفريقيا كان مسنّو القبيلة ينفذون العدالة حول شجرة، لذلك فشعار المحكمة هو شجرة، والمبنى - وخاصة حيث تقام المحاكم - مغطى بالخشب، «ليفهم الناس أن العدالة تأخذ هنا مجراها، نجمع بين التقاليد القديمة والقوانين الحالية». وبالرغم من تشييد بناء حديث، لا يزال قسم كبير من السجن على حاله. يشبه شكله معسكرات الاعتقال النازية، بمظلات الحراس، وجدران الإعدام، وزنزانات التعذيب، وملصقات عليها قصص وحشية لا يمكن نشرها هنا، غير أن غورديمر ترويها بالتفصيل بابتهالات مؤثرة:

«كانوا يقتلونهم أمام هذا الحائط، أترىان الثقوب الناتجة عن الرصاص؟ وعلى مسافة قريبة من هنا كانوا يرشونهم بخرطوم الماء وهم عراة، وهنا يقتلعون أظفارهم... معاملتهم للأحصنة كانت أفضل من ذلك». مئات الآلاف من الأشخاص عاشوا خلف هذه الجدران والأسوار الشائكة؛ إن ما حصل لهم هو أبشع ما قد يفعله الإنسان! وإلى جانب هذا



القضية: قصص ضد الإيدز

نادين غورديمر (سفيرة النوايا الحسنة لمشروعات التطوير التابعة للأمم المتحدة) ملتزمة جداً بمكافحة انتشار الإيدز. «لا يزال الناس في أوروبا والولايات المتحدة يعتقدون أن المشكلة بعيدة عنهم، وأنها مرتبطة بالبلدان النامية. ليس هذا صحيحاً، فهي البلاء الجديد في هذه الألفية، وعلينا مواجهته لأنه ما من أحد في مأمن». فكرت غورديمر ذات يوم حين رأت كيف يقوم الموسيقيون بحفلات كبيرة لجمع التبرعات: «نحن الكتاب وقفنا مكتوفي الأيدي، لذلك خطر لي أن أجمع مقتطفات أدبية مؤلفة من عشرين قصة لكبار الكتّاب، فاتصلت بأصدقائي غابرييل غارثيا ماركيث، وكلاوديو ماغريس، وآرثر ميلر، وخوسيه ساراماغو، وكينزابورو أوي، وغونثر غراس، وودي آلان، وغيرهم، وطلبت منهم أن يتبرعوا لي بقصة للكتاب. أجاب العشرون بالموافقة، وجاءت قصصهم رائعة ومختلفة كلياً عن بعضها. أنا ذات الرقم **21**، أشارك بقصة عن فتاة صغيرة تدخل إلى حديقة كروغر للهرب من حرب موزمبيق». الكتاب المسمى **Telling Tales** أو نحكي الحكايات نُشر في أحد عشر بلداً حتى الآن، وقد خصصت دور النشر أرباحه لمكافحة الإيدز.

نجد القسم الآخر مغايراً: إذ إنّ هناك معرضاً فنيّاً ومكتبة وألواناً زاهية، بل إنّ صالات انتظار تبدو وكأنها آتية من حفلات البوب في السبعينيات... تتساءل غورديمر في لحظة تأثر مباغتة: «لماذا عسانا نبني محاكم مملة كتلك التي في أوروبا؟». قبل أن تدخل جناحاً مخصصاً للنساء حيث اعتادت أن تزور واحدة من أعز صديقاتها. وفي الغاليري الذي يشغله معرض عن أسر مانديلا، يعرض العديد من الفنانين المحليين لوحات لنساء حوامل، في أحشائهن أطفال مصابون بالإيدز. وهذا المرض بالذات هو الموضوع الذي جعل غورديمر تلتقي الرّئيس الجنوب إفريقي تابو مبيكي بشحمه ولحمه، وهو عضو في حزب الملتقى الوطني الإفريقي (CNA) الذي أسسه صديقه نيلسون مانديلا، والحاكم حالياً في جنوب إفريقيا بعد فوزه بسبعين بالمئة من الأصوات.



تقول نادين متأسفة: «يزداد وضع الإيدز سوءاً يوماً بعد يوم». من الصعب جداً تغيير العادات الجنسية للناس لنصل إلى العادات الآمنة. ليست المسألة مسألة واقٍ ذكري فحسب، بل المشكلة هي أنه بين جيل الشباب تنتشر فكرة معينة. وهي أنه يجب على الجميع ممارسة الجنس حين يذهبون إلى حفلة ما. هناك اختلاط جنسي رهيب، وهي الثقافة المنتشرة هنا، كما أن المصابين بالفيروس يخجلهم الاعتراف بذلك. وخاصة في أوساط السود. لقد تأخرت الحكومة كثيراً في تأمين الدواء اللازم لنا». في جناح النساء تتذكر غورديمر صديقتها المسجونة: «كانت هوغونتية لكنها أصبحت شيوعية ونقابية. كانت بشرتها بيضاء، وتنحدر من عائلة جيدة، وصديقها أسود. عاشا معاً مدعياً بالضرورة أنه خادمها. حين سجنوها لم نتمكّن من أن نحمل إليها إلا البطانيات، ولم نتمكن من أخذ الطعام أبداً. ادعيت أنني أختها، لأن الزيارات العائلية كانت وحدها المتاحة. المسكينة... تركت حياتها البرجوازية للمرة الأولى لتدخل السجن...».

«لن أنسى أبداً هذا الطريق، فهو ذاته الذي قطعته لزيارتها. هذا الباب، وهذا الممر...»، وتعترف قائلةً: «بدأت أنفعل». نصل إلى زنزانات الحبس الإفرادي حيث «اعتاد الحراس على اغتصابهن وضربهن». وقد رسمت كيم مانريسا وجه صديقتها إلى جانب زنزانتها، بالرغم من أن ذلك ممنوع.

وعلى الجدران توجد صور بالحجم الكبير لسجناء قدامى يروون قصصهم ويتحدّثون عن العذاب الذي عانوه، كما يوجد جهاز يمكنك أن تسمع من خلاله الأغاني التي غنّاها السجناء ليرفعوا من معنوياتهم. الأمر واضح بالنسبة إلى غورديمر: «الرئيس السابق دي كليرك يصطاد السمك بسرور في مزرعته الجميلة. لا يتمتع الشعب الجنوب إفريقي بروح الانتقام. أين



يمكن لرجل حظي بحكومة كهذه أن يبقى في بلده؟ يعيش في جنوب إفريقيا كأي مواطن آخر، من دون أن يزعجه أحد. هذا دليل على التسامح اللامعقول للسود في بلدي، وهو مثال يحتذى به».

غورديمر ابنة ساعاتيّ يهودي ليتواني الأصل وامرأة إنكليزية. تمثل غورديمر كغيرها من الأشخاص القليلين الالتزام بمكافحة العنصرية. تعكس أعمالها الآثار النفسية على الأشخاص في مجتمع مقسم على أساس العنصرية. في اليوم السابق لزيارة السجن القديم، سألناها في بهو منزلها الخشبي الواسع: «متى أدركتِ للمرة الأولى أنك تعيشين في عالم ظالم؟». فأجابت: «كان ذلك في سبرينغز، المدينة الصغيرة التي ولدت فيها في العام 1923. فمع ظهور التمييز العنصري في العام 1944، حصل تقسيم كامل. أُسر الزنوج في منطقة محدودة بشدة. قصدتُ مدرسة راهبات تقتصر على الفتيات البيضاوات، وكنت أذهب إلى السينما المخصصة للبيض حصراً في أَمْسِيَة أيام السبت، وإلى المكتبة المحلية التي لم يُسمح للسود بدخولها. لو كنت سوداء لما أصبحت كاتبة، لأن الطريقة الوحيدة للتحضير هي القراءة. لا يمكن لأحد أن يعلمك الكتابة». وهكذا مضت غورديمر تسير وهي تقول: «كنت أذهب كل يوم من البيت وحتى المدرسة، مارة أمام منجم ذهب يوظف مالكه عدداً كبيراً من العمال السود، الذين كانوا يُكدَّسون في حجرة صغيرة، ويُسجَنُ مسبّبو المشاكل. وحين أكون في طريق العودة إلى المنزل، كنت أراهم يخرجون من العمل ويقصدون دكاناً، إلا أن حاجزاً يمنعهم من المرور، ولذلك، يشيرون من الخارج إلى ما يريدون شراءه: فونوغراف، حقيبة... فيسلمهم البائع ما يريدونه إذا دفعوا له ذهباً. كنت فتاة في الحادية عشرة من عمري، وبدا الأمر لي غريباً، لأنني حين كنت أذهب مع أمي لشراء شيء ما، كالحذاء مثلاً، كان في وسعنا تجربته، بل حتى أخذه معنا إلى المنزل لنعرف إن كان ملائماً لي أم لا. وهكذا قلت لنفسي: ما هذا؟ لماذا يمكنني أنا فعل ذلك، فيما لا يستطيعون هم القيام بذلك؟ وفي عمر الخامسة عشرة كتبت قصتي الأولى حول تلك التجربة المبكرة. مثّلت تلك بداية إدراكي».

بعد الحرب العالمية الثانية، درست غورديمر في الجامعة لمدة عام. «في حرم الجامعة كان كل شيء مفصولاً. قصد بعض السود كليات السود، ولم يتمكنوا يوماً من الوصول إلى مستوى الطلاب البيض نفسه. أخذت أبتعد شيئاً فشيئاً عن هذا المخطط لأنضم إلى سياسة معاداة التمييز العنصري». تُظهِر كتبها بشكل دقيق العلاقة بين الحياة الخاصة والسياق السياسي، «وخاصة في الأوضاع المبالغ فيها» كجنوب إفريقيا. في هذه الحالات ليس هناك أي مظهر من مظاهر الحياة – حتى الأكثر حميمية منها – لا تحتله القوانين التمييزية. انتهت الحركة النازية في أوروبا في العام 1945، إلا أن مذهبهم بات يطبق هنا يومياً: «كانت العلاقة الجنسية بين البيض والسود محظورة، إذ اعتُبر ذلك جرماً أخلاقيا. عاشر أحد أصدقائي الإنكليز فتاة سوداء، فأمضى فترة الميلاد في السجن».

عندها، أصبح نتاجها الأدبي مفيداً في التأثير في القراء المقيمين في مجتمعات أكثر تحرراً. «بدأ الناس يفهمون ما يحدث هنا بشكل أفضل، فشاهدوا على شاشة التلفاز الاضطرابات والمضايقات التي استخدم فيها الغاز المسيل للدموع، لكنهم لم يعرفوا كيف شعر الناس في أيام خروجهم في المظاهرات، ولا عرفوا بوجود المشاكل العائلية، ولا بصراع الأجيال، ولا بانفصال الأزواج لأن أحدهم اعتقد أن الارتباط بالآخر سيجعل عائلته في خطر».

لطالما عاشت مؤلفة **المحافظ** في جوهانسبورغ، في أوقات التمييز العصيبة وفي الوقت الحالي، وهي إحدى المدن ذات معدلات الإجرام الأعلى في العالم. تقاطعني قائلة: «ولكن ما هذه المقارنة التي تقوم بها؟ لا يمكننا مقارنة خطر أن يعتدي عليك أحد أو يختطفك بنظام تمنعك فيه الحكومة والقوانين عن كل شيء لأنك أسود. نحن اليوم في مأمن، فليست الحكومة مجرماً يهاجم مواطنيه». بالرغم من أن الحائز على جائزة نوبل الجنوب إفريقي الآخر كويتزي قد هجر بلده (حيث إنّه يقطن في أستراليا حالياً)، كما



المخـدرات ذاتهـا. «لـديّ الكثير من الأصدقاء الشـباب، في العقد الثالث والعقـد الرابـع من أعمارهـم، يأتون لزيارتي. إنهم ممثلون، ومصممون... أعشـق تعليقاتهـم لأنهـم، مثلـي، لم يفقدوا شـغف الفن بعـد. الأمر مثير للاهتمام، ففي شـبابي كنت أنجذب إلـى الأشـخاص الأكبـر سـناً منـي بسـبب اهتماماتهـم الأوسـع. والآن، كما ترى».

فـي الكثير مـن رواياتها، تظهر شـخصيات من أعراق مختلفة يبدأون قصة حب ما وتواجههم بسبب ذلك مشاكل كبيرة فيما هـم ينمـون داخلياً. في رواية **اللقاء** (حيث تقع شـابة بيضـاء في حب الميكانيكـي) تتناول موضوع الهجرة غير الشـرعية: «هناك ملايين الأشـخاص بيننا يعملون ويأكلـون ويعيشـون ويحبـون، لكنهـم غير شـرعيين. هـذه أزمـة أعمـق مـن مجرد جانـب اقتصـادي، فهم ناس يخشـون أن تطلب منهم أوراقهم التي يحاولون إخفاءهـا قـدر الإمـكان». تتناول رواية **أمسـك الحياة** المخاطر التي تهدد البيئة، وهي مستوحاة من محطة كوبـرغ للطاقـة النوويـة، القريبة جداً مـن مدينة كابو، والتـي افتتحت قبل سـنوات: «مهمـا تم توظيف هذه الطاقـة بحـذر، فإنها خطرة دوماً». في الكتاب، يدافع بول عالم البيئة الأبيض للحفاظ على السبخات «التي يريـد مديـر زوجتـه أن يشـيد مكانهـا كازينـو محاطـاً ببحيـرات صناعيـة، ومناطـق للهنـود». عنـد خروجنا مـن المحكمـة الدسـتورية، هطل المطـر. نزلنا الدرج تحـت مظلّـة واحـدة، ملتصقَيـن بهذه المـرأة التي لا يـكاد طولهـا يتجـاوز المتر والنصـف، وكنا نفكر في ما قاله لها الأسـقف ديزموند توتو الحائز على نوبل للسـلام: «حضرتـك صغيرة إلى حـدّ يمكنني معه أن أخبئـك فـي جيب بنطالي الخلفي، لكنك عملاقة في المظاهر الأخرى كافة».

فعلت قبله دوريس ليسينغ وغيرها من المثقفين، فإن غورديمـر تصـوت واثقة لصالح عملية التغيير: «نتمتع بالديموقراطية منذ أكثر من عشـر سـنوات، ولا يمكن للتغييرات أن تحصل بين ليلة وضحاها».

«البيـت الـذي نعيـش فيـه كبير وهادئ. عشـت هنا مع أبنائي وزوجي. انتشر أبنائي في أنحاء العالم، وتوفي زوجي منذ أربع سنوات». بعد زواجها الأول، عقـدت قرانهـا فـي العـام 1955 على تاجـر الأعمال الفنيـة رينهولـد كاسـيريه، الهارب من ألمانيـا النازية. باشرت الكاتبة، التي أصبحت أماً مشروعاً أدبياً يركز على ذكريات زوجها «الذي عمل لصالح المخابرات السرية البريطانية، وزار باريس ولندن ومصر، وتقرّب من المثقفين...».

الرواية والعالم

نتـج عـن العولمة والنمو الاقتصادي في جنوب إفريقيـا تحـولٌ فـي روايـات غورديمـر. لطالما قالت إن كتاباتهـا النثريـة تركّـز علـى الوضـع الاجتماعـي والسياسـي والثقافـي، ومـن ذلك تولد «الشـخصيات والحبكة والجو العام والمشـاعر». وفيما تكشـف لنا كتبهـا الأولـى عـن أجواء قسـرية وعن حقائـق بعيدة وغريبـة فـي الوقت ذاته، فإن ملاحمها اليومية الحالية تتعلـق بالمشـاكل والمشـاهد ذاتهـا التـي نجدهـا في أوروبا: جيل الشباب ذاته، المهاجرون غير الشرعيين ذاتهـم، الموسـيقى ذاتهـا، تلوث البيئـة ذاته، بل حتى

غاو كسينغجيان



"أنا هارب، ولست بطلاً".

بيت غاو كسينغجيان الباريسي هو أكثر ما يشبه مختبراً شخصياً للإبداع من بين ما رآه هذان الصحفيان، فما من حائز آخر على جائزة نوبل من بين الذين تستعرضهم هذه السلسلة من المقابلات قد تطرق إلى أمور كهذا الصيني المستقر في فرنسا منذ الثمانينيات. المسرح، والأوبرا، والسينما، والرسم، والرقص، والشعر، والرواية... ما من نوع من أنواع الإبداع يفوت غاو الذي تبعده بساطته، بالرغم من ذلك، عن هيئة الفنان النهضوي الذي يكشف عنه تنوع أعماله.



يقطن غاو كسينغجيان منذ العام 2002 في شقة ذات جدران بيضاء وزخارف معمارية، في شارع باريسي رائع في حي ليز آليه، في منتصف الطريق بين متحفي اللوفر والبومبيدو. مسكنه قليل الديكور، يبدو مثالياً لممارسة التأمل. في الصالون البسيط، يتحسر الكاتب أمام فنجان الشاي مع الليمون الذي تقدمه زوجته الشابة: «من قبل، كنت أعمل من دون توقف، منذ نهوضي وحتى وقت متأخر، من دون أن أنام تقريباً. لكنني عانيت مشاكل صحية جدية، فأجروا لي عمليتين، ووجدت نفسي مضطراً إلى التخلّي عن العمل في الليل الذي كنت أعتبره وقتاً للإبداع. والآن، أستيقظ في وقت متأخر إلى حدٍّ ما، فأتناول الفطور ولا أباشر العمل حتى العاشرة صباحاً، إما هنا أو في الاستوديو خاصتي. عند منتصف النهار أتوقف لأتناول الغداء، وبعدها أعود لأعمل حتى السادسة مساء. عندها أخرج لأتمشى حتى الباليه رويال إذا أمطرت، وإذا كان الطقس جيداً أذهب إلى حديقة توليريا. خسرت على الأقل ثلاث ساعات عمل في النهار، وها أنا الآن أنام عشر ساعات. لكنني لا أذهب في إجازة ولا أتوقف في عطلة نهاية الأسبوع. لقد أضعت شبابي في الصين، والآن عليّ أن أعمل بجد، فلا يزال لدي الكثير لأقوله».

ننتقل إلى صالة المونتاج الرقمي، حيث يعرض علينا بلهفة بعض المقاطع من **لا سيلويت سينو لومبر** (الصورة أو الظل)، وهو فيلمه الأول كمخرج. على الشاشة نرى في الخلف امرأة (زوجته) ذات شعر طويل، حاسر الرأس، ولوحات ضخمة، ثم نسمع إلقاء شعر، ونرى رجلاً مشنوقاً يتأرجح... يحاول المؤلف أن يشرح لنا: «ليس الفيلم سيرة ذاتية، وليس وثائقياً، أو خياليًا، لا نعرف بالضبط ما هو... إنه قصة خرافية من عصرنا. لطالما وضعت مشروعات سينمائية لم تبصر النور لأن المنتجين أرادوا تصوير فيلم مختلف



عن الذي أقترحه. لكن هذا هو فعلاً فيلمي أنا».

يجمع الفيلم – الذي استغرق من غاو ثلاث سنوات – بين صور عديدة من ابتكاراته: الأوبرا المذهلة **لا نيج ان أوت (الثلج في آب)** التي تتضمن أكثر من مئة شخص على المسرح، وتجمع بين الأكروبات والرقص وخفة اليد، بالإضافة إلى مسرحية ومعرض «عن مراحل الفنان الإبداعية... كما يظهر الموت بكثرة».

جو الزن

حول جو الزن الذي نشره في غرف مسكنه، يعترف وهو يرتدي المعطف ليخرج: «أجل، أمارس هنا التأمل، وهو أمر لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة إليّ في هذا العالم المتسارع جداً... أشرع بتأمل شيء ما، محاولاً الحصول على رؤية واضحة عن طبيعته. الأمر صعب، فلا يمكنك أن تصل إلى السكينة دوما...».

تمشينا مدّة خمس عشرة دقيقة، من بيته إلى الاستوديو القريب، وتوقفنا للحظات أمام المنزل الذي مات فيه موليير. تبدو شوارع باريس العتيقة، المرصعة بمشاغل الثياب، والكافيتريات، والمقاهي، والمعارض، ومحالّ الحرف وكأنها تصبغ وجه غاو بالسعادة، فيقول: «طريق جميل، أليس كذلك؟». قبل أن يفتح لنا باب الاستوديو، وهو عبارة عن عليّة يقوم فيها بشكل رئيس برسم لوحات كبيرة الحجم، ويعرض أحياناً أفلاماً على شاشة ضخمة.

على جدران هذا المشغل القديم تتدلى بقع سوداء كبيرة؛ إنها لوحاته. في السنوات الأخيرة، لم يستعمل إلا الحبر الصيني. ليس الرسم بالنسبة إليه وسيلة للتسلية فحسب؛ والحق أنه قبل أن يفوز بجائزة نوبل في العام 2000، كان يكسب قوت يومه من بيع اللوحات المائية (وفي اليوم الذي منحوه فيه أكثر



جوائز الأدب قيمة في العالم، رد بواب مزرعته على الصحفيين قائلاً: «كلا، لا يسكن هنا أي كاتب، وهذا الرجل الذي تبحثون عنه هو رسام»). يشرح لنا قائلاً: «في شبابي، كان رسامو اللوحات الزيتية الغربيون قدوتي. ولكن، بعد زيارتي الأولى لأوروبا، في العام 1978، وحين رأيت أعمال كبار الفنانين، بدأت أعيد حساباتي. في الصين، ليس هناك تقليد للرسم بالألوان الزيتية، ولكن الألوان المائية يعود تاريخها إلى أكثر من ألف عام، إلا أن القوانين تحدها كثيراً، وهامش الإبداع فيها صغير. والآن فقط، وبعد ثلاثين عاماً من المحاولات، بدأت أجد صوتي: أستعمل المواد التقليدية الصينية؛ الحبر والورق، ولكن من دون أن أرسم بالطريقة الكلاسيكية. أحاول أن أنقل إلى الطرائق الشرقية ضوء الرسم الغربي ومنظوره بعمق آخر. إنه أمر أكثر روحانية وذهنية، وليس مجرد تمثيل هندسي للحقيقة».

إنّ طريقة عمل غاو بحدّ ذاتها تستحق المشاهدة. إذ يضع دائماً الموسيقى التي يختارها بدقة وفقاً للعمل الذي يفكر في القيام به، فيقول: «تجعلني أركز، فتبعث جواً من التوتر وإيقاعاً داخلياً. يهمني كثيراً أن تكون ملائمة، وأنا أهتم كثيراً بذلك: أختار المؤلف جيداً، والمقطوعة... العمل التحضيري عظيم الأهمية: أنتج الجو الذي يناسبني. إذا أردت أن أكتب أدباً، فالمسوّدة الأولى شفهية دائماً، حيث أسجل على أشرطة عديدة لأسمع نفسي لاحقاً وأختار الأصوات التي تعجبني. ولكن في الرسم، تأتي الحركة من الجسد، لذلك أرسم تبعاً للموسيقى».

على الجدران نكتشف بعض البقع الحمراء والصفراء، كأنها زخات فرح طافت من اللوحة في لحظة مميزة من إنتاجها الراقص. على عكس الكتّاب الذين يرون في احترافية عملهم أكبر ضمان على الاستقلال، يعتقد غاو أنه «لو تناول الكاتب عمله كوسيلة للرزق، فسيضطر إلى الخضوع للسوق. ليعيش الإنسان يمكنه القيام بأشياء أخرى كثيرة: يعمل

صحفياً أو مدرساً أو مترجماً... بالإضافة إلى ذلك، يرضى برفاهية الاستقلالية».

- هل يمكن للسوق أن تتحول إلى أمر استبدادي كنظام سياسي ديكتاتوري؟

- يواجه الفنان عاملي ضغط دائمين. الأول هو السلطة السياسية التي تفرض معيارها، وتجبرك على اتباع شعاراتها والدفاع عن مصالح حزب ما. يُؤمَر المثقفون بالتفكير بطريقة معينة، لذلك يضحكني أن يقول أحدهم إنه يدافع عن قضية، في الوقت الذي يكتفي فيه بالخضوع. من الواجب أن يكون المرء صلباً جداً في الداخل ليحافظ على سلوكه ووجهة نظره الخاصة في وجه السلطة. أمّا الثاني فهو عامل ضغط معاصر: السوق التي احتلت كل شيء منذ بداية العولمة، محولة أي شيء إلى بضاعة تُستَهلك. لكنّ للأدب قيماً بعيدة عن التجارة، لأنه طريقة لمعرفة معنى أن تكون إنساناً معرفة عميقة. يجب على الأدب ألا يكون وسيلة للحصول على شيء آخر. لم ينقذ الفنان العالم يوماً، فهو على الأكثر يحقق ذاته فحسب معبراً عمّا في داخله.

كان غاو ضحية الثورة الثقافية (1966-1976)، مما اضطره إلى الالتحاق بمعسكر إعادة تأهيل حيث حُظر عليه أن يكتب. يشرح لنا وهو يسير بنا إلى أحد المقاهي التي كان يرتادها بعد وصوله إلى باريس بقليل، فيقول: «ومع ذلك كنت أكتب. خبأت الكتابات في أُصُص ودفنتها في الأرض، في حفرة في غرفتي. دفنتها كلها، وحين تمتلئ الأُصُص كنت أحرقها، وأعيد كتابة القصص ذاتها. هكذا، أخذت أكتب، وأدفن، وأحرق... اضطررت إلى تدمير أعمالي كافة، فاختفت الأوراق بالكيلو، لكنني لم أجد أمامي خياراً آخر».

منع في الصين

سمحت له حركة التحرر في الثمانينيات بنشر كتب عديدة في بلاده، بالرغم من صداماته العديدة مع الرقابة. سبّب أحدها ضجة كبيرة (حيث اعتبرت السلطات كتابه **موقف حافلة** «الأشد خبثاً في تاريخ الجمهورية الشعبية») ودفعته إشاعة أنهم سيسجنونه في مزرعة للهرب إلى غابات الجنوب الغربي، فجال لمدة خمسة أشهر في عمق بر الصين، وهي المناطق المليئة بالأساطير، والحكايات، والأغاني، والاحتفالات، والتقاليد الشعبية، والشخصيات التي تحولت إلى موادّ غذّت تحفته الأدبية **جبل الروح**، وهي سيرة ذاتية متخيلة اقتضت منه سبع سنوات (فليجمع عدداً أكبر من الأحداث المثيرة قام بثلاث رحلات، امتد أطولها مسافة خمسة عشر ألفَ كيلومتر) إلا أن أحداً من قاطني الصين لا يستطيع قراءة هذه التحفة الأدبية. يعلّق غاو مغلوباً على أمره: «أنا محظور كلياً، فكل كتبي ممنوعة، ولا يمكنهم حتى ذكر اسمي أو الاقتباس من كلامي في محاضرة أو مقالة ما. لم يغير الاقتصاد الرأسمالي أو جائزة نوبل شيئاً. بالعكس، أصبحوا أكثر تشدداً: فاسمي محظور الآن على مواقع الإنترنت أيضاً. المرة الأخيرة التي وطأت فيها قدماي الصين كانت في أواخر عام 1987؛ حين غادرتها».

بابتسامة حزينة، يتذكر غاو قائلاً: «لقد اقترح عليّ المحرّرون الفرنسيون تعديلات في كتاب **جبل الروح**. إذ لم يرغب أحد بترجمة هذه السيرة الذاتية، ورفضتها كل دور النشر الكبيرة. قالوا لي إنه عليّ أن أنقص منها مئتي صفحة، فأجبتهم إذا لم تنشروها فأنتم الخاسرون. قال لي غاليمارد إنه كتاب عظيم، لكنني لأسباب اقتصادية لا أستطيع طباعة كتاب بهذا الطول لكاتب غير معروف. وفي النهاية نشرته لوب، وهي دار نشر صغيرة. بعد ذلك بقليل واجهت المزيد من المتاعب في الولايات المتحدة، فلأجل العرض الأول لمسرحيتي عن تيانانمين، طلبوا مني إجراء تعديلات لجعلها أكثر دعائية. رفضت مجدداً القيام بالتغييرات، واضطررت في النهاية إلى تقديمها في السويد».

لقد تغلبت الصين على فرنسا - البلد الذي يحمل غاو الآن جنسيته وحيث تحرر من فكرة الوطن الخبيثة - بصفتها القوة الاقتصادية الرابعة عالمياً. قد تصبح الأولى يوماً ما. نسأله حين نمر أمام تمثال لويس الرابع عشر في ساحة فيكتوار: ما الشعور الذي

تمنحك إياه هذه الفكرة؟ فيجيب: «سيكون هذا جيداً بالنسبة إلى الصينيين. ولكن في الوقت نفسه، إن تزايد الشعور القومي الذي سيرافق ذلك مقلق». بالمناسبة، ما رأيك بأزمة الضواحي الفرنسية، حيث عشت لبضع سنوات؟ يجيب: «تعاني فرنسا من تساؤلات عميقة حول ذاتها، إلا أن المثقفين لا يواجهون الموضوع مباشرة، فيبقى كل شيء عند السطح. لا نزال متأثرين بشكل زائد بالماركسية وباعتقادنا أننا نتقدم، لكن هذا لا يحصل بالضرورة».

– رغبتك الثابتة بالكتابة، ومقاومتك للسجن، واستقلاليتك... كلها أدلة على قوة هائلة، فلماذا تعرّف عن نفسك بالرجل الهشّ؟

– أنا هشّ. فالقوة السياسية كان في إمكانها أن تسحقني في أي لحظة، والأمل الوحيد لمتابعة الكتابة تمثّل بالهرب. أنا هارب، ولست بطلاً، فلولا هذا الهروب لسحقوني كالصرصار. من السهل جداً اعتباري منشقّاً، لكنني لست كذلك، إذ لم أتبع سياسة المعارضة. أنا كاتب اضطر ببساطة إلى الهرب ليفي بالتزامه وليتحرر، فأصبح على هامش سلطة استبدادية رفضت وترفض الشروط الأساسية للوجود الإنساني الحق. اضطر الناس منذ الأزل إلى الابتعاد عن السلطة والذهاب إلى المنفى كي يُبدِعوا. إنها قصة قديمة، فالشاعر هو بطل الهروب الأكبر، وللمفارقة، فإن كلمته هي التي تبقى. أنا أنطلق من فكرة أن الإنسان ليس كاملاً، بل هشاً، وهذا يمنحني كل الحوافز اللازمة للتعلم».

نذكر له أن المحرر خورخيه هيرالدو قال ذات مرة: «إنّ أي ترجمة إلى الإسبانية من عمل صيني أو ياباني هي مجرد تقريب، وتفسير شخصي جداً».

– كيف نعرف إذا كنّا قد وصلنا إلى جوهر كتبك؟ كيف نستطيع أن نستوعب أن أعمالك «تتجاوز حدود اللغة الصينية؟».

يبتسم غاو حين نمر أمام مكتبة الفنون الجميلة التي اعتاد أن يقصدها في سنوات بوهيميته الباريسية الأولى، ويقول: «حسناً، في الحقيقة لا أتكلم إلا الصينية والفرنسية. لكنني أؤكد لك أن **جبل الروح**



القضية: ضد السلطة

بدلاً من أن تفتخر وسائل الإعلام الصينية بالحائز على جائزة نوبل في العام **2000**، عتّمت على الخبر، وهو حالياً ممنوع في الصين. رداً على ذلك، يشير إليه الجميع في باريس بصفته «الفرنسي الثالث عشر الحائز على جائزة نوبل». وبعد كتابته الهرب، وهو عمل مستوحى من مجزرة تيانانمين، صنفه النظام الشيوعي رسمياً على أنه شخص غير مرغوب به. يعتقد هو أننا «نعيش نزاعات ليس لها علاقة أساسية بمصالح الناس، وإنما بمصالح الأحزاب. ومَن يمكنه الدفاع عنا هو نحن أنفسنا، فحيث توجد السلطة لا توجد حرية. حتى في الديموقراطية، ينتخب السياسيين عددٌ معينٌ من الناس بحيث يمسي من السخيف الاعتقاد أنهم يمثلون أحداً حقاً. أنا أجد نفسي بعيداً عن الفرق السخيف بين اليمين واليسار، لأن أي مبدأ يقلل من جوهر الفرد. أعتقد بالأنظمة التي تعتمد على الكثير من آليات الحدّ من السلطة. والتزامي، بهذا المعنى، هو اللاسياسية الجذرية – إذا ما اعتبرنا السياسة صراعاً لأجل السلطة – عالم بلا توقعات ولا وعود، العيش من دون ياء النسبية هو طريقتي في المقاومة».





جيد بالفرنسية. في كل اللغات هناك ثلاثة أشخاص: أنا وأنت وهو. وهذه الصدفة بعالميتها وسحرها تعني أن هناك إنسانية عميقة في الموضوع، وأن وعينا يُلفظ عن طريق هذه المراحل الثلاث. هذه هي القاعدة المشتركة. ومن جانب آخر، ليس هناك في الصينية تصريف ولا تمييز بين الفعل والاسم والصفة والظرف. قد يمسي الفعل صفة، فالكلمة هي ذاتها دائماً، وموقعها في الجملة هو ما يحدد الدور الذي ستقوم به. غياب أزمنة الأفعال هذا يجعل العملية العقلية للراوي هي وحدها المهمة. ولذلك، فإن التمييز بين الواقع والخيال ليس واضحاً كما هو الحال في كتاباتكم».

عندما حان وقت الطعام، اكتشفنا أن غاو نباتي، فيقول: «أنا نباتي مئة بالمئة بسبب مشاكلي الصحية، وليس بسبب قناعتي؛ في السابق كنت ذواقة. آكل كثيراً في المطاعم اليابانية لأن السمك النيء موجود في حميتي لخلوه من الدهن».

في لحظة معينة اضطررنا إلى مغادرة شقة الكاتب بسبب المقاطعة المستمرة للاتصالات الهاتفية. يقول معتذراً: «جائزة نوبل جلبت معها الشهرة، وهكذا انتهت حياتي الهادئة. هذا هو الحال: أنا مشغول أكثر من أي وقت مضى. أستقبل طلبات عديدة من كل حدب وصوب، فتارة يريدونني أن أقوم بدور الزهريّة في أقل الأماكن احتمالاً، وطوراً يطلبون أن أشارك في بعض المناسبات لأبتسم وأبدو لطيفاً. ليس لديّ سكرتيرة لأن الوضع سيسوء عندئذ:

فمن جهة، إنّ جعلي أصدقائي يتحدثون مع سكرتيرة أمر غير مقبول ومن جهة أخرى، أنا متأكد من أنهم عندها سيطلبون مني المزيد. يرن الهاتف طوال اليوم، كما تسمعان، لكنني لا أملك جهاز رد تلقائي، ولذلك، ليس لدي رسائل هاتفية أيضاً. كما تصلني الفاكسات طوال اليوم، والرد على كل هذا سيضاعف عملي. لهذا، فإنني أتهرب من الأمر بهذه الطريقة».

قد لا يتفق هذا المقت للحياة الاجتماعية مع بعض الصور التي تجمعه مع القادة السياسيين، كالزيارة التي قام بها قبل أشهر قاصداً خوسيه ماريا آثنار في قصر المونكلوا. «لقد قبلت الدعوات إلى حفلات استقبال كهذه وغيرها أحياناً من باب التهذيب، لكنه أمر يحتاج إليه السياسيون وليس الكتّاب. لا أحب فعل ذلك، فأبتعد قدر الإمكان عن هذه الأمور لأنها تتعبني. إنها نوع من الطقوس التي يمارسها المرء مجبراً، ومحاولاً تقليصها قدر الإمكان. هذه اللقاءات لا تضيف إليّ شيئاً ولا إلى الأدب». يؤكد ذلك مستمتعاً بالشمس في مقهى مفتوح قريب من مركز ليزال التجاري.

غابرييل غارثيا ماركيث



«توقفتُ عن الكتابة».

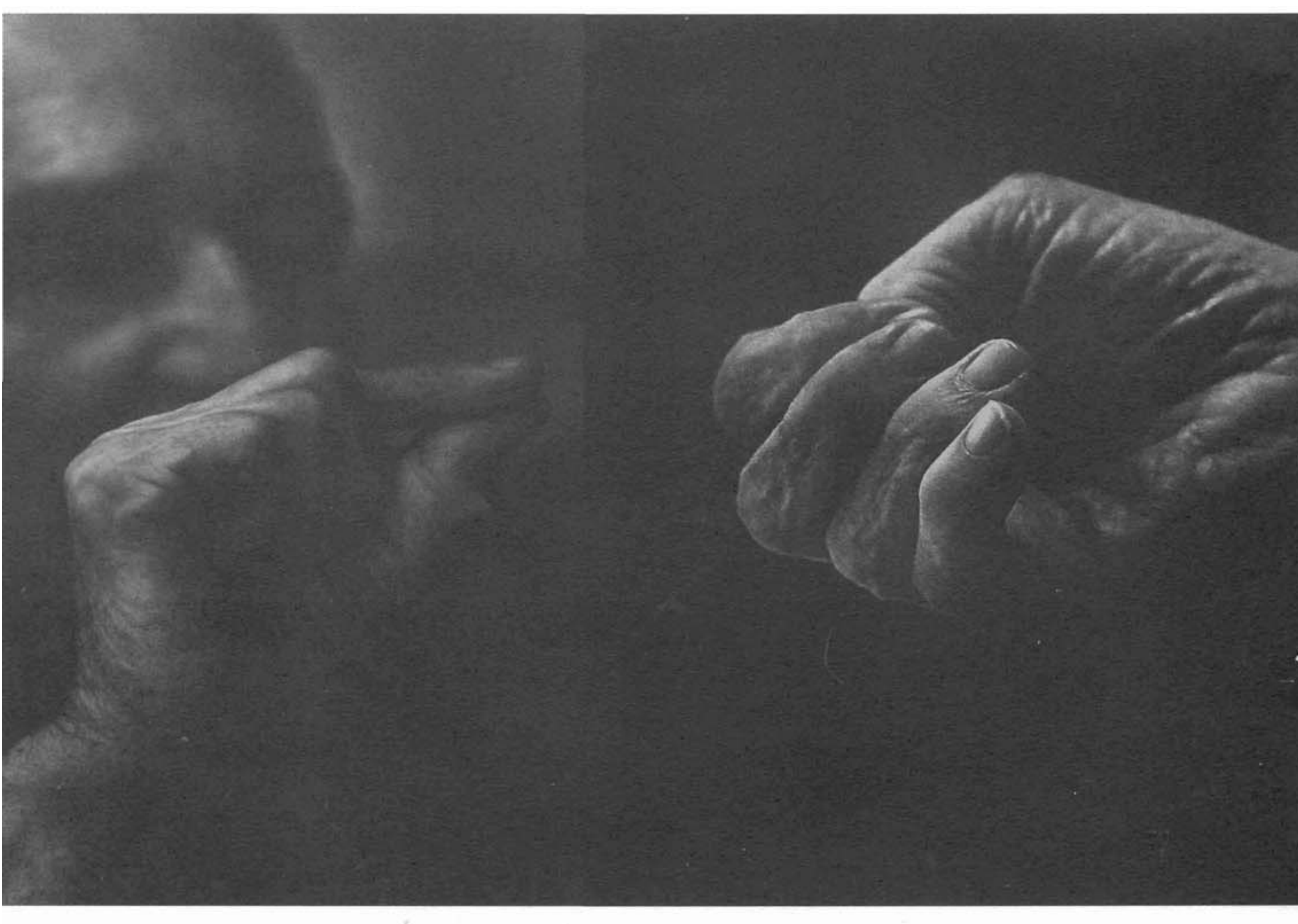
يعترف غارثيا ماركيث أنه لم يعد يكتب، وأنه حالياً متفرغ للقراءة، بالرغم من أنه لا ينفي احتمال عودة طاقته الإبداعيّة.





في الساحة المكسيكية ثوكالو الزاخرة بالحياة - وهي مركز ثقل سلطات البلاد، ومسرح لاعتراضات مختلفة - بين المخيمات واحتجاجات الفلاحين الذين لا يملكون أراضيَ، والمدنيين الذين لا يملكون بيوتاً، ونساء هن ضحايا عنف أزواجهن، وجماعات عديدة من الهنود الذين يطهرون المارة من الأرواح الشريرة مقابل بعض المال تغوينا فكرة أن نطلب خدمتهم، إذ لم يبقَ لدينا سوى بضع ساعات لنذهب لمقابلة غابرييل غارثيا ماركيث، وهو امتياز لم يحظَ به إلا بضعة صحفيين منذ حصوله على جائزة نوبل للآداب في العام 1982، وينتابنا القلق من أن يفشل الأمر في اللحظة الأخيرة لأي طارئ.

يعرف السائق جيداً مكان بيدريغال دي سان آنخل، وهو حي سكني مبني فوق صخور بركانية، ويقطن فيه نجوم السينما والرؤساء السابقون وأصحاب البنوك. وبعد أن اجتزنا البوابة الخارجية والفناء الداخلي المزدحم، وصلنا إلى غرفة المعيشة بعد أن كادت أنفاسنا تنقطع بسبب حمل هدايا الميلاد الثقيلة التي أرسلها إليه أصدقاؤه في برشلونة. يعيش غابو وزوجته ميرثيديس بارشا هنا منذ أن غادرا إسبانيا في العام 1975. بالرغم من أنهما قاما بتوسيع المكان وتعديله بشكل مستمر منذ ذلك الحين. هناك دعامات من الخشب وألف ثغرة - من شبابيك وشقوق - تدخل منها الشمس وتبسط سيطرتها في الداخل، مضيئة، على سبيل المثال، صور أحفاد الكاتب الخمسة الذين تتراوح أعمارهم بين سبع سنوات وثماني عشرة سنة، أو لعبة صفراء ضخمة تبدو كنوعٍ من الأرانب.



انتظرنا بفضول عند الطاولة التي استقرّت عليها كتب صور الحائزين على نوبل، وغيرها من الصور التي التقطها ريتشارد آفيدون (الذي سيقول عنه غابو لاحقاً: «آفيدون هذا... جاء إلى هنا والتقط لي صورة ثم مات بعد خمسة عشر يوماً، لم أرها يوماً»). ثم عبرنا حديقة مليئة بالزهور - كالأوركيد الرائع - ووصلنا أخيراً إلى المكان الذي بنى فيه غابرييل غارثيا ماركيث استوديو معزولاً ليعمل فيه. فاجأناه وهو أمام الحاسوب، ولكن ليس في لحظة كتابة، وإنما وهو يطالع الصحافة العالمية على الإنترنت. دعانا إلى الجلوس بلطف، ثم أوضح لنا أنه سيقوم مستسلماً بشكل استثنائي بالإذعان لإجراء هذه المقابلة لأنه لم يتمكن من مقاومة الأحاديث في جوه العائلي والعاطفي. في هذه اللحظة، يشدّنا من ذراعينا ويسألنا هامساً: «أخبراني الآن، كم دفعتما لزوجتي؟».

وهكذا، بدأ اللقاء الأول في الاستوديو، لا تقاطعه إلا بعض العبارات الجهيرة بالإنكليزية يلفظها حاسوبه بين الفينة والأخرى، كما لو أنها مداخلات من السي آي أيه.

يمتلك غابو آلة حديثة جداً، فيها كل الوسائط المتعددة المتقدمة، حيث تخلى عن آلته الكاتبة الإلكترونية الأسطورية منذ سنين عديدة. يسلّم قائلاً: «لا بد أنني قد استخدمت الحاسوب الأول في الأسواق. حين كنت أستعمل الآلة الكاتبة كنت أنشر كتاباً كل سبع سنوات كمعدّل وسطيّ، ومع الحاسوب أصبحت أنشر كتاباً كل ثلاث سنوات، لأن الحوسبة تقوم بالكثير من العمل نيابة عنا. لدي العديد من الأجهزة المتطابقة، واحد هنا وآخر في بوغوتا وثالث

في برشلونة، وأحمل في جيبي دائماً قرصاً مضغوطاً».

كان يشرب في أثناء حديثه معنا الكولا، وهو إدمان لا تتفوق عليه إلا حاجته إلى التواصل الدائم مع الأخبار والمعلومات التي تصله عبر الهاتف أو الإنترنت أو الفاكس أو الإيميل - من مصادر مباشرة في كثير من الأحيان - حول وضع العالم الحالي بشكل عام وبلده كولومبيا بشكل خاص.

كان متكتماً في حديثه عن حياته الخاصة، («فلهذا السبب، لديّ مؤرخ سيرتي الذاتية الرسمي، الأميركي جيرالد مارتن، والذي بالمناسبة يُفترض به أن ينشر الكتاب في الوقت الحالي - بالفعل، نُشِر هذا الكتاب وتُرجِم إلى اللغة العربية وصدر عن الدار العربية للعلوم ناشرون- لكنني أعتقد أنه ينتظر أن يحصل معي أمر ما...»). ويقول لنا: «أمضيت العام 2005 مستريحاً. لم أجلس أمام الحاسوب، ولم أكتب سطراً واحداً. بالإضافة إلى ذلك، ليس عندي أي مشروع أو نية للقيام بمشروع. لم أتوقف يوماً عن الكتابة، وذاك العام هو الأول في حياتي الذي لم أكتب فيه. اعتدت أن أعمل كل يوم من التاسعة صباحاً وحتى الثالثة عصراً، قائلاً إنني أقوم بذلك لأحمّي ذراعي... لكن السبب الحقيقي هو أنني لم أعرف ماذا أفعل صباحاً».

- وهل وجدت الآن أمراً أفضل لتقوم به؟

- وجدتُ أمراً رائعاً: أستلقي في سريري لأقرأ! أقرأ كل تلك الكتب التي لم أحظَ يوماً بالوقت الكافي لقراءتها... أذكر أنني في ما مضى كنت أعاني ارتباكاً كبيراً حين لا أكتب، أياً كان السبب. اضطررت إلى اختراع نشاط ما لأستطيع الحياة حتى الثالثة عصراً، كي لا أصاب بالاكتئاب، لكنني الآن أجد الأمر مدعاة للسرور.

- والجزء الثاني من الذكريات؟

- لا أعتقد أنني سأكتبه. لدي بعض الملاحظات، لكنني لا أريدها أن تصبح مجرد تقنيات احترافية. اكتشفت أنني لو نشرت جزءاً ثانياً، فسأضطر إلى ذِكر أشياء لا أريد ذِكرها، بسبب بعض العلاقات الشخصية غير الجيدة. الجزء الأول، **أحيا لأتحدث عنها**، هو ما أردته بالضبط. في الجزء الثاني، وجدت أن هناك عدداً من الناس ينبغي أن يظهروا، والذين لا أريدهم أن يكونوا في ذكرياتي، تباً. من قلة الاحترام أن أبقيهم خارجها، بسبب أهميتهم في حياتي، لكنني لا أستلطفهم.

مع أن غابو لا يذكر أسماء، إلاّ أننا لا نستطيع تجنب سؤاله عن ماريو فارغاس يوسا؛ الكاتب من بيرو الذي انقطعت أواصر صداقته معه بعد أن لكمه علناً، هنا في المكسيك في العام 1976، بسبب حادثة شخصية أخبر كل منهما كاتب سيرته الذاتية المستقبلية عن سببها. أليس من الممكن أن تتم المصالحة بينهما يوماً؟ في هذه اللحظة تجيب ميرثيديس بارشا، التي دخلت الاستوديو قبل دقائق، بحدة: «بالنسبة إليّ، الأمر لم يعد ممكناً. لقد مرت ثلاثون سنة». يسأل غابو متفاجئاً: «كل هذا الوقت؟». فتؤكد ميرثيديس قائلة: «عشنا خلال السنوات الثلاثين الماضية بسعادة كبيرة من دونه بحيث لا نحتاج إليه أبداً». ثم تنوه قائلة: «غابو أكثر دبلوماسية مني، لذلك يمكنكما كتابة هذه الجملة عن لساني حصراً».

بالعودة إلى الفترة غير المعتادة لنشاطه المتوقف، يوضح الحائز على جائزة نوبل قائلاً: «عام الاستراحة قد انتهى، لكنني وجدت أعذاراً لتمديده حتى نهاية العام 2006. فبعد أن اكتشفت أنه يمكنني القراءة من دون الكتابة، لا أعرف إلى أين سأصل، وأعتقد أنني أستحق هذا الأمر بعد كل ما كتبته، أليس كذلك؟ مع أنه لو خطرت ببالي غداً فكرة رواية ما فسأجد الأمر رائعاً! في الحقيقة، نظراً إلى خبرتي، يمكنني كتابة رواية من دون مشاكل: أجلس أمام الحاسوب وأستخرجها... لكن الناس يتنبهون إلى أنك لم تضع فيها كل طاقتك. خلفي تعمل كل الأجهزة الحاسوبية، مستعدة لتباشر العمل في اليوم الذي أرغب فيه بذلك. أحب كثيراً أن أجد موضوعاً ما، لكنني لست محتاجاً إلى الجلوس كي أخترعه. على الناس أن يعرفوا أنني لو نشرت أمراً آخر، فذلك لأنه يستحق العناء». ثم يعلق: «في الحقيقة، لم أعد أستيقظ ليلاً مرعوباً لأنني حلمت بالأموات الذين حدثتني عنهم جدتي

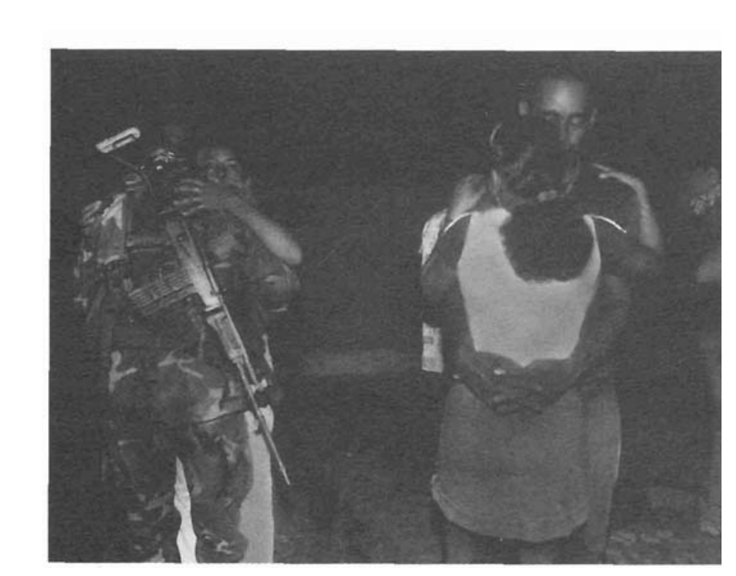
في آراكاتاكا حين كنت صغيراً، وأعتقد أن لهذا علاقة بالأمر ذاته، بأن الموضوع قد انتهى بالنسبة إليّ».

لا يبدو أن توقف الإبداع المفاجئ يزعجه بتاتاً، بل إنه يعيش لامبالاةً تقليدية في الكاريبي. فيقول: «لم يغير التوقف عن الكتابة حياتي، وهو أفضل ما في الأمر! فلم تختطف أي نشاطات مزعجة الساعات التي اعتدت أن أشغلها بالكتابة».

عرض علينا الكاتب اللعبة الصفراء الكبيرة التي رأيناها حين دخلنا: «إنها حرفة يدوية مكسيكية، وهدية من فيليب غونثاليث الذي يأتي إلى هنا كثيراً». يتحول الحديث بعد ذلك إلى السلطة التي تذهله والقادة الحاليين والسابقين الذين يزورونه. «بما أنني كاتب، أهتم بالسلطة لأنها تمثل كل عظمة الإنسان وبؤسه». من بين أصدقائه يميّز كلينتون، «ألا تعرفونه؟ إنه شاب رائع! لم أمضِ وقتاً رائعاً أكثر من ذاك الذي أمضيته معه».

الإيدز هو الموضوع الأكبر الذي يشغل باله حالياً، فهو رجل تثير انتباهه قلة الاهتمام التي تبديها السلطات أمام الانتشار المخيف للمرض في مناطق جديدة؛ وخاصة في الكاريبي، ويزعجه الأمر حقًّا فيقول: «لا يعيرونه اهتماماً. ولكن، لا أحد يعرف عن الموضوع أكثر منهم».

ثم أرانا صاحب النوبل مكان قاعة مشاهدة أفلام السينما الخاصة التي يملكها في منزله، وقال لنا: «من الصعب جداً أن أتمكن من الذهاب إلى العروض العادية، حيث أمضي ساعات طويلة وأنا أوقع للناس عند الباب. لذلك يرسلون إليّ الأفلام إلى هنا، أو إن لم يفعلوا، فإنهم يدعونني إلى العروض ذات الحضور المحدود». ليس شغفه بالفن السابع جديداً: ففي شبابه كان يحلم بإخراج الأفلام، وهو ما فعله ابنه رودريغو الذي يقصد مهرجانات شهيرة مثل كان ولوكارنو وسان سيباستيان. بالإضافة إلى إخراجه حلقات من **آل سوبرانو**، وأيضاً **على بعد مترين من سطح الأرض**، فهو المخرج السينمائي لأفلام مثل **أشياء أقولها بمجرد النظر إليها**، **عشر قصص حب قصيرة**، **تسع حيوات**. يعلق أبوه قائلاً: «لحسن



القضية: السلام في كولومبيا

إنّ نشاط غارثيا ماركيث التآمري المستمر قد دفع به للمشاركة في عمليات سياسية معقدة، بشكل سري دوماً. فهو صديق لسياسيين من أمثال عمر توريخوس، وجيمي كارتر، وفيديل كاسترو، وفيليب غونثاليث، وبيل كلينتون، كما أنه يتواصل بشكل مباشر مع رؤساء عدة في أميركا اللاتينية. شكّل قبل عدة سنوات عاملاً مهماً في أن يجتمع في الهافانا مساعد آلفارو أوريبي مع الجماعة اليسارية المشاركة في حرب العصابات والمسمّاة جيش التحرير الوطني (ELN)، وهي ثاني أكبر الجماعات أهمية، وتضم خمسة آلاف محارب، وفُتح بذلك حوار حول نهاية النشاط المسلّح. ساهم غابو في تحقيق هذا اللقاء الذي لم يفضِ إلى شيء بعد شهور من الأخذ والرد. يبدو طريق السلام طويلاً جداً في بلد تسلك فيه قوات كولومبيا الثورية المسلحة (FARC) بمحاربيها الذين يزيد عددهم عن عشرة آلاف محارب سلوكاً يتصف بالتعنّت، ناهيك عن قوى اليمين الشبيهة بالجيش (والتي لا تزال نشطة) ومصالح تجار المخدرات. يقول غابو إن «المخدرات تلوث كل شيء. إنها تجارة كبيرة جداً تتقاسمها مجموعات عديدة، ولن ينتهي العنف ما دامت موجودة».

الحظ، إنها ممتازة، فَلَكَم سيكون الأمر سيئاً لو أنني لم أجدها جيدة!».

يعيش رودريغو في هوليوود، فيما يقيم أخوه غونثالو في باريس. وكلاهما يمضيان هذه الأيام مع والديهما، وهما يدخلان ويخرجان من المنزل بالحرية ذاتها التي تمتّعا بها في صغرهما. في اليوم التالي، يشرح لنا غونثالو، المصمم والرسام قائلاً: «لم يكن غابو أباً يحب اللعب، ولكنه أحب المحاورات الكثيرة ومشاركتنا أموراً خاصة بالراشدين. ما فعلناه معه خلال صغرنا تمثل بالكلام، والاستماع إلى الموسيقى».

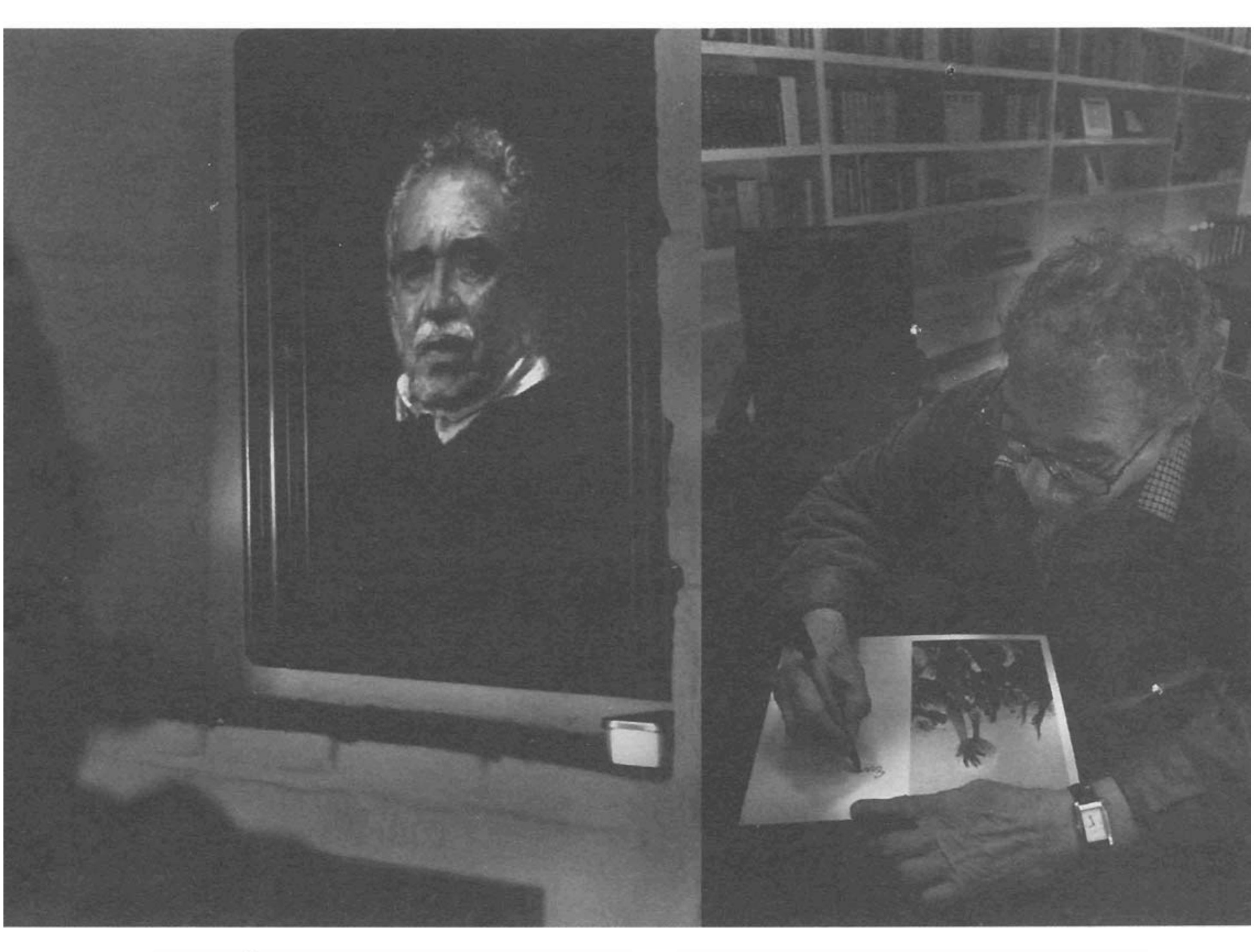
أخذ غارثيا ماركيث يطور آليات متزايدة الفاعلية للحفاظ على حياته الخاصة، ويبدو أنه قد تجنب خطر أن يسرق منه نجاحه الوقتَ المخصص لمشاعره تجاه أبنائه، وأحفاده، وأصدقائه. إلا أنه قبل ذلك، وكما قال: «كادت الشهرة أن تخرجني عن خط الحياة، لأنها أقلقت الإحساس بالواقع والسلطة. فهي تحكم عليك بالوحدة، وتنتج مشكلة عدم تواصل فتعزلك». بدلاً من القيام بنزهة حقيقية في مكسيكو سيتي، اقترح علينا غابو أن ننتقل ذهنياً إلى مدينة أخرى هي برشلونة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، حيث عاش وكتب **خريف البطريرك**. أوضح قائلاً: «لديّ انطباع أن تلك المدينة لم تفاجئنا كثيراً. بدا الأمر وكأننا قد رأيناها قبلاً. وإن سبب عدم ذهابي إلى أي مكان آخر هو رامون فينيس، الحكيم الكتالوني الذي جعلته يظهر كشخصية في **مئة عام** من **العزلة**. ففي مدينة بارانكيا، حيث أمضيت شبابي، كان قد باعني صورة مثالية لبرشلونة من ذكريات منفاه إلى حدّ أنني لم أشك معه يوماً في حقيقة الأمر».

عند انتقالهما إلى إسبانيا، ترك غابو وميرثيديس بارشا خلفهما المكسيك العالمية، المتحررة والمثقفة، وبضع دوائر لسينمائيين وفنانين وأدباء؛ شخصياتهم ونشاطاتهم أكثر تطوراً بكثير من إسبانيا المحتشمة في أواخر عهد فرانكو.

يتذكر قائلاً: «قصدنا فرنسا لرؤية أفلام مثل **التانغو الأخير في باريس**، الذي اكتشفناه في بيربينيان. كنا نذهب أحياناً إلى باريس مدة ثلاثة أيام، لنطّلع على آخر الأخبار في المجالات كافة. باتت برشلونة بوابة مفتوحة على أوروبا: من هناك أخذنا ننتقل إلى لندن (حيث تعلّمنا الإنكليزية) وميلانو... ترددنا على الحفلات والعروض المسرحية الأولى، فهدّأت كل توقي إلى الثقافة». عاش غابو وميرثيديس فورة الغوشديفين: الفجر الأبدي في بوكاتشيو، وازدهار دور النشر الجديدة، والمؤامرات بسبب موت فرانكو الوشيك. كما اجتمعا بكتّاب آخرين جذبتهم برشلونة بسبب بالسيلس **الأم الكبيرة**، مثل خوسيه دونوسو، وماريو بارغاس يوسا، وزارهما كارلوس فوينتس وخوليو كورتاثر وبابلو نيرودا. يعلق غابو قائلاً: «يكاد الأمر يبدو مخجلاً الآن لأقر به، لكننا أمضينا وقتاً رائعاً. في برشلونة تلك، في بدايات السبعينيات، كانت الحياة ممتازة؛ وهو أمر من المخجل الاعتراف به. فعندما نفكر في الأمر قليلاً نكتشف الآن كم كان كل شيء محزناً».

وتكمن المفارقة في مغادرة آل غارثيا قبل وصول الديموقراطية: «كنا في بوغوتا حين مات فرانكو، وحين سمعنا بالخبر عدنا إلى المكسيك. ظننا أن الأمور ستهتز كثيراً في إسبانيا، وأن عدم الاستقرار قادم، كما لم نعرف كيف سيكون رد فعل الحكومة الإسبانية الجديدة على رواية **خريف البطريرك** الصادرة منذ فترة وجيزة، والتي صورت غياب ديكتاتور. واعتقدت أنهم لن يصدقوا أنني استقيت الفكرة من نماذج من أميركا الجنوبية. لم أعلم كيف سيُفهم الأمر، إلا أن فرانكو بدا لي ديكتاتوراً زائد العصرية والتحضر بالنسبة إلى ما كان في رأسي أو روحي. في الحقيقة، إن أفضل نقد لهذا الكتاب تلقيته من عمر توريخوس من باناما، قبل وفاته بثمانٍ وأربعين ساعة، حيث قال لي: هذا أفضل كتبك، فكلنا هكذا كما تقول».

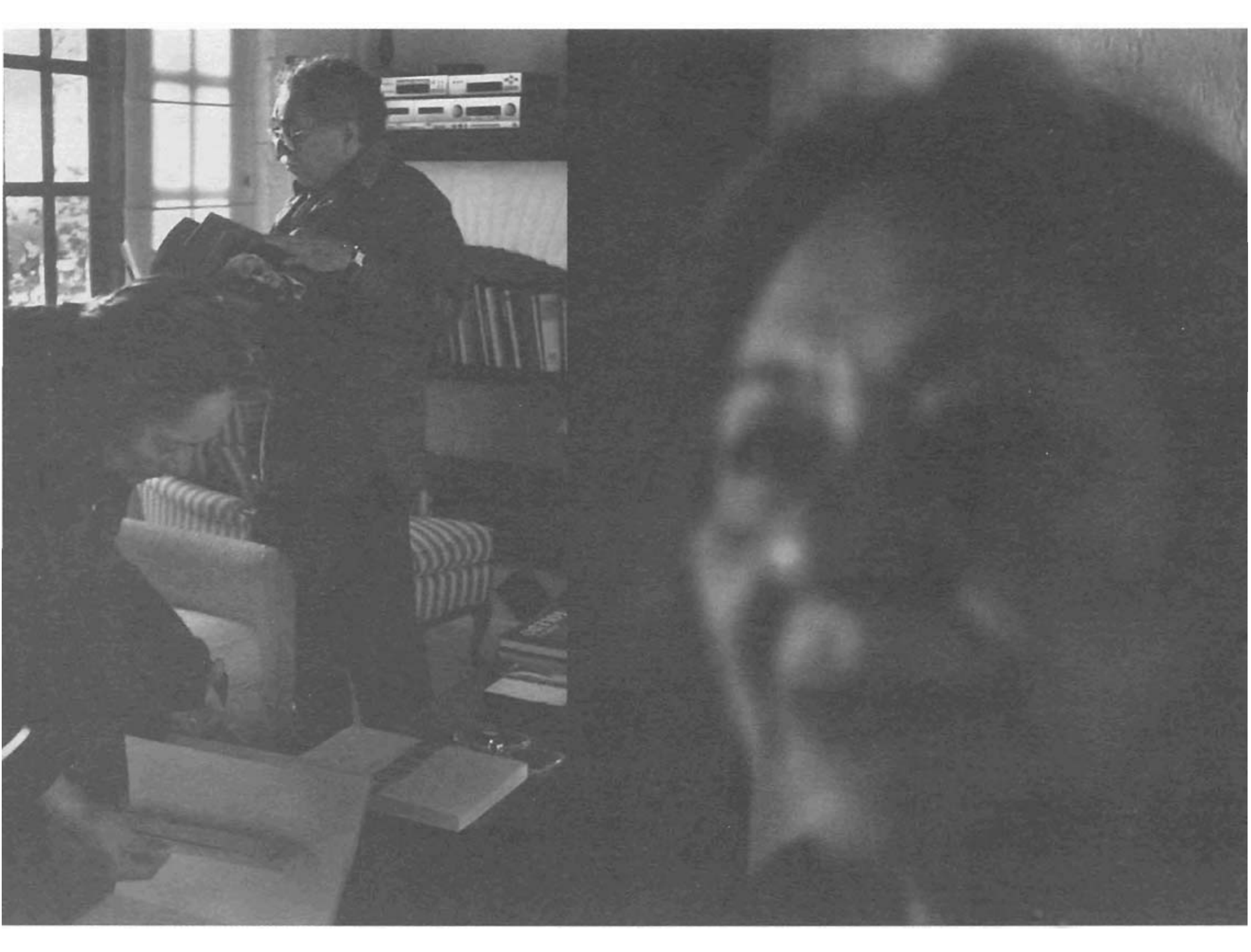
يتابع غابو هروبه من الأضواء العامة. إذ يعتقد أن التكتم أكثر فاعلية دوماً، حتى في السياسة. كان تدخّله الشخصي مصيرياً بالنسبة إلى تحرير السلطات الكوبية بعض السجناء السياسيين، وتلطيف بعض وجهات



النظر. كما ان مشاركاته في بلدان عديدة تتضمن أحداثاً تليق بفيلم لجيمس بوند، كما حصل في العام 1995 حين طلب خاطفو خوان كارلوس غافيريا أن يصبح غابو رئيس كولومبيا (وكان رد الكاتب: «لا أحد يمكنه أن يتمنى أن يتحمل مسؤولية أن يكون أسوأ رئيس للجمهورية (...) حرروا غافيريا، وانزعوا الأقنعة واخرجوا لتعزيز أفكاركم حول التجديد تحت غطاء النظام الدستوري»). ويذكر قائلاً: «لطالما كنت متآمراً أكثر مني موقّعاً. تمكنت دائماً من الحصول على أشياء أكثر عن طريق محاولة تصحيحها من الأسفل بدلاً من التوقيع على عرائض احتجاج».

ضمن هذه الدبلوماسية السرية يتولى الآن على سبيل المثال مهامّ وسيط من أجل السلام في كولومبيا، بتقريب مواقف حكومة الرئيس أوريبي من مواقف عصابات جيش التحرير الوطني (ELN). «منذ أن حملت بي أمي وأنا أسمعهم يتكلمون عن عملية السلام في كولومبيا. والآن، بعد صراع طويل، اتفقوا على الحوار. شاركت في محادثات أولية في هافانا، وسار الأمر على ما يرام. لدي علاقات طيبة مع كلا الطرفين. لفتات كهذه، بالنسبة إلى كاتب مثلي معتاد على الفوز، هي دائماً علاج من التواضع، حيث تتدخل مجموعة عوامل شديدة التنوع».

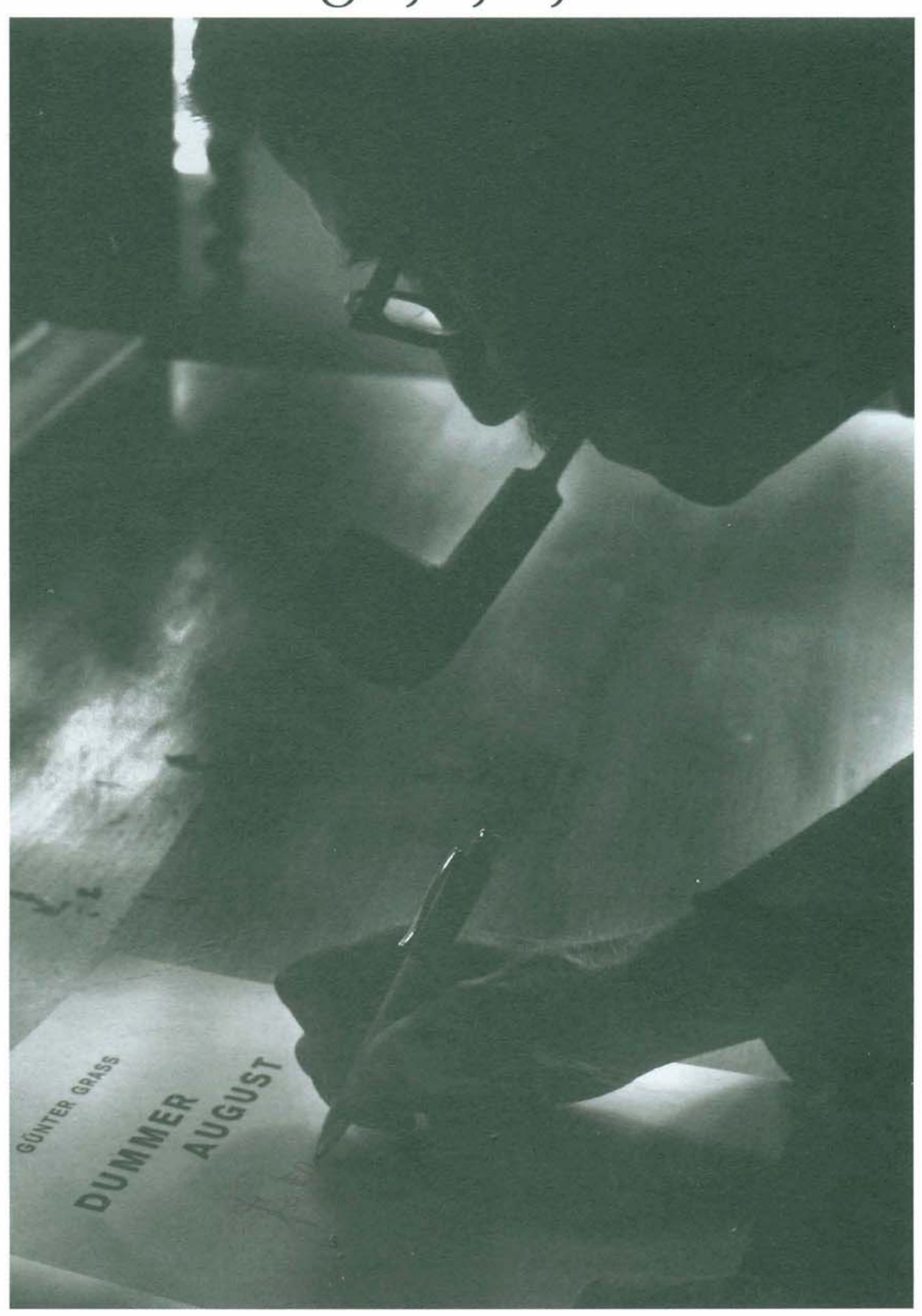
«لطالما وُجد العنف، وقد مضت عليه أعوام كثيرة في كولومبيا»، كما يذكر، «الموضوع الحقيقي هو الوضع الاقتصادي المنقسم بين الثراء الفاحش والفقر المدقع. وتجارة الكوكايين فيها الكثير من



المـال، براميـل مـن النقود! في اليوم الذي تختفي فيه المخـدرات سيتحسـن كل شـيء كثيراً؛ فهي السـبب في جعل كل شيء يتفاقم. إذ إنّ المنتجين الكبار في العالـم موجـودون هنـاك، حيث لم يعودوا يتنافسـون على السياسـة كالسـابق، بل يتنافسـون للسـيطرة على المخـدرات. والولايـات المتحـدة مشـتركة كليـاً فـي الأمر أيضاً».

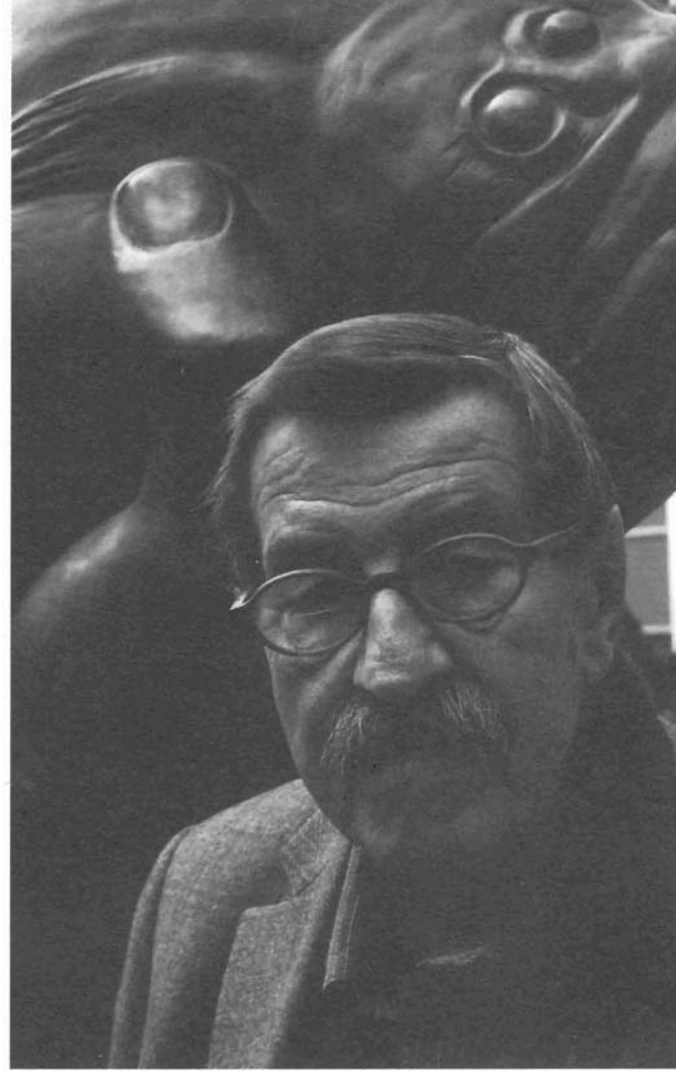
قبل أن نترك بيته، يبدي غارثيا ماركيث اهتمامه بالكتّاب الآخرين المشـاركين في سلسـلة المقابلات هـذه: «آه، أرى أنكمـا تختـاران الجيديـن فقـط». إنّ ثقتـه بنفسـه، وقربـه، يسـتحوذان علـى مسـتمعه بيـن الحيـن والآخـر مـن دون أن يتمكن مـن ملاحظة أي دليل على خجله الأسطوري الذي دفعه للصمت التام في برشلونة، وتسبب له بارتعاش عظيم حين توجب عليه الكلام علناً. «خجلي أنا؟ أحظى بالميزة العظيمة المتمثلة بأن الناس الآن يدخلون هذا البيت خجولين أصلاً. وهكذا يلائمني الأمر أكثر».

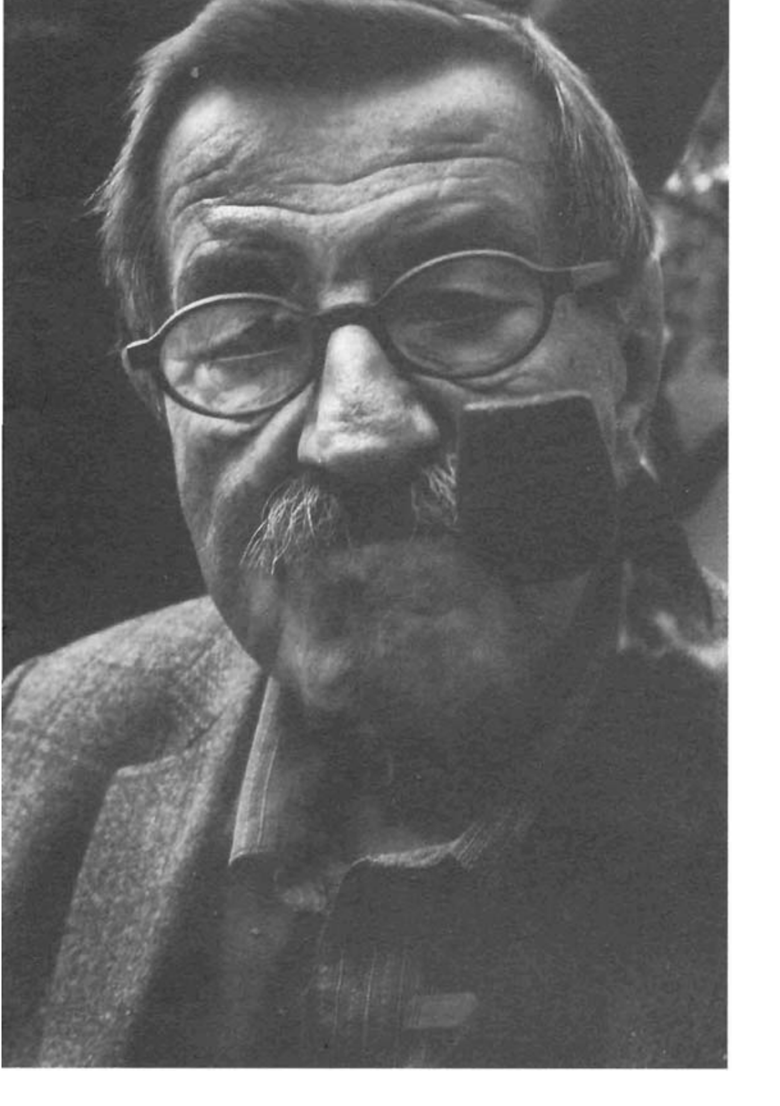
غـونتر غراس



«يجب أن نتكلم، حتى عن أكثر ما قد يصدم، ونخرج كل شيء».

إنّ الجدل الذي أثاره نشر مذكرات شبابه ترك أثره في نفس غونتر غراس، الحائز على جائزة نوبل في العام 1999. ينشر غونتر القصائد التي كتبها حين لم يدعه النقاد يموت، فيما يؤكد قراره بالحديث عن الماضي بكل صراحة.

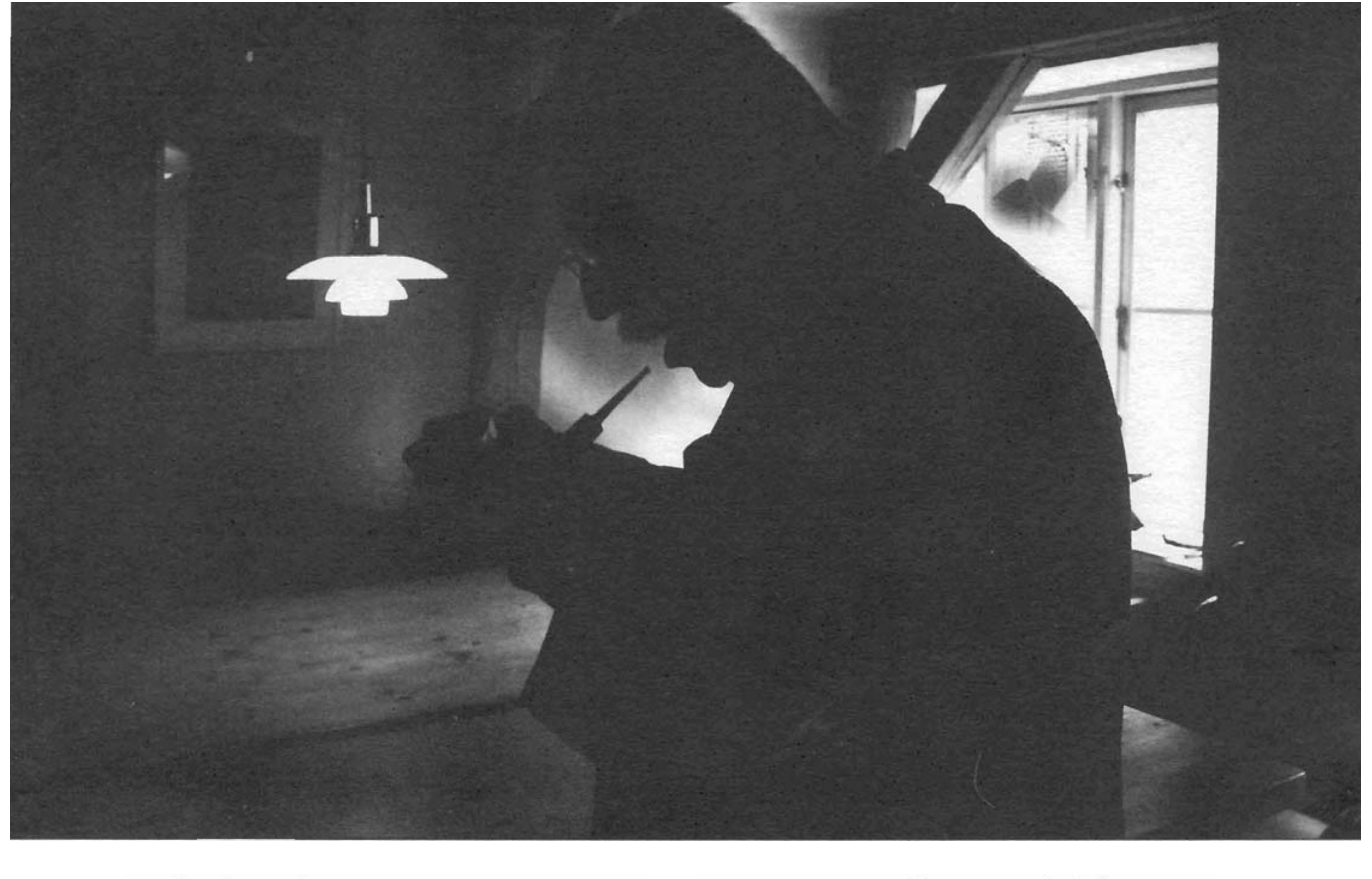




صوت القطار اللطيف، والشمس المشرقة التي تدخل عبر النافذة الصغيرة يجعلان بعض المسافرين يشعرون بالنعاس. وبمجرد الوصول إلى لوبيك، يفتحون أعينهم وقد تفاجأوا نوعاً ما ويبتسمون، كما لو أنهم قد حطّوا في حكاية خرافية للأخوين غريم. تبدو المدينة القديمة، ببوابة هولستيرتور المهيبة المبنية من القرميد الأحمر، مسرحاً مثالياً لساندريلا وأميرها ولشخصيات أخرى من حكايات العصور الوسطى الرائعة. تعتبر لوبيك المبنية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر جزءاً من التراث العالمي منذ عام 1987، ويفتخر سكانها باختراعهم المرصبان، بالإضافة إلى افتخارهم بثلاث شخصيات مشهورة: الولدان الحقيقيان توماس مان وويلي براندت، والابن المتبنّى الحائز على جائزة نوبل؛ غونثر غراس.

غراس شديد الإعجاب بالسياسي الديموقراطي الاجتماعي ويلي براندت (1913-1992) والذي كتب له الكثير من الخطابات، وهو معجب أيضاً بالكاتب توماس مان (1875-1955) وهو الشخص الذي تأثر به أكثر من سواه. إنّ لوبيك مركزُ جذب للسياحة الأدبية في أوروبا، بمكانيها الرئيسين: منزل بودنبروك - مقصد حقيقي يبجل عائلة مان التي عاشت فيه - ومنزل غراس الذي تأسس في العام 2002.

تم لقاؤنا الأول به في حديقة المنزل/ المتحف الخاص به. إذ إنّ المؤلف رسام تشكيلي وفير الإنتاج، وقد خُصّص جزء كبير من البناء لعرض لوحاته ومنحوتاته التي غالباً ما تتعلق بموضوعات كتبه، إلى جانب رأسين بشريين يبرزان من بين الحصى. ويخبرنا قائلاً: «هذه السيدة ذات الأثداء الثلاثة التي تريانها هناك، مثلاً، هي آيا التي غذّت الصيادين بأثدائها، وتظهر في روايتي **سمك الترس**. بعد كل



كتاب اعتدتُ أن أنحت. وهذا أمر ميكانيكي بالمقارنة مع الأدب، إذ إنّك لا تحتاج إلى دماغك، حتى إنه قد يزعجك. نعرض هنا نماذج لكتّاب/ رسامين آخرين: رسومات هرمان هسه وأوتو بانكوك، ولوحات غوته المائية...».

صعدنا معه طوابق عدة عبر درج ضيق يقود إلى علية شبه معتمة، تمنحها عوارض خشبية مطلية بالأزرق السماويّ بعض اللون. جلس غراس إلى جانب طاولة كبيرة وأشعل غليونه متمهّلاً. وكانت بعض الدرجات المعدنية تقود إلى سقيفة اعتقدنا أنها الملجأ الأخير للفنان. على إفريز النافذة، استقرّ تمثالان آخران له، مصنوعان من الطين.

وفي مكان شبيه بغرفة المطالعة وضعت آلة كاتبة قديمة فيها شريط ملون، من ماركة أوليفيتي – ليتيرا الأصلية، والمفضلة لديه. علّق قائلاً: «لا، ليست تحفة! أنا أستعملها! عندي العديد منها: واحدة في بيتي في البرتغال حيث أمضي الشتاء، وأخرى في جزيرة مون الدنماركية من أجل الصيف، وثالثة في بيهلندورف. كلها مرتفعة عن الأرض لأنني أكتب واقفاً. الكتابة بالنسبة إليّ لا تختلف كثيراً عن الرسم أو النحت، فأنا أكتب من دون انقطاع كما لو أنني أتعامل مع الطين: أضع في المخطوط الأول أشياء شاذة ثم أبدأ بقولبتها».

على الرفوف تتراكم الكتب والأوراق والمصنفات والمجلدات بفوضى ظاهرة. هناك كرة قدم عليها جمل لكتّاب ألمان حول هذه الرياضة. لا يترك غراس الغليون من يده، لكنه كثيراً ما يطفئه، وهو ما يؤكد أنها مسألة جمالية لا أكثر. كما أن هناك صوراً عديدة له على الحائط.

استعاد مؤلف **الطبل القصديري** طاقته. قبل بضعة أيام اعترف لنا أحد أصدقائه أن المؤلف «عانى الكثير» حين نُشرت مذكرات شبابه **تقشير البصل** في ألمانيا، حيث تمكن النقد الشديد من تقويضه ذهنياً.

الأحداث التي يرويها في الكتاب لا تدع مكاناً للشك. يذكرنا الآن: «خدمتُ في منظمة شباب هتلر. خلال الحرب تطوعت في الجيش، إذ رغبت



بركـوب غواصـة. لكنهم عيّنوني في الأس أس؛ وهي جماعـات نخبـة النازيـة المخيفـة. في حالتـي أنا، لم أطلق أي رصاصة، حيث اشـتركت في العراك مرتين فقط جُرحتُ خلال إحداهما وسجنني الأميركيون. لم يسبب لي الذهاب إلى الأس أس أي قلق أو خوف. ليس لدي أي عذر وهذا هو عاري؛ إذ وثقت بقدرات الزعيـم، ووثقـت بالانتصـار النهائـي لألمانيا. عشـتُ النازية منذ عامي الثاني عشـر مذهولاً ومبهوراً؛ نحن الشـباب لحقنـا بالإغـراءات. لم أعلـم بجرائم الأس أس إلـى أن انتهـت الحـرب، وكان الأمر مؤلماً جداً. لكـن، لا تعذبـوا أنفسـكم. لا يوجـد ما يلطّف الأمر، ولا يمكن التقليل من هول ما فعلته بالقول إنه طيش الشـباب». لا تـزال شـظايا قذيفـة موجودة في جسـد غـراس، تمنعـه من إلقاء الأحجار بذراعه اليمنى، كما أنها بمثابة ذكرى جسدية مستديمة للذعر.

اعتبـر بعـض المعلقيـن أنـه مـن غير المشـروع بالنسـبة إلى شـخص ذي ماض كهذا أن يعمل بكثرة، كمـا فعـل غراس، فـي «اصطّياد النازييـن» وفي النقد اللاذع لشخصيات الحياة العمومية؛ أصحاب الماضي السياسـي فـي الرايخ الثالـث، وردت عليه العديد من الصحـف المطبوعـة ذات توجهات سياسـية مختلفة: «كيف تجرأت على تلقيننا دروساً طوال هذا الوقت؟».

يبـدي غراس، المولـع بالقتال، اهتماماً بتوضيح بعـض مظاهـر الجـدل: «بداية، لم أعتـرف بموضوع الأس أس، فلـم أدّعِ يومـاً أننـي ضـد الفاشـية، ولـم



أُخف يوماً تطوّعي في الجيش. وحتى العام 1960، كنت أعترف دائماً أنني كنت في الأس أس حين كانوا يسألونني. وبعد ذلك، أمسى قبول هذا الجزء من ماضيّ أصعب فأصعب، وأردت أن أخفيه عن نفسي بسبب الخجل. أدركتُ أنني في لحظة ما سأعود إلى الموضوع... أجل، تأخرت، لكن في الوقت نفسه لا يفوت الأوان أبداً على أمور كهذه. الأمر الذي لم أرده بأي شكل من الأشكال كان تجميله.

أتريد أن تعرف ما الذي أشعر حياله بالذنب حقاً؟ لا أشعر بالذنب لأنني بقيت متكتماً خلال أربعين عاماً عن أمر كنت قد قلته سابقاً، بل إنّ أكثر ما يؤلمني (وللمفارقة لم ينتقدني أحد بسببه) هو كل ما لم أفعله وكان في وسعي فعله خلال تلك المدة. فحين قتلوا عمي في بداية الحرب، وحين أخذوا أحد زملائي في الصف وأحد مدرسيّ من المدرسة، وحين اختفى أيضاً جندي من أتباع الكنيسة بعد رفضه حمل السلاح... لم أحرك إصبعاً من أجل أحد. لم أطرح أي سؤال، ولم أرغب برؤية ذلك، لم أرغب بالمعرفة. قتلوا أشخاصاً عرفتهم، أو حملوهم إلى المعسكرات فيما غضضت أنا النظر. أتلاحظان ذلك؟ هذا أكبر ألم أحمله، ألم لن يغادرني إطلاقاً».

- يقول البعض إنك لم تعد المرجعية الأخلاقية للألمان.

- يسرّني ألا أكون هكذا. منحتني الصحافة بشكل مضحك لقب **ضمير الأمة**، كما فعلوا سابقاً مع هينريك بول، لكن الأمر الوحيد الذي فعلته وأفعله هو أنني ببساطة أمارس دائماً حقي في حرية التعبير. أما الآن فالصحافة ذاتها، عبر حملة شنيعة متعمّدة، سحبت مني اللقب الذي منحتني إياه، وهو مصدر سعادة لي.

- لكن، ماذا يوجد خلف انتقادك السياسيين أو القضاة أو العسكريين ذوي الماضي النازي؟

- إنهم سياسيون راشدون شغلوا مناصب مرموقة في منظمات مميزة في السلطة النازية. وفي بعض الحالات، خانوا الجمهورية الديموقراطية السابقة: موظف هام في قسم الدعاية، أو مشجع على القوانين العرقية... أهو الأمر ذاته بالنسبة إلى صبيّ مثلي كان عمره ست سنوات حين وصل هتلر إلى سدة الحكم؟ أيمنعني هذا من انتقاد نازي كبير مثل كيزنغر؟ لماذا؟ تُنشر اليوم الكثير من السير الذاتية، مثل سيرة المؤرخ جواكيم فيست (المتوفى حديثاً)، حيث يصرّح أن الجميع معادون للفاشية. هذه محض ترّهات. اسمعا، لقد أمر قاضٍ عسكري - تابع عمله بعد نهاية الحرب - بقتل عمي فرانز الذي عمل كساعي بريد ولم يزعج أحداً. ترك عمي خلفه زوجة وأربعة أبناء في مثل عمري. سأنتقد دائماً هذا النوع من الأشخاص.

- أأثر فيك سيل النقد إلى هذا الحدّ؟

- فاجأني الأمر، وأنا في منزلي في الدنمارك. كنت أرسم كعادتي دائماً حين أنهي كتاباً ما، وهو أمر لا أزال أقوم به، بالإضافة إلى كتابة قصائد حول كل ذاك الهرج والمرج. لم أستطع النوم، لكن الرسم وكتابة القصائد ساعداني، وفي أشد لحظات الأرق استسلمت، وأعدت قراءة **تريستام شاندي**، وهو كتاب كلاسيكي للورنس شتيرن هدّأني كثيراً. من المذهل كيف قد يشفيك عمل أدبي هام. ولقد كان في حالتي تلك مسلٍّ جداً! إذ أعاد إليّ البسمة...

من القصائد التي كتبها صدر كتاب **دومر أوغوست** الصادر حديثاً في ألمانيا والذي يمكن ترجمته إلى العربية: **غباء آب** (الشهر الذي اشتدّ فيه الجدل) أو **أغسطس الغبي** نسبة إلى المهرج ذي الوجه الأبيض الذي يعمل في السيرك ويهاجمه الآخرون.

موضوع كتابه الأساسي هو «زيف الذاكرة. كيف تكذب ذكرياتنا دائماً: تغير ترتيب الأحداث، وتعطي معنىً لشيء لم يكن له معنى، وتجمّل وتبجّل... لهذا، أكتفي بما فعلته، بالمظاهر المحددة، بشكل موضوعي. لا أرغب بتضليل أو باختراع أشياء عن ذكرياتي».

- ألهذا السبب تتحدث عن اغتصاب الجنود الروس أمّك من دون مظاهر كره؟

- أقصّ ما حدث. لم أعرف من أختي إلا أنهم قد اغتصبوها مرّات عدّة، قامت أمي بحماية

أختي التي كانت في عامها الرابع عشر قائلة للجنود: «خذوني أنا، ودعوا الفتاة بسلام». أكان في وسعي شرح الأمر بطريقة أخرى؟ لا أدري.

- ألا تذكر أنك كرهت أحداً يوماً؟

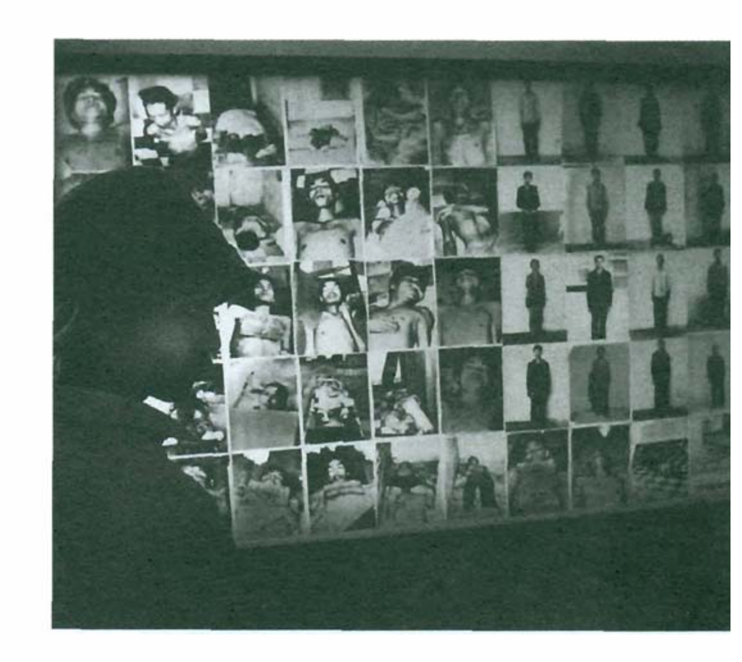
- لا. بالنسبة إليّ كان العدو فكرة مجرّدة. كنا صغاراً جداً، وكان مصدر معلوماتنا هو الدعاية. رغبتُ بالهروب من عائلتي؛ لأنها كانت تسبب لي الاكتئاب، ومن الشقة التي عشنا فيها كلنا في غرفة واحدة، ومن الحمام الذي تقاسَمَته أربع عائلات في الطابق الأوسط؛ أردت هجر الفقر. حلمت بأن أصبح بطل حرب، وذلك بإغراق القوارب، أو بتفجير الدبابات المعادية، أو بإسقاط طائرات الحلفاء التي قامت بهجمات إرهابية. لفت ارتداء الزي الأنظار إليّ، وزاد من قوة الأنا الداخلية لديّ. فحين لا ألبسه، كنت أشعر بالخجل من ربلتي ساقيّ ومن جوربي.

- أقتلت أحداً؟

- لم أبحث يوماً عن هدف بجهاز التسديد، ولم أضغط يوماً على الزناد، لكنني عشت أسبوعاً واحداً فحسب من الحرب الحقيقية في ميدان المعركة. ولم يكن السبب في ذلك تميّزي بأي شكل.

أفرغ الغليون في المنفضة قبل أن يملأه من جديد بالتبغ. ويتذكر قائلاً: «لطالما وعدتُ أمي أن أصبح فناناً مشهوراً. لم أتذكرها حين سلموني جائزة نوبل وأنا مسنّ جداً، لكنني تذكرتها حين قرأت مقاطع من **الطبل القصديري**، ومنحني الزملاء الكتّاب جائزة قدرها 4500 مارك، وهو أمر مهم جداً، أهم بكثير من جائزة نوبل لأنني يومها كنت أعيش في باريس، وكنت فقيراً جداً، أكتب في قبو موبوء جعلني أصاب بالسل، وقد سمح لي هذا المبلغ بمتابعة الكتابة. حصل هذا بعد وفاة أمي بأربع سنوات فقط. وعندها، كان في وديّ حقاً لو وجدتها معي».

غراس هذا نفسه يجلس مباشرة ليتفاوض مع ناشره الألماني - الذي نتخيله أكثر استياءً من عائلته الكئيبة - والذي يطالب دائماً بمزيد من النقود له. «منذ السبعينيات، فرضتُ على ناشري أن ينظم اجتماعاً في ألمانيا لكل مترجميّ إلى لغات أخرى



القضية: الذاكرة التاريخية

«أثارت فضولي كثيراً ردود فعل القراء الإسبان تجاه مذكّراتي. لقد عشتم تجربة تاريخية تشبه النازية: حكومة فاشية سيطرت على المجتمع بأكمله. لاحظتُ أنكم لا تزالون تتجادلون بشأن الحرب الأهلية وهذا يبدو لي جيداً. إذ إنّ للشباب الحق في معرفة كيف أمكن تدمير كل هذه الحيوات والضمائر. لا شك في أن تاريخ إسبانيا سيلاحقها. لا يزال لديكم في مدريد وادي القتلى، أليس كذلك؟ ذاك النصب الضخم الذي جعل فرانكو آلاف السجناء يبنونه تحت ظروف فظيعة ليمجّد حكمه، ومع ذلك يقصده السياح. أجد هذا... غريباً، بل غريباً جداً؛ لا أعتقد أن هذا سيحدث في بلد أوروبيّ آخر.

كل ذلك سيعود، وسيتجادلون بشأنه شاءوا أم أبوا، مثله مثل العدد الكبير جداً من المحكوم عليهم بالإعدام لسنوات وسنوات بعد الحرب الأهلية. نسمع في ألمانيا كل فترة سياسيين ومؤرخين يقولون: حسناً، علينا أن نفتح صفحة جديدة وننسى الماضي. وهم مخطئون دائماً. الماضي يعود دائماً».

كلما كتبت كتاباً جديداً، فأعيش معهم بضعة أيام، وأشرح لهم نقاط القوة في الرواية واللغة التي ترافقها، وهم يسألونني عما يحيرهم... أؤكد لك أن نوعية ترجماتي قد تحسنت بشكل ملحوظ. لا أعرف لماذا لم تنتشر هذه الطريقة».

تذكر صحيفة اليوم أن ريتشارد كابوشينسكي متهم بالتعامل مع مخابرات بولندا الشيوعية. غراس المولود في غناسك، التي كانت حينها مدينة ألمانية وهي اليوم بولندية، يؤكد قائلاً: «إنّ حمى ملاحقة الشيوعيين التي سبّبها الأخوان كازينسكي عودةٌ للوقوع في أسوأ مراحل تاريخ بولندا، وهي تعني استعمال الطرائق نفسها التي يتبعها الديكتاتوريون تماماً. ويا لها من حماقة! فهو الأمر نفسه الذي يحصل في ألمانيا: يلوحون مهددين بأرشيف الستازي (جهاز أمن الدولة في ألمانيا الشرقية سابقاً)، تلك المخابرات الشيوعية المخيفة، كما لو كانت الحقيقة المطلقة. بالله عليكما! هناك أشخاص يصدقون تلك الأوراق تصديقاً أعمى، وينسون أنها معلومات غير صحيحة صادرة عن واشين دنيئين في كثير من الأحيان».

يمضي غراس بعض الوقت في بولندا مرة كل سنتين على الأقل منذ العام 1958، كما يقول: «لأنني واحد من أربعة عشر مليون ألماني فقدوا مسقط رأسهم بسبب الحرب. أفضل إنجازات ما بعد الحرب كان استقبال ملايين اللاجئين. في كلتا الألمانيتين سُنّت قوانين تجبر العائلات على إيوائنا. لطالما شعرتُ بارتباط شديد ببولندا، ومن واجبي المساعدة على الاحتجاج ضد هذه الحكومة. لمستُ في إسبانيا كذلك صعوداً خطيراً للتعصب الكاثوليكي الذي يريد التدخل في السياسة».

لا يزال رأي غراس في السياسة على حاله، وهو يحتفظ بانتقاداته حول اتّحاد الألمانيّتين: «جاءت الحقيقة أسوأ مما توقعت. لم أعارض الوحدة الألمانية، لكنني عارضتُ أن تُسبّب تلك الوحدة تبعيةً واستغلال ستة عشر مليون شخص من قِبَل الرأسمالية المجاورة. كان على كل ذلك أن يتم بطريقة أكثر حذراً وبطئاً، وعلى قاعدة من الفيدرالية. اقترحتُ تحالفاً بين الحكومتين الألمانيّتين، فوصفوني بشتى الأوصاف؛ ألطفها خائن... ولكن ما الذي حدث اليوم؟ معدلات البطالة مرتفعة في الشرق، وتسعون بالمئة من الملكيات الثابتة وأراضي جمهورية ألمانيا الديموقراطية السابقة أصبحت بيد ألمان غربيين! هذا رهيب...».

«نقول إن أعداء الديموقراطية هم اليمين المتطرف واليسار المتطرف... لٰكنكم في الحقيقة تستطيعون أن تلاحظوا أن ما يسلبنا حرياتنا حقاً هو المصانع الكبيرة والبنوك... قوى تتصرف بنجاح فوق السلطة التشريعية. هناك شركات تطرد موظفيها فيما نشاطاتها تزداد. وهذا انحراف فاضح اعتدنا عليه، كما تحدّد هذه الشركات كيف يجب أن تكون القوانين. يقبل السياسيون ابتزاز أصحاب الشركات؛ فهم إذا لم يعيروهم اهتماماً، يهددونهم بنقل مصانعهم إلى الخارج، وهذا يخيفهم. كان من الممكن لتحالف كبير أن يقاوم هذا، لكن ذلك لم يحصل».

قبل الوداع، قال لنا غراس: «لم أتلقَّ يوماً هذا العدد الهائل من الرسائل التي وصلتني بسبب هذا الكتاب. أتعرفان ماذا يقولون لي؟ إنهم تمكنوا وأخيراً من الحديث عن الحرب مع أحفادهم وأجدادهم... هذا يفوق كل جدل في نهاية المطاف. يجب أن نتكلم، حتى عن أكثر ما قد يصدم، ونُخرِج كل شيء. أعرف أنني لم أتمكن من فعل ذلك قبل الآن، لكنني سعيد جداً بقيامي بذلك. لم أشعر بالراحة وأنا أتحدث مع الشاب الذي كنته، لكنني أجبرتُ نفسي على فعل ذلك. لن يتجاوز جيلي يوماً هذا الموضوع، ولن نصل يوماً إلى نقطة النهاية. أؤكد لكما أنني سأتابع الكتابة عن الموضوع. لن أغلق فمي، وعلى أعدائي تحمل ذلك».

نجيب محفوظ



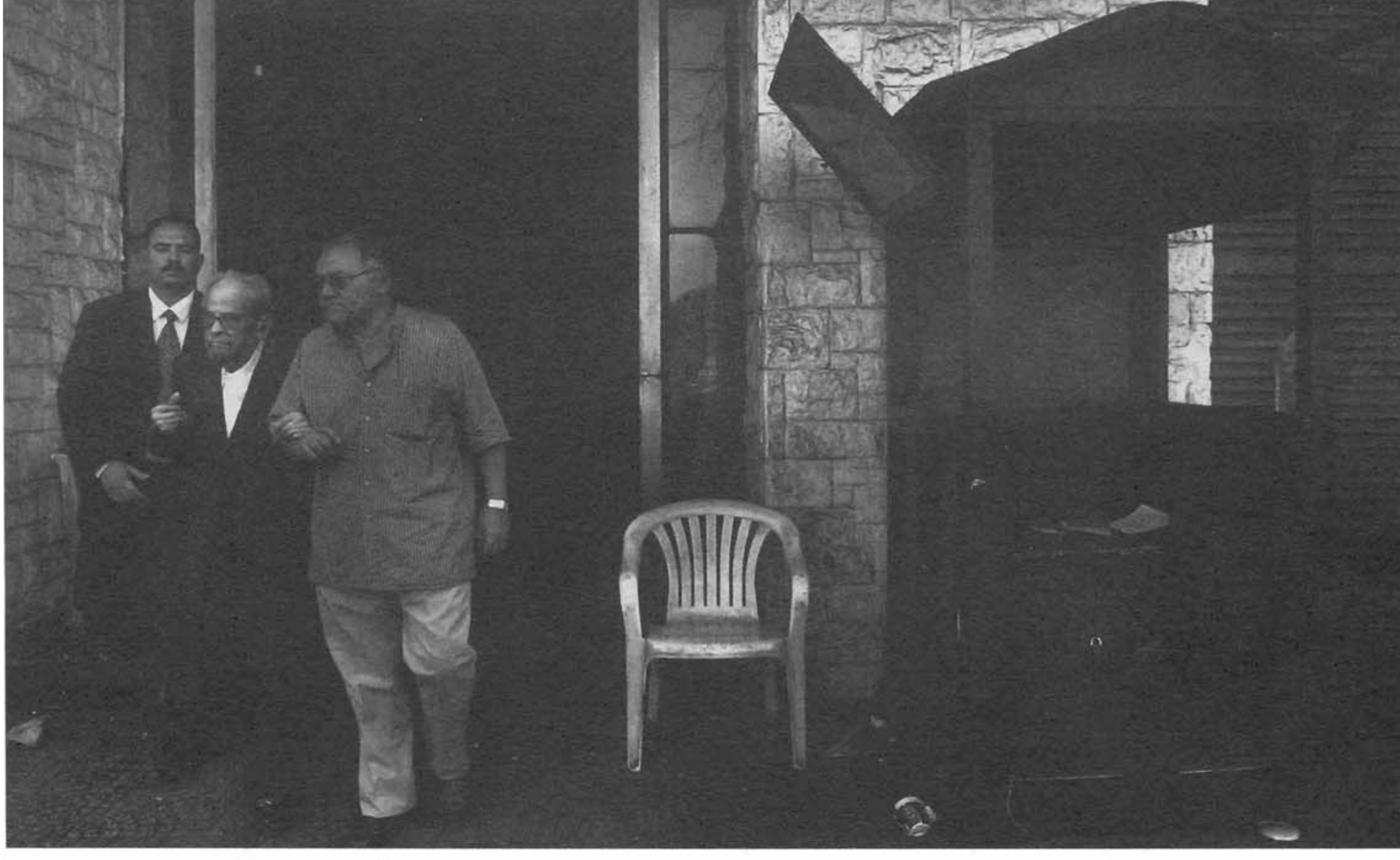
«لم يعد في وسعي القراءة ولا الكتابة، لكن أصدقائي هم عيناي وأذناي وريشتي».

حمل نجيب محفوظ مقاهي القاهرة ودوائرها الاجتماعية إلى العالم أجمع، وخاصة العالم الغربي الذي اكتشف الرواية العربية من خلال أعماله. بعمره الذي يناهز الخامسة والتسعين يعيش نجيب محفوظ مع آثار هجوم رجعيٍّ، أعمى وشبه أصم، ولكنه لا يزال يتردد على دوائره الاجتماعية في مقاهٍ أخرى أكثر أماناً، ويعير أحلامه حالياً انتباهه، فيصطادها ليحولها إلى نصوص قصيرة؛ نوع جديد من الأدب. يقول محفوظ إن الرجعيين الذين لطالما كرهوه يخسرون المباراة.



لا يستطيع نجيب محفوظ رؤيتنا أبداً، ولا حتّى سماعنا بشكل واضح. حين وصلنا إلى غرفة الطعام في شقته في القاهرة، استقبلنا بالجلابية والشبشب، فشدَدنا على يده بحرارة لهنيهة، ليتمكن من تخمين التأثر والإعجاب اللذين يثيرهما فينا. وحين دعانا للجلوس، قدّمت لنا زوجته، ذات الأناقة الشرقية والحجاب الأزرق، الشاي مع حلويات مختلفة. شرحنا سير المقابلة لأحد أفضل أصدقائه: وهو الكاتب محمد سلماوي الذي ترجم له أسئلتنا إلى اللغة العربية، صارخاً على بعد عشرين سنتمتراً من أذنه بصوت مرتفع جداً. إن المشهد الذي يتكرر لأيام عدة (محفوظ المولود في العام 1911 يتعب من الكلام) أزاح هالة الوقار، على عكس ما قد يبدو. أشار ميزان الحرارة إلى 37 درجة. كنا في القاهرة؛ قاهرة نجيب محفوظ الصاخبة. كانت أيام الحائز على جائزة نوبل للآداب في العام 1988 تشبه بعضها بعضاً، فدائماً ما تنتهي بقرص دواء («أحتاج إليه لأنام»). فهو يستيقظ باكراً جداً في الصباح، وأول ما يفعله هو التركيز في ما يلي: «أحاول حفظ ما حلمت به، فلعلّني أكتب عنه». بعد الفطور، يستقبل صديقه السيد صبري الذي يقرأ له الصحف اليوميّة وبعض الكتب. كان الأمر بمثابة صراخ في أذنه أكثر منه قراءة، كحال السيد سلماوي خلال مقابلتنا. في ما بعد، وحين ينتهي من تناول الغداء، يخرج محفوظ إلى الدوائر الاجتماعية، ليتحدث مع أصدقائه؛ وهم مجموعة مختلفة كل يوم (مع أن بعضهم قد يتكرر دورهم) في مقاهٍ وفنادق مختلفة في المدينة، ويبقى كذلك حتى العاشرة ليلاً.

لا شيء يوقف محفوظ الذي سيحتفل بذكرى مولده الخامسة والتسعين. هو أعمى وشبه أصم ولا يستطيع الحديث لوقت طويل من دون توقف. تتضمن نشاطاته اليومية جلسات علاج فيزيائي ثلاث مرات في الأسبوع. كيف كانت ستصبح حياة نجيب محفوظ لولا الطعنة التي تلقاها مساء الرابع عشر من أكتوبر 1994؟ في ذلك اليوم، بعد خروجه من منزله، هاجم الكاتبَ رجعيّ تمكّن من طعنه بسكين في عنقه. بقي حياً لأن الصديق الذي كان يرافقه في تلك اللحظة كان طبيباً، ولأن الهجوم حصل قرب مستشفى. ومنذ ذلك الحين، يحمل محفوظ آثار ذاك الهجوم، حيث



أصيبت يده اليمنى بالشلل. يقص محمد سلماوي قائلاً: «اضطر إلى التعلّم من جديد كيف يمسك القلم كما لو أنه طفل؛ هذا الرجل الذي حصل على أهم جائزة أدبية في العالم! ولم يشتك. في النهاية، وبعد الكثير من التدريب، تمكن من الكتابة نصف ساعة في اليوم، ولو أن خطه لم يعد إلى وضوحه السابق». يعرض علينا محفوظ بجدّية خطه الحالي. إذ يستطيع كتابة بعض الجمل القصيرة فقط أو توقيع الكتب.

يبدو كخطّ طفل. مررنا في الصباح بأزقة وأسواق ومقاهٍ تقليدية موصوفة في أعمال محفوظ (الذي ينبّهنا إلى أنه «من غير الضروري أن تزورا هذا، فهو الآن مطعم حديث»). عند المساء رافقناه إلى دوائره الاجتماعية الأسطورية في القاهرة. اليوم يوم أحد، ونحن بانتظاره أمام باب منزله، في المكان نفسه الذي طعنوه فيه. كان نشاط الشرطة واضحاً. ففي الشارع، كان هناك ثلاثة رجال من الشرطة، وكان شرطي آخر يقف في كابينة أمنيّة. كما كانت سيارة تاكسي مع سائق تنتظره قرب منزله. في حقيقة الأمر، كان السائق عنصر مرافقة، ومهمّته أن يقلّه إلى أحد الفنادق. وأخبرونا لاحقاً عن وجود عناصر عدة من المباحث كانوا يجوبون الحيّ (نشكّ في رَجل توصيل البيتزا الذي كان يظهر بين الفينة والأخرى مع الحمولة نفسها). حين رأينا محفوظ، يسنده صديقه فتحي هاشم، وهو الطبيب الذي أنقذ حياته في العام 1994، استوعبنا رمزيّة هذه النزهة اليومية وكأن مشية الكاتب البطيئة تصرخ: «أتريان؟ لم يتمكّن منّي الإرهاب، فما زلت أذهب إلى الحلقات الاجتماعية».

احتفالاً بالصداقة

لم يغير الاعتداء إلا مكان الاجتماع؛ لأجل الأمان، إذ توجب استبدال كازينو الأوبرا وقهوة ريشة وقصر النيل... بأماكن أكثر أماناً. اليوم دور مقهى نابليون، الموجود في أحد طوابق فندق شيبارد الفخم. كان محفوظ والدكتور هاشم أول الواصلين. يحدثنا العربي الوحيد الحائز على جائزة نوبل قائلاً: «اضطررت إلى التخفيف من عدد سجائري. فبدلاً من تدخين ثلاث سجائر في اليوم... اقتصر الأمر على اثنتين». يبتسم بخبث وهو يقول ذلك. يبدأ الأصدقاء

بالوصـول. قصـد لقـاء ذاك اليـوم، صحفيـة إيرلنديـة، بالإضافـة إلـى المخرج السـينمائي عصـام دراز الذي صـور فيلمـاً وثائقيـاً عن الكاتـب، والمهندس محمد الكفـراوي، ومحـرر فـي صحيفة **الشباب**... يعرفون عن أنفسهم صارخين إلى محفوظ الذي يومئ برأسه أو يبتسم أو يباشر حديثاً، حسب الحالة. إلا أنه يبقى صامتـاً معظـم الوقـت، غارقاً في ظلمتـه فيما الباقون يتحدثون. يبدو سعيداً، كما لو أنه يكتفي بمعرفته أنه محاط بالأصدقاء.

عرّف السـينمائي دراز عن نفسـه خمس مرات، لأنّ صوتـه الناعـم واللطيـف لـم يصـل إلـى مسـامع محفـوظ. وكان صـوت المهنـدس كفـراوي الرخيـم



أفضل بكثير، وقد أحضر له هذا دزينة قصاصات من جرائد الأسبوع الأخير، وقال: «لنعلّق على اللعبة يا نجيب». وهكذا، تحدّث محفوظ وكفراوي عن نتائج كأس العالم لكرة القدم، عن دور جيري آدامز في السلام في إيرلندا، عن الصراع بين فتح وحماس في فلسطين، وعن تزايد المتدينين المتشددين في البلاد. مرّ المساء مع الكولا وأكواب الشاي (لا أحد يتناول المشروبات الكحولية)، وتحوّل إلى احتفال بالصداقة. قال لنا محفوظ في اليوم التالي: «هذا صحيح، الصداقة في هذه المرحلة من حياتي هي أكثر ما يهم، فمنها أحصل على الدعم والقوة اللازمين لأعيش، يوماً بعد يوم. لم يعد في وسعي القراءة ولا الكتابة، إلا أن أصدقائي هم عيناي وأذناي وريشتي. لولاهم لكانت هذه السنوات هي الأسوأ في حياتي. عجزي يعزلني عن العالم، لذلك عليّ سؤالهم عن آخر الأخبار في مجالات الكتب أو الموسيقى أو الفن. المعلومات القليلة التي أحصل عليها من ذلك مهمة جداً لصحتي النفسية والجسدية». مُجمَّع الشقق التي يعيش في إحداها محفوظ إلى جانب النيل (حيث يقطن من قبل أن يستلم جائزة نوبل) لا يبدو فاخراً أبداً، والمنطقة تشبه أي حي إسباني من الطبقة الوسطى، مع أن الواجهة الإسمنتية متسخة، وأجهزة التكييف التي يعلوها الغبار تبدو وكأنها مصدر خطر على المارة، إلا أن الحي من الداخل يدلّ على اختلاف ساكنه: الزينة الأنيقة، والأُصُص المليئة بالزهور، والبسط على الجدران، وقطع مختلفة من الأعمال اليدوية...

كيف يكتب محفوظ حالياً؟ «أفكر في قصة، ثم أحفظها وأمليها على أحدهم». يعمل حالياً على رواية **أحلام النقاهة**، وهي عبارة عن قصص قصيرة تُحيط بتجاربه في الأحلام. يعلّق قائلاً: «هذا يلائم حالتي الصحية، فالأحلام تأتي من دواخل الأشخاص، وليس من الضروري أن تسمع أو ترى للإلمام بها كاملة. هذا ما يمكنني فعله الآن، إذ لا أحتاج إلى أن أعيش تجارب أخرى، لأنني أعيش تجربة داخلية. أرى حلماً، وأعيشه كحقيقة، وبعدها أحوله إلى ما يشبه الرواية؛ إلى أمر كامل ذي معنى». هذا هو سبب كون كتب المؤلف الأخيرة عبارة عن مجموعة قصص قصيرة جداً، من صفحة واحدة غالباً، بل لعلها أقلّ من ذلك. «أقطّر كل جملة وفكرة حتى أعثر على جوهرها. بعض النقاد شبّهوها بالهايكو، لكن الذين يكتبون هذه القصائد اليابانية لديهم حرية اختيار الشكل الذي يفضلونه. أما في حالتي فالحاجة هي التي اضطرّتني إلى الاختصار. لا أستطيع إلا كتابة القصص القصيرة، المركزة. ولا أستطيع الاستمرار لأكثر من نصف ساعة لأنني أتعب، مع أنه يمكنني أن أمضي أياماً وأنا أفكر في الأمر». بالرغم من التواضع الذي يتكلم به عن أعماله الحالية، فقد كتب بعض النقاد أن محفوظ يخترع في مؤلفاته القصيرة نوعاً أدبياً جديداً. إنّ عملية تحديث المجتمع موضوع أساسي في أعماله، بالإضافة إلى اهتمام رجل الشارع بالتفكير الحديث والأفكار الأوروبية. «أجل، التحديث عملية طبيعية، فالحضارات تتطور تدريجياً وتفاعلها مع بعضها أمر أكيد الحدوث. لا يمكننا تجاهل حضارة أخرى لأنها كلها تتمتّع بشيء من الإنسانية. المصري منفتح بطبيعته، وموقعنا الجغرافي بين القارات القديمة الثلاث سمح لنا بتفاعل مستمر مع الثقافات الأخرى. طبيعة المصري هي التسامح، فهو بطل حضارة لم تغلق أبوابها يوماً أمام غيرها من الحضارات التي مرت فوق أرضها على مر التاريخ». صديقه المسرحي والصحفي ورئيس اتحاد الكتاب سلماوي هو من يدفع محفوظ لينشر مقال رأي أسبوعياً في الصحافة. يشرح سلماوي قائلاً: «أجيء لرؤيته كل نهار سبت، فأقترح عليه موضوعاً ما ونباشر حواراً، فأطرح عليه الأسئلة في بعض الأحيان، وفي بعضها الآخر لا أجد حاجة إلى ذلك لأنها تخطر بباله كلها». قبل فترة، حصل هجوم إرهابي ضد سياح في شبه جزيرة سيناء، وهو ما عزز الشعور المتنامي بأن خطر الإسلام حلّ مكان التهديد الشيوعي. يقول محفوظ مصدوماً: «كيف يمكن أن يعتقد بعضكم أن الإسلام تهديد؟ ليس أمراً صحيحاً نعت هذا الإرهاب بالإسلامي، مثلما لا تجوز مناداة العنيفين في الغرب بالمسيحيين».

«الدين الحقيقي يشكل هدف الإنسان النهائي. لكن، هناك من يفسر الأمر بطريقة مغايرة للوصول إلى مآربه الخاصة. هذه الهجمات هي من عمل الإرهابيين الذين يريدون أن يؤذوا السياحة والاقتصاد في مصر، لكنهم لن يتمكنوا من ذلك، لأن السياح لا يزالون يأتون كما لو أنهم اعتادوا على الأمر». وعن أسباب العنف، يبدي حذره قائلاً: «إنّ الرّغبة في تحقيق العدالة الاجتماعية أو السياسية لا تبرر الإرهاب، مع أنها في الحقيقة عاملاً هاماً في أصل الظاهرة. والغرب أيضاً مسؤول عن ذلك إلى حدٍّ ما، وهو أمر يقلقني، لكنني أعتقد أنه سينتهي. يجب ترك المصريين ليحلّوا مشاكلهم بأنفسهم: فكلما زادت العدالة والمساواة في البلد، كلّما ضعف التعصب كثيراً».

تحدّثنا عن روايته **أولاد حارتنا** التي نُشرت في بيروت ولم تُنشر أبداً في مصر. قرأنا في مصادر عديدة أن محفوظ تقرّب من السلطات الدينية ليتمكن أخيراً من نشر كتابه في بلاده. وقد نفى قائلاً: «على الإطلاق. لم أتصل يوماً بالأزهر، وإليكم ما حدث: في العام 1959، أخبرني المسؤول عن الرقابة أنه من غير الممكن طباعة الرواية في مصر، لتجنب شكاوى الأزهر، لكنه قال لي أيضاً إن أي دار نشر أجنبية ستقبل بنشره، وإنه لن يسمح بنشر أي نقد سلبي في الصحافة المصرية. وهذا ما حصل. مؤخراً، وبعد طرح فكرة طباعتها في مصر من جديد، قلت إنه علينا الحصول على موافقة الأزهر لنقوم بذلك. لكنني لست على صلة بهم، وأعتقد أنه لا يتوجّب على أي مؤلف أن يطلب إذن أي سلطة لينشر أعماله».

من جهة أخرى، «أعرف أن الرواية لا تعادي الدين، وأنا لا أعتبر نفسي كافراً. وفي حينها، كنت مستعداً للدفاع عن الكتاب أمام لجنة دينية كان يفترض بها أن تجيء إلى منزلي، لكنها لم تأتِ يوماً. فللمفارقة، كان هذا الكتاب ينتهي بانتصار الإيمان، وأعتقد أن أيَّ قاض عادل كان سيسمح بنشره، لكنني الآن أشد تعباً من أن أدافع عن نفسي». الحق أن رواية **أولاد حارتنا** هي السبب في الاعتداء عليه في العام



القضية: ضد التشدد

نجيب محفوظ هو عميد الكتّاب والمثقفين المصريين الذين يحاربون تصاعد التعصب في مصر، والذين يدافعون عن وجود دولة علمانية تتجاوز حدود خيارات مواطنيها الدينية. هو رمز للصراع ضد التعصب، ومدافع عن الديموقراطية وعن تحرر المرأة، ولا يعتقد أن التشدد يفوز باللعبة. على سبيل المثال، «المرأة تزداد تحرراً يوماً بعد يوم. في بدايات القرن الماضي خضعت كلياً للرجل، لكن وضعها أخذ يتحسن مع كل جيل جديد. واليوم لدينا وزيرات وسفيرات ورسامات... نعيش تحرير المرأة». في العام 1994، حاول المتشددون اغتياله، في الوقت الذي جاء فيه وفد رسمي من جماعة الإخوان المسلمين قبل شهر لتهنئته بذكرى ميلاده. «قالوا لي إنهم يرحبون بالأدب والإبداع. هذا تقدم إيجابي بالرغم من خلافاتنا، لأنهم يكتشفون أن هذا المجتمع لا يقبل بعض الأمور، وأن الطريق الوحيد هو النظام البرلماني والأساليب السلمية».



1994. «لا أعرف ما الذي جال بذهن المعتدي؛ لا بد من أن سادته أقنعوه أن ذاك الكتاب يهين الإسلام، وهو أطاعهم ببساطة. فلقد أكد في تصريحاته أمام السلطات أنه لم يقم حتى بقراءة الرواية».

– ماذا تذكر عن الاعتداء؟

– لا أذكره. لو كان في وسعي رؤية الشاب الذي هاجمني، أو تذكر أنني مددت يدي لأصافحه معتقداً أنه معجب (قالوا لي إن هذا ما فعلته)، فقد أصاب بالأذى. لا أذكر إلا أنني استقللت السيارة وحسب. وإنّ عدم تذكّري التفاصيل المزعجة نعمة ربّانية.

أحاديث المغرب كتاب حِكَم وقصصٍ رمزية اعتبرته **نادين غورديمر** الجنوب **إفريقيّة** أثمن من سيرة ذاتية، لأنه وسيلة لمعرفته من الداخل.

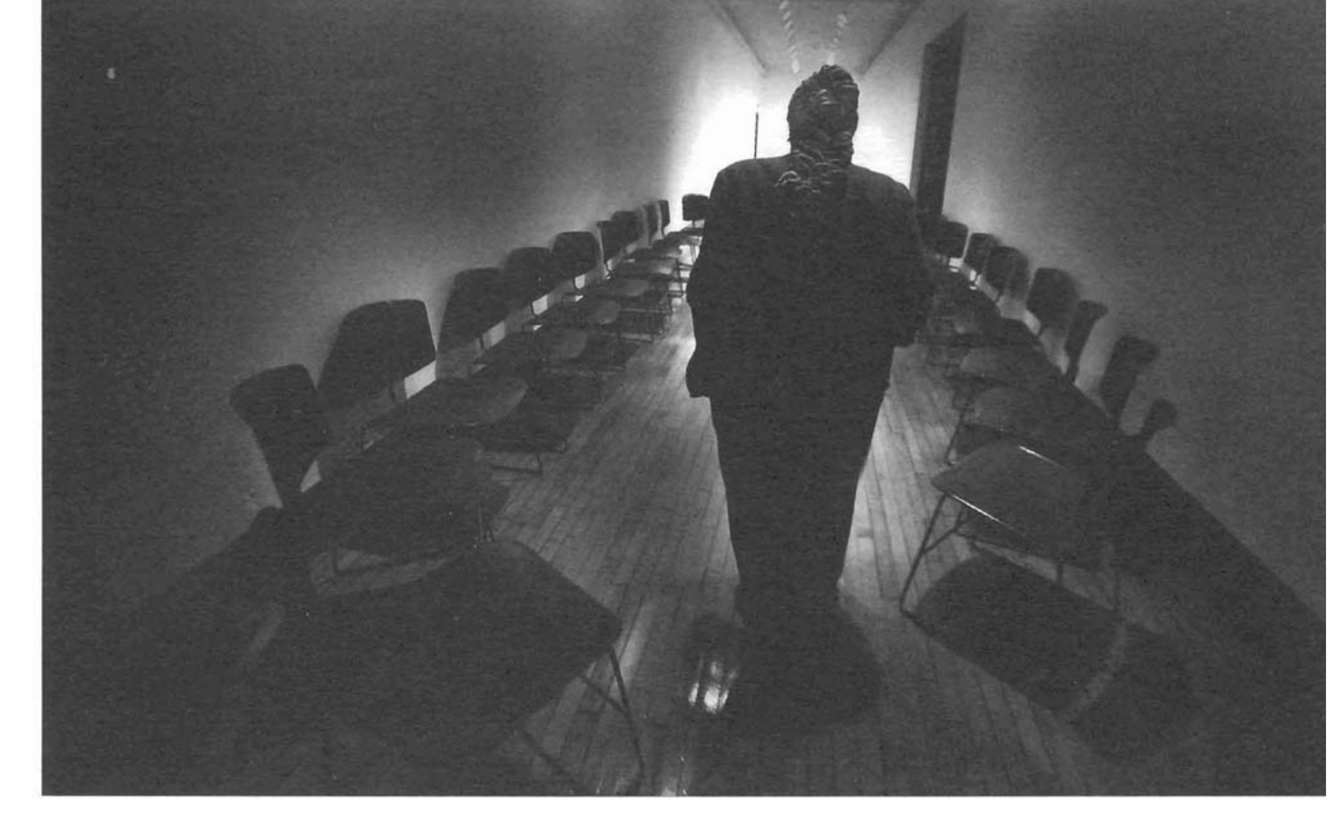
أدبياً، وضع محفوظ اللغة العربية على الخارطة العالمية برواياته التي يزيد عددها على الأربعين رواية، وقصصه الثلاثمئة والخمسين ومسرحياته الخمس. في الحقيقة، إن أعماله وحدها دفعت النقاد **الغربيين** لقبول وجود رواية عربية من دون نقاش، كما توجد الرواية الروسية والفرنسية. قبل محفوظ، لم تكن هناك إلا لغة أدبية قديمة، واللهجة المحلية؛ وهو من أوجد ما يسمى **باللغة الثالثة**. هو متواضع بطبيعته، يقص علينا صديقه كفراوي ما يلي: «في أحد أيام العام 1988، قبل النوبل، هكذا، كما هو حالنا الآن، وأخذنا نتحدث عن هيمينغواي وفولكنر. اعتبر نفسه أدنى منهما مكانة بكثير، فغضبت وقلت له يا سيد محفوظ! نحن أيضاً ورثنا كل هذا التراث في اللغة العربية! لستَ أقل منهما شأناً، وعليك أن تحترم نفسك أكثر! فصمت... وبعد أسبوعين نال جائزة نوبل! شعرت بالسعادة كثيراً لأنه ضمن المجموعة نفسها كان هناك من قللوا من شأنه؛ الأمر الذي تغير لاحقاً». حتى **اليوم**، يبدو لمحفوظ أن هناك مؤلفين عرب آخرين يستحقون الجائزة: «من القديم: طه حسين، وعباس محمود وتوفيق الحكيم. لدينا أيضاً جمال الغيطاني من الجيل الحديث، إضافة إلى الشاعر **الفلسطيني** محمود درويش، والسوري أدونيس... وآخرين لا أذكر أسماءهم أو لا أعرفها، بما أنني لا أستطيع القراءة منذ سنين، وقد ضاع عليّ الجيل الأكثر حداثة». نسأل محفوظ قبل أن نودعه بيوم: أتفكر في الموت؟ وبعد صمت يجيبنا: «الحقيقة أنني أعتاد عليه، فأنا قريب منه إلى حدّ أنني أستطيع رؤية وجهه أحياناً، وهو لم يعد غريباً بالنسبة إليّ».

توني موريسون



«لا تزال العبودية موجودة».

بالنسبة إلى أوروبي عادي، يكفيه التنزه في شوارع نيويورك ليشك في أن في الولايات المتحدة مشكلة عرقية. لكن الأمور تتغير في الواقع. فتوني موريسون - إضافة إلى كونها آخر أميركية على قيد الحياة حائزة على جائزة نوبل - هي الشاهدة الأدبية الرئيسة على كل التغييرات التي حدثت وتحدث.



السيدة التي تنظف الغرفة في فندقنا في منهاتن تدعى برليندا وهي من العرق الأسود. تمر بالمكنسة الكهربائية على الموكيت بينما تستمع إلى فرقة بلاك آيد بيز عبر الآيبود. وعبر النافذة يمكننا رؤية جماعة من ستة رجال ينامون كل ليلة في الشارع ملتجئين إلى أحد المداخل. كلهم سود. في الكشك، تُعرض عدة مجلات سوداء، أي أن كتّابها سود يتحدثون عن مشاهير السود: الرياضيين والمذيعين والممثلين والسياسيين...، وهم وحدهم الذين يظهرون في الصور، كما لو وُجد عالم خاص بالزنوج. بالنسبة إلى أوروبي عادي، يكفيه التنزه في شوارع نيويورك ليشك في أن في الولايات المتحدة مشكلة عرقية. لكن الأمور تتغير في الواقع، ورمز ذلك كله سيدٌ يظهر كل يوم على شاشة التلفاز أهدوه كلباً لتوهم. إنه رئيس البلاد، وهو أسود أيضاً. روايته المفضلة هي **أغنية سلمون** التي كتبتها توني موريسون (لورين، أوهايو، 1931) في العام 1977. لم تقرأ برليندا أعمال توني، لكنها تتحدث عنها بإعجاب. هذه المؤلفة – إضافة إلى كونها آخر أميركية على قيد الحياة حائزة على جائزة نوبل – هي الشاهدة الأدبية الرئيسة على كل التغييرات التي حدثت وتحدث. استقبلتنا في شقتها الفخمة ذات الطابقين في تشاناياتاون الذي شغلتها قبلها قوى الشرطة. لقد صدرت مؤخراً الترجمة الإسبانية لروايتها الجديدة **نعمة**. ولقد طالت مدّة المقابلة التي أجريناها معها بعد عدة أيام في حرم برينستون الجامعي القريب، حيث تلقي محاضرات وتملك منزلاً آخر. موريسون شخصية تحظى باحترام كبير في الولايات المتحدة. فالناس يستوقفونها في الشارع، ويعانقونها، ويحكون لها عن همومهم الشخصية، كما لو كانت تعرفهم طوال حياتها («لم أعد أعجب زوجي كثيراً، أتعرفين؟»). صوتها وحركاتها تفيض ثقة بالنفس وأنوثةً. قالت لنا في اليوم الأول في المحادثة التي أجريناها معها في الاستوديو خاصتها: «لا، لا تلتقطا لي الصور الآن! انتظرا حتى حفلة نهاية العام في الجامعة، لو سمحتما. عندها سأتأنق وأتجمل».

موضوع العبودية من المحاور الرئيسة في أعمال موريسون، مع أنها لم تتحدث عنه منذ العام 1987، حين نشرت **عزيزة**، فشرحت قائلة: «في ذلك الوقت، أردت أن أُظهر كيف حوّلنا ذاك النظام جميعاً إلى منزلة دون بشرية. أرغب الآن بالتشكيك في أسطورة هذا البلد؛ قصة الحوريات



تلك التي تدور حول الولايات المتحدة في بداياتها. كان ينقصني الحديث عن أولئك الذين كانوا عبيداً قبل وجود الولايات المتحدة. في القرنين السابع عشر والثامن عشر، مثّل هذا المكان نقطة التقاء لكل العالم، وجاء الناس من أنحاء المعمورة كافة، ولم تكن العبودية قد ارتبطت بالعرق الأسود بعد». بالفعل، يكتشف الكثير من قرّاء **نعمة** وجود عبيد من العرق الأبيض لأن «العبيد كانوا هم المنبوذين، وذوي الفقر المدقع، والبائسين، والمنحوسين؛ بغض النظر عن لونهم، سواء أكانوا بيضاً، أو هنوداً أو سوداً. في ما بعد، فرّق التمييز العنصري بين الفقراء البيض والفقراء السود، وتشكّلت طبقة دنيا جديدة هي طبقة العبيد، التي كانت أقل منزلة من أسوأ البشر. في أحد الأيام، تحول التمييز العنصري إلى قانون، ولكن في القرن السابع عشر عمل العبيد السود والبيض معاً في مزارع التبغ. وتمثّلت مساهمة الولايات المتحدة بتأسيس تقسيم عرقيّ لمصالح سياسية، وعن طريق الفقراء البيض أنفسهم، نتجت عنه نصوص قانونية هدفها حماية الأغنياء، وفي الوقت نفسه السماح بوجود طبقة بيضاء فقيرة تنظر إلى طبقة فقيرة أخرى نظرة دونية. لا تزال شبكة الثقافة العنصرية هذه سارية المفعول في بلادنا، فتخلّد تقسيمات تناقض حقيقة الديموقراطية. ليس التمييز العرقي طبيعياً، بل إنّه أمر سياسي تَشكّل ليخدم مصالح معينة».

كانت هذه اللحظة التاريخية السابقة لتشكل الولايات المتحدة، بل السابقة حتى لتنظيم المستعمرات الأوروبية، تثير اهتمام موريسون لأنه، كما قالت: «كان هناك استقبال مستمر للوافدين، وحركة بشرية ضخمة، ومدن ما انفكّت تغير اسمها وفق جنسية سكانها، فيما نشأ غيرها من العدم. كان كل شيء يتأرجح، وتشكل فيضان من الناس القادمين من كل حدب وصوب، تجذبهم المصادر الطبيعية، كالذهب والطبيعة الخيّرة، والغابات بأشجارها المثمرة والأسماك التي تقفز مباشرة إلى سلة الصياد. وفي هذه الحقبة، جاء البيض الوطنيون وهم في حقيقة الأمر عبيدٌ كالسّود تماماً. والفرق الوحيد بين العبيد السود وأولئك البيض، أن البيض تمكنوا من الهروب والاختلاط بين السكان، بينما قُبِضَ دائماً على السود من جديد بسبب لون بشرتهم».

في هذا السياق، كان للديانات أهمية كبيرة. «من أين تأتي قوة الكنيسة في هذا البلد؟ أنا أربط الأمر بالفكرة الأميركية جداً الخاصة بالفردية: أسطورة أن



تعيش وحيداً، أن تصبح إنساناً صلباً، من دون عائلتك التي قد تهجرها لتعيش المغامرات. هذا أمر يشكّل جزءاً من مخيّلة الأمة، وأبرز رموزه هو الكاوبوي. أنا ألاحظ ما يحصل حين يهجر الرجل زوجته. أي نوع من العائلات ينتج عن ذلك؟ تبقى المرأة من دون أي دعم وحدها مع الأطفال، وعندها تدق أبواب الكنيسة التي تقدم لها المساعدة، وتساعدها على الانخراط في مجتمع ما».

بالنسبة إلى موريسون لا شك في أن «العبودية لا تزال موجودة، بالرغم من أنها لم تعد ذات طابع رسمي وقانوني، لكنّ هناك أشخاصاً يعملون من دون مقابل ولا يمكنهم أن يقرّروا ترك العمل. الحضارات العظمى (أثينا، وروما، وروسيا...) اعتمدت دائماً على العبيد، مهما اختلفت تسميتهم. ما يهمني شخصياً هو كيفية استطاعة هذا الحبس أن يساعد شخصاً ما لينتبه إلى كثير من الأمور، بل حتى ليولّد شعوراً داخلياً بالكرامة الكبيرة، بل بالحرية، منذ اللحظة التي يقرر فيها هذا الشخص ألا يصبح وحشاً كسيده». فلورنس، الشخصية الرئيسة في كتابها الأخير، «عبدة لا تعرف الحقيقة عن وضعها لأن سادتها يعاملونها بشكل جيد جداً. إنها شابة جميلة... وتقع في الحب. وتتحول مع الوقت إلى مهووسة إلى حدّ أنه لم يَعُد ما تشعر به حباً». جاكوب «هولندي يتيم يأتي إلى أميركا بالسفينة؛ إنه نموذج عن أولئك الأشخاص الذين قدّمناهم على أساس أنهم من نهضوا بهذا البلد. هو شخص يحاول أن يعيش حياة ناجحة، لكنه يبغض العبودية والتجارة بالبشر، كما لو كان الشخص سلعة، فالأمر يبدو له شنيعاً».

حين أصبحت موريسون كاتبة، شعرت بأنها مُكلّفة بمهمة: «أن أعطي صوتاً لمن لم يحظوا به، لسود أميركا». وتجادل قائلة: «الجيل الأول لشعب مقموع يمثّل أناساً صامتين دوماً، يتطور في داخلهم وعي للقمع، لكنهم لا يتحدثون عنه. الجيل التالي يتكلم قليلاً، ويبدأ بالإعلان عن انزعاجه، فينكسر الصمت بالأغاني مثلاً. في حالة الأميركيين من أصول إفريقية، هناك الكثيرون ممن كتبوا عن تاريخهم، لكن هذه الحقيقة لم تظهر في الروايات. وقد أسرني هذا التحدّي، هذا الشعور بالقدرة على القيام به». ومع ذلك، فهي لا تكتب أبداً عن شخصية ذات طابع جماعي: «لا أحاول تعريف الأسود أخلاقياً، فليس هناك سود ذوو شكل معين. هناك سود طيبون، وآخرون سيئون، بعضهم كُسالى وبعضهم الآخر

عنصريّون، وغيرهم سعداء وآخرون متعبون... في الحقيقة، يحرّر النقاد مع مرور الوقت رواياتي بطريقة أخرى: إذ إنهم يكتشفون أن الموضوع العرقي ليس الوحيد فيها، وأنني أتحدث عن الحب، والمغفرة، والجنسية، والتغييرات في البنية العائلية، ومسائل أخلاقية وفلسفية». موضوعات عالمية وحيويّة بامتياز، كما فعلت في رواية **عيون زرقاء** (1970) حين طرحت موضوع الاعتزاز بالنفس عند الناس المختلفين عن الآخرين. «حين كتبت ذاك الكتاب، كانت هناك نساء كثيرات من أصول إفريقية يشعرنَ بنوع من الخجل، واعتقدن أنهنّ قبيحات بالرغم من أنهنّ الجمال بحدّ ذاته، لأن الجميلة المثالية في هذا البلد هي الشقراء ذات العينين الزرقاوين. فلقد كنّ ينظرن إلى المرآة ويشاهدن أنفسهنّ سوداوات، ومتسخات. اليوم، أرى الفتيات السوداوات أكثر اعتداداً بالنفس بكثير، وأكثر اكتمالاً كأشخاص، ويمشين بقوة وبثقة أكبر».

بعد عدة أيام، استقبلتنا موريسون في حرم برينستون الجامعي، حيث يستمتع طلابها - وعددهم قليل إذ «لا يتجاوز عددهم اثني عشر طالباً أبداً» - بالإبداع في محاضراتها. لم تعد موريسون تدرّس الكتابة المبدعة، وإنما «برنامجاً أوسع للإبداع يتضمن مشاركة الفنانين والموسيقيين ولاعبي الأكروبات والراقصين والرسامين... لا أحب اعتبار الجامعة مكاناً لتدوين الملاحظات، وأفضّل أن يتواصل الشباب مع عالم الإبداع المهني. دعهم يرون من هو الفنان بحقّ، ويتحدثون معه. من الرهيب أن تتمكن من الحصول على شهادة في الفنون من دون أن تحتكّ مباشرة بالمبدعين». يبدو طلاب موريسون مفتونين بهذه الفلسفة، وتبدو مدرستهم فخورة بهم، وترى فيهم «بعض التغييرات في المسألة العرقية؛ هؤلاء الشباب أكثر نضجاً من سابقيهم. الشباب في مدن مثل نيويورك لم يعودوا يهتمون بالعرق، وهو أمر جيد. ولكن، لا تزال هناك هوة كبيرة تفصل بين الناس بسبب لون بشرتهم. وتكفينا نظرة واحدة إلى الإحصائيات حول الفقر، والإجرام، والمستوى التعليمي».

أطلق على موريسون لقب **مؤلفة أوباما**، مع أنهما لم يتبادلا الحديث إلا مرتين خلال الحملة الانتخابية. وقد أبدت حماستها بخصوص رئيس الولايات المتحدة قائلةً: «بات انتخابه مثيراً، وأشار إلى بداية أمر جديد. إذ لم يصوت يوماً هذا الكمّ من السود في الانتخابات، فهم لم يشعروا يوماً بأنهم جزء من النظام.

بالإمكان استنشاق هذا السلوك الجديد في كل مكان، إنه حماسة تجتاح كل شيء. سيقوم أوباما بأمور لن تعجبنا. يزعجني كثيراً هذا التبجيل الذي يتشدّق به البعض حول شخصه، وهو أقرب إلى نظام فاشيّ منه إلى الديموقراطية. ولكن، في نهاية المطاف، إنّ مجرد فوزه عنى بالنسبة إلى الكثيرين اختفاء الخوف؛ إنه كالبدء من جديد». أدبياً، تقول عنه: «لو قرأنا مذكراته فسنكتشف أنه كاتب جيد، وهي موهبة لا يتحلى بها إلا قلة من السياسيين، لأنهم عادة لا يقرأون أدباً أبداً. أما هو، فبلى، لذلك تجده ممتعاً ومنظماً وحيوياً، يستعمل مجازات عميقة ويباشر الحوار...». وتعترف قائلة: «لقد تأخرتُ في دعمه بسبب إعجابي الكبير بهيلاري كلينتون. أي شخص يتمكن من التغلب على بوش بدا لي جيداً. درست بتمعن المرشحين الديموقراطيين. وفي النهاية دعمته، لكنني لم أعتمد على معايير عرقية ولا جنسية لأقرر، بل شجعته بسبب جهوزيته الكبيرة. لم يصوت الناس لأوباما لأنه أسود، بل بسبب ما اقترحه هذا الرجل».

- في الحقيقة، قلتِ مرة إن بيل كلينتون هو الرئيس الأسود الأول في التاريخ.

- فسّر الكثيرون جملتي هذه بشكل غير صحيح. قلتها حين صُلب كلينتون ليس بسبب عمله على رأس الأمة، بل بسبب فضيحة جنسية مزعومة مع إحدى حاملات المنح في البيت الأبيض. قلت إنهم عاملوه كأسود في الشارع، وإنهم اعتبروه مذنباً لسبب واه، وبطريقة غير معقولة. قالوا إنه سيئ لأنه قام بهذا، وأنا سألت نفسي: وماذا في الأمر ؟ أيجب أن يتحول وجود علاقة جنسية فموية في البيت الأبيض إلى موضوع نقاش قومي؟

- ألن يخيّب أوباما آمالك؟

- آمل أن يخيبها بالطبع. لأنه لن يتصل بي يوماً ليسألني: توني، أفكّر في القيام بهذه الترتيبات، ما رأيك؟ لا نعيش في عالم مثالي... عليه أن يحكُم، وهذا يعني أن عليه التعامل مع الكثير من الناس: مع أعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ. إذ لا يمكنه القيام بالأمور وحيداً، وأن يقول: حسناً، تأمين صحي للجميع. وانتهينا، بل عليه أن يتحرك، ويناور، ويتحدث مع الكثيرين ويفاوض لتحقّيق ذلك... هذا هو الحكم؛ عمل صعب ومعقد. باعتبار أنه لم يمض عليه في مقعد الحكم إلا بضعة أشهر، وأنه قد استطاعَ أن يحرك أموراً تحتاج عادة إلى عقد كامل لتتحرك، أعتقد أنه علينا رؤيته بشكل إيجابي.

- في كتبكِ، السود هم عمال وساقطات وسكّيرون، والآن لدينا رئيس. يا له من تغيير!

- ها ها، لن تطلب مني أن أجيب عن سؤال غير ملائم إطلاقاً كهذا، أليس كذلك؟ أنا أهتم بهذه الشخصيات الاعتيادية، كاللصوص والساقطات لأنهم لا يظهرون في كتب التاريخ، كما لو أنهم لم يُخلقوا يوماً، وأنا أعيد إليهم الحياة.

الحب والشهوانية من الموضوعات الأساسية كذلك في أعمالها. «كتبت رواية حب (2003) لأميز بين أنواع الحب المختلفة: حب الأصدقاء، وحبّ الله، وحبّ الأبناء، وحب رجل ما... أنواع الحب كثيرة، وعلينا أن نكون حاذقين، وأن نعطي الكثير كي يزدهر حبّنا، فالقرب الجسدي لا يكفي، أليس كذلك؟ وحدهم الأطفال يتمتعون بالحب الصافي، الصافي بحق. الكثيرون من شخصياتي أطفال، ولعل هذا هو السبب؛ إذ إنني أبحث فيهم عن هذه الطريقة الصافية في الحب. حاولت أيضاً من خلال الكثير من شخصياتي أن أجعل القارئ ينتبه إلى أنه لا يمكننا أبداً أن نسلّم أنفسنا كليّاً إلى أحد كما يفعل البعض، كأولئك النساء اللواتي يكرّسن حياتهن بأكملها لحبّ رجل واحد؛ رجل في الكثير من الأحيان لا يستحق ذلك».

تحاول موريسون رؤية الجانب الإيجابي من الأزمة الاقتصادية، فتقول: «لقد عشت خلال أزمة



القضية: بلى، نستطيع

لم تشجع موريسون أوباما منذ اليوم الأول، فقالت: «أكثر من جرّب إقناعي هو البروفيسور كورنيل ويست المختص بالأديان الإفريقية - الأميركية وزميل لي هنا. لعله في البداية أملَ بشخصية بين تشي غيفارا والفادي، لكنه في النهاية، اقتنع بأوباما الذي بدا أنه إنسان... لم أشجع يوماً أي مرشح سياسي، ولكنني بعد قراءة مذكراته، فكّرت في الأمر جدّياً، وقلت لنفسي: ابحثي عن المرشح الأذكى، رجلاً كان أو امرأة، أبيض أو أسود، صديقاً أو غريباً، ليخرجنا من الحفرة التي أوقعنا فيها بوش. بشكل عام، أعتقد أنه يقوم بعمله بشكل جيد. لسنا نحن الأميركيون وحدنا من يعتقد ذلك، فقد عاد قوياً من سفره إلى أوروبا، وحيّاه العالم بأكمله بودّ وارتياح. جلّ ما يقلقني هو أن الآمال عالية جداً، إلا أن الدرس الذي لقننا إياه الانتخابات الأخيرة هو أن التغيير يحدث حين يصوّت السود. لدينا من القوة أكثر مما نعتقد».

الثلاثينيات حياة بائسة بحقّ. كنا فقراء، ولا أتحدّث عن مجتمع السود فحسب، بل عن مهاجرين من الأنحاء كافة. بالنسبة إلى الوضع الحالي، فالأمر الرائع هو أن الرأسمالية الضارية قد انتهت. انتهى كل ذلك. يبدو الأمر معجزة، فلن يصفق أحد بعد الآن لأشخاص يكسبون آلاف ملايين الدولارات في الأسبوع. هؤلاء لن يعودوا نماذج تُحتذى، فقد انتهت هذه المبالغات، لأننا لا نستطيع احتمال المزيد، وهو أمر جيد. يمكن لهذا البلد أن يبدأ من جديد».

حين تفكر في أبويها، تتذكر أنهما «وقائيان جداً، ويختلف أحدهما عن الآخر كثيراً، لكنهما كليهما يتمتّعان بكرامة كبيرة. أشتاق إليهما كليهما، إلى تلك الثقة، والرغبة بالعمل الشاق التي أورثاني إياها، والاعتقاد بأنه بهذه الطريقة سيمسي مستقبلنا، ومستقبل أبنائنا أفضل. بعد الحرب العالمية الثانية، ازداد فقرهما، وحصلت بينهما النزاعات التقليدية في بيت يخلو من النقود. كان التمييز العنصري عندئذ قوياً جداً، ولأبي أفكاره المسبقة: لم يثق يوماً بأيّ شخص أبيض، وما كان ليسمح لأحدهم بأن يدخل بيتنا، بالطبع. أما أمي فهي مختلفة جداً، وتحكم على الأشخاص كلّ على حدة، وليس بسبب العرق».

- كيف غيّرتك جائزة نوبل؟

- التغيير الأول جاء في أمور سطحية كالمال. أفضل ما في الموضوع أنني وجدت اهتماماً أكبر بكثير بأعمالي وبي. لكن حياتي اليومية لم تتغير، ولا حياتي ككاتبة، فلا جائزة النوبل، أو أي شيء مما أعطتني إياه، يجعلني كاتبة أفضل أو شخصاً أحسن.

- من هي كلوي ووفورد؟

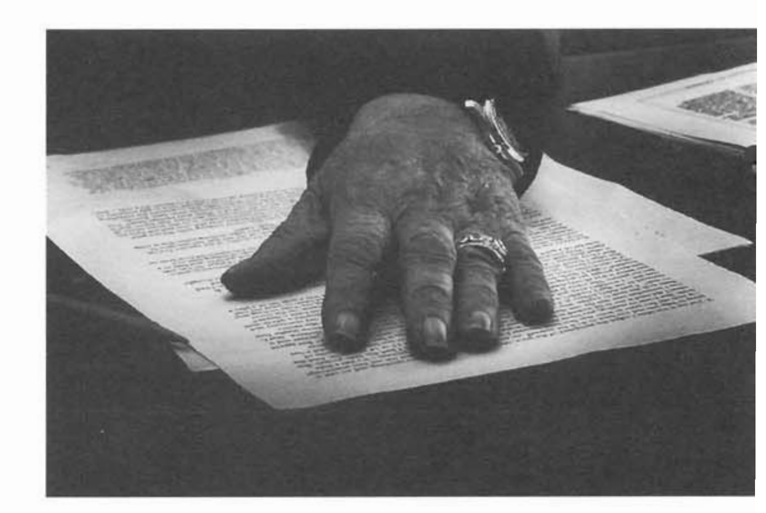
- إنها أنا، وهو الاسم الذي يظهر في ملفاتي، والذي تدعوني به عائلتي والأشخاص المقرّبون منّي.

- إذاً، من هي توني موريسون؟

- معظم الناس يعرفونني بهذا الاسم، لكنّ الذين يعرفونني جيداً يدعونني كلوي. أما توني موريسون فهو، ببساطة، بمثابة لقب، وهو يخدمني لأفصل بين شخصية الكاتبة التي فازت بنوبل، والإنسانة الحقيقية؛ وهي المهمة».







في أس نايبول



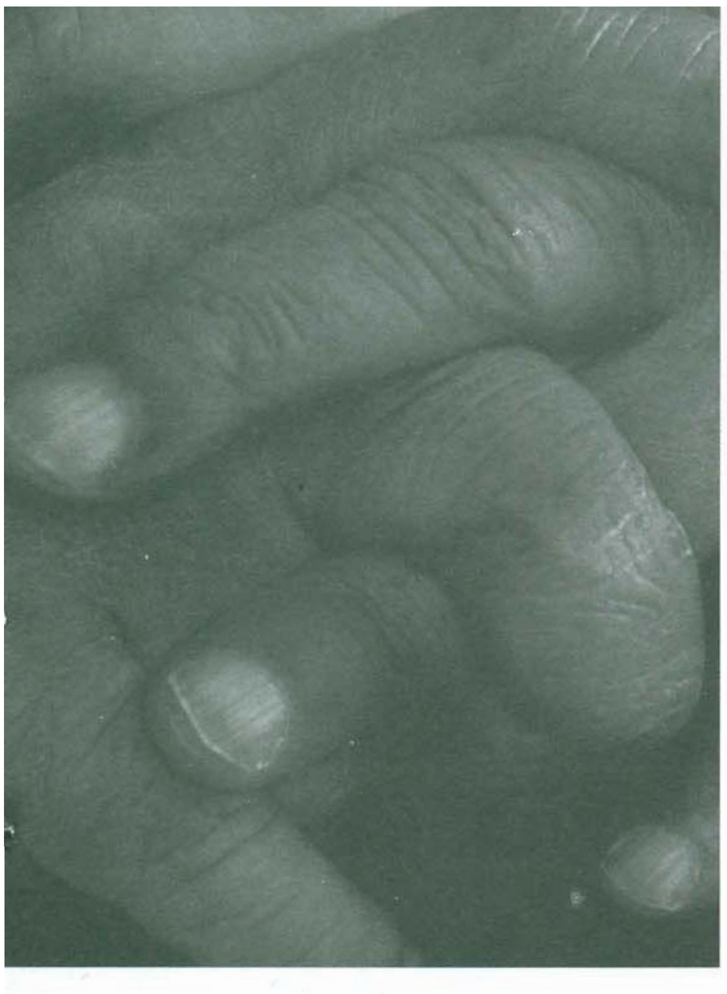
«اليوم بشكل خاص علينا معشر الكتّاب جميعاً أن نحيط بالعالم أجمع».

في أس نايبول، الحائز على نوبل في العام 2001، من أصحاب الأصوات اللاذعة، والمزعجة في كثير من الأحيان، حين يرمي بآرائه. كما أنّ انفصاله عن جذوره ورحلاته الحذرة منحته رؤية صافية وساخرة وعالمية يريد أن يحيط بها بالعالم أجمع.

تمطر السماء رذاذاً لطيفاً على سوق النباتات العشبية التي تغطي تلال الريف البريطاني وسهوله وهضابه من دون أن تترك فراغات. إننا قريبون من تمثال ستونهينج الميغاليتي، وبين الفينة والأخرى تزيد الشمس من تألق خضرة الصباح الذي نتجه فيه إلى منزل في أس نايبول الواقع في إحدى النقاط الأكثر توغلاً في ويلتشاير. إنه من العمق بحيث إن الهاتف النقال يمسي بعد أحد المنعطفات خارج نطاق التغطية التي لن تعود حتى نهاية لقائنا مع هذا الكاتب الشهير بانطوائه والذي - على الأقل حتى اكتشاف ماضي غونتر غراس في الأس أس - يعدّ أقل الحائزين على جائزة نوبل للآداب لباقةً سياسياً.

إلا أن نايبول المبتسم الذي استقبلنا في بهو منزله، حيث كانت عكازتاه تستندان إلى طرف الكنبة التي يشغلها، لا يشبه الشخصية الكاريكاتورية التي رسمها لها أعداؤه. وبالرغم من اللحن الحزين لكلامه، كان يبدو طوال الوقت محترماً للغير ومهتماً بأدق التفاصيل أيضاً، ابتداءً من ميزات مسجلتنا الرقمية وحتى الحركات القومية في إسبانيا. حتى إنه يُظهر في أكثر من مناسبة بعضاً من خيبة الأمل لأننا نكتفي بسؤاله عن رأيه بدلاً من مجادلته حوله. إنّ عذوبة صوته المشوب بالحزن وأساليبه المهذبة تقلل من عدائية تعابير مثل بلاد النفايات التي تكتسب بتدوينها قوّة لا يذكر الصحفيّ أنها قد امتلكتها في أثناء الحوار. السير فيديادهار سوراجبراساد نايبول - وهو الاسم الكامل لشخص يوقّع دائماً بالأحرف الأولى من اسمه - وُلد في جزيرة ترينيداد الكاريبيّة في العام 1932 في كنف عائلة من المهاجرين الهنود. في عمر الثامنة عشرة حصل على منحة، وانتقل إلى أوكسفورد ليدرس في الجامعة.

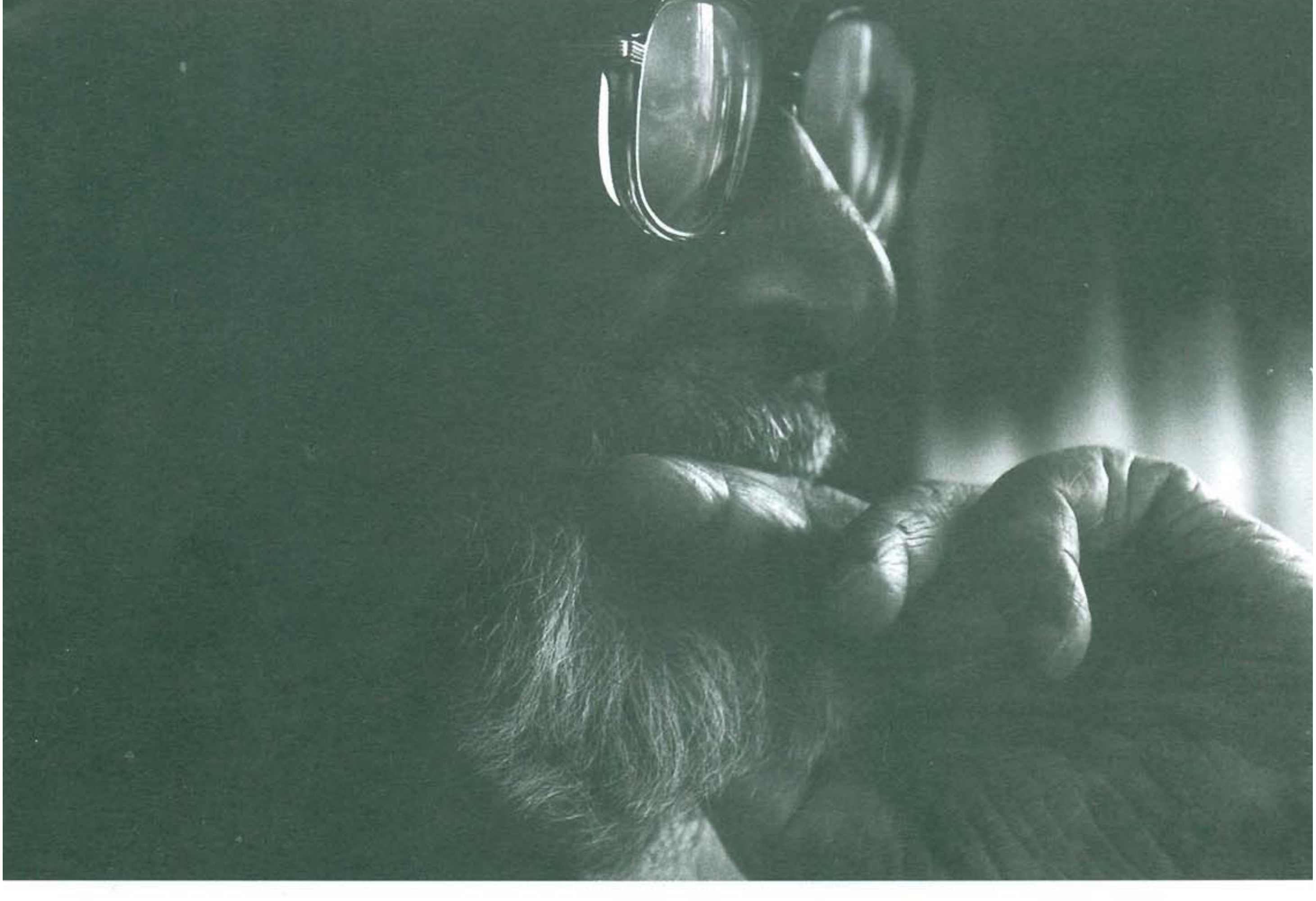
قال لنا: «كان ذاك خطأً كبيراً، ومضيعة كبيرة للوقت». **رسائل بين أب وابنه** تعرض لمشكلات الاندماج الكبيرة التي عاناها في المجتمع الإنكليزي النخبوي في الخمسينيات، وغيرها من المشكلات، إضافة إلى التعقيدات الجسدية التي يعاني منها، ومشكلات علاقته بالنساء. فيكتب مثلاً، بعد ملء



أوراق التسجيل في الجامعة: «التقطتُ عدة صور لنفسي. بالرغم من عدم جاذبيتي إلا أنني لست بشعاً. أبعدتني هذه الصور عن الخطأ الذي وقعت فيه. إذ لم أكن أعرف أن وجهي منتفخ إلى هذا الحدّ (...) نظرتُ إلى الآسيوي في تلك الصور، وأدركتُ أن أي هنديّ من الهند لن يبدو هندياً أكثر مني (...) أملتُ أن أتخذ أمام شخصيات الجامعة وضعيّة لا تصدق لمثقّف، ولكن لاحظا ما وصل إليهم».

- هل وجدت صعوبة في استحضار علاقتك بأبيك وسنوات الدراسة تلك التي عانيت فيها إلى حدّ إصابتك بانهيارات عصبية عدة ومحاولتك الانتحار؟

- عمل أبي صحفياً في جريدة ترينيداد غارديان، وشجعني لأصبح كاتباً. مات صغيراً جداً، في عمر السابعة والأربعين، لكنني أفضل ألا أتحدث عن ذلك. أعطيتُ موافقتي لنشر الكتاب، لكنني لم أشارك في شيء، إذ أعطيتُ وكيلي صندوقاً من الرسائل وهو من اختار النصوص. لم أرَ النسخة الإنكليزية



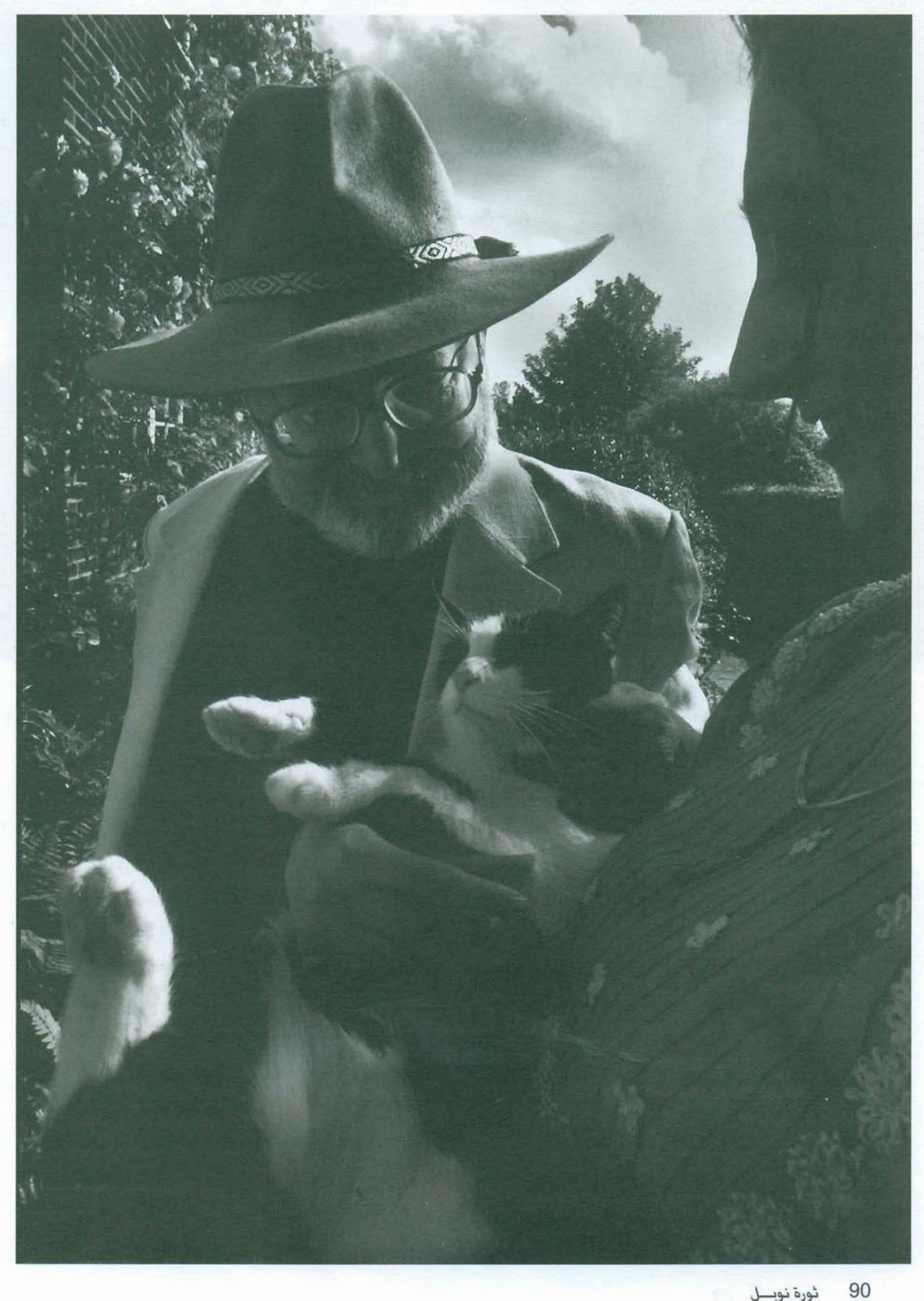
في العام 1999، ولن أرى أي نسخة أخرى. سيكون الأمر مؤلماً جداً، فلم أرغب حتى برؤية النصوص النقدية... ومع ذلك ليست سنواتي في أوكسفورد هي الأسوأ في حياتي، فطفولتي في ترينيداد كانت أسوأ، كانت رهيبة. عشتُ في كنف عائلة كبيرة جداً، في جوّ من البؤس، وفي مجتمع منغلق جداً... أردتُ أن أكبر وأتحمل مسؤولية حياتي؛ لم أحب أن أكون طفلاً. منذ مدة قصيرة عدتُ إلى ترينيداد، للمرة الأولى منذ أربع عشرة سنة، لأرى أختي المريضة، ولكن في ذاك المكان لم يعد هناك ما يعنيني.

- أيحب مواطنو ترينيداد كتبك؟

- لا أعرف. أعتقد أن الأفارقة هناك لا يحبونها. ولكنها مشكلتهم، أليس كذلك؟

بعد السفر حول نصف العالم (حيث استقرّ في بلدان عدة في إفريقيا وآسيا وأميركا ليدرس المجتمعات التي احتضنته، والتي ألف العديد من الكتب حولها) انتقل في العام 1970 إلى المنطقة الهادئة التي يقطن فيها الآن، «مع أنني لم أعش في هذا المنزل إلا منذ أربع وعشرين سنة». في لحظة معينة ينادي نايبول زوجته: «نااا - دِ - رةةةة!»... فتدخل نادرة ألفي - المعروفة إعلامياً باسم **ليدي نايبول** - إلى البهو وهي تنظف يديها بخرقة من المطبخ، ويطلب منها الكاتب الجلوس قائلاً: «اجلسي معنا يا حبيبتي». إنّ هذه الصحفية الباكستانية من عائلة «إسلامية تقدمية»، وهي دوامة من النشاط. كما أنها تعرف كيف توجّه دوافع زوجها، كما لو أن الوجود الأنثوي يمنع نشوء أي هيجان.

ومع أن المقابلة تتم بالإنكليزية، إلاّ أنّ نايبول يعرف الإسبانية. حتى إنه كان يستعملها سرًّا حين لا نراه ليعطي تعليماتٍ للمصور، ويعترف قائلاً: «قبل سنوات كثيرة ترجمت قصة **لاثاريو دي تورمس** لأجلي، بقصد المتعة، بالرغم من أنها لن تُنشَر أبداً... لأنها ضاعت. حين انتقلتُ من منزلي في العام 1968 أتلفت ملفاتي. هذه إنكلترا، والناس هنا



يقومـون بأعمـال ليسـوا مؤهّلين لهـا، إذ دخل منزلي عامل مجنون وأخذ يتلف الأوراق. كان واضحاً أنها كتب وليست فواتير قديمة، ولكن...».

يشـرح لنـا أن الوضـع يشـبه أعمالـه الأولـى عـن إفريقيـا فـي السـتينيات، حين أمطـروه بوابل من الانتقـادات والاتهامـات بالعنصرية: «إذا قرأوا كتاباتي مـن جديـد فسـيلاحظون أن مـا وصفتـه وتوقعتـه قد حـدث. خرجـت إفريقيـا مـن التطور العالمـي، وهي منطقـة مظلمـة. سـافرتُ أيضـاً فـي الهنـد، فوجدتها مختلفـة عـن إفريقيا. حالياً الهند بلد يمكنه أن يخرج مـن مشـاكله بمفـرده، بينمـا تعتمـد إفريقيـا كلياً على المساعدات الخارجية».

«طريقة نايبول» في السفر هي إهمال أي نظرية مسبقة: «حتى إنني لا أقرأ أي كتاب عن المكان الذي سأسافر إليه، وأحب أن يكون البلد هو الذي يترك أثراً في نفسـي. حين أعود أقرأ عنه كثيراً، وبعد كل هذه العملية أفكر. لا أسافر إلى أي مكان وأنا أحمل فكرة ما، لأن نتائجي ستكون غير صحيحة...».

كل هـذه العمليـة – علمـاً أن الآلام الحاليـة فـي قدميـه وظهره تمنعـه من القيام بخطـوات كبيرة – يطبقهـا علـى إنكلترا: «لا ينفك احتمال أن تكون النتائـج جيـدة يـزداد صعوبـة في هـذا البلـد. النظام الصحـي لا يسـير علـى مـا يـرام، وإليكـم حالتـي كمثال: أصبت بمرض شـديد، ودخلت المستشـفى. لـم يعرفـوا مـا الـذي أصابني، فراجعـوا الكتالوغات والاختصاصيين من دون أن يجدوا شيئاً، بينما كانت حالتي تزداد سوءاً. خشيت على حياتي. وفي النهاية، قررنا الذهاب إلى مستشفى في الهند، حيث شخصوا لي مباشرة إصابتي بفيروس وعالجوني. أدين بحياتي للأطبـاء الهنـود. مـن المذهل كيـف انعكس الوضع خـلال سـنوات معدودة. ففي السـابق، اعتـاد الهنود على المجيء إلى هنا للعلاج... الصحة في بريطانيا هـراء، فهـم جيـدون جداً في الأبحـاث الطبية، لكن علاج المرضى أمر مروّع».

غيرت العوائق الجسدية من طريقة عمله، فقال: «حيـن كنت شـاباً كنت أعمل بكـدّ؛ أنهض باكراً قدر مـا يمكن، وأباشـر الكتابة بما يشـبه الهـوس، إلى أن أعاني الإرهاق. أما الآن فقد اختلفت الطاقة. فأنا الآن أمضي الصباح نائماً وأتمطّط. أسمع الأخبار، وأعتني بقطي أغسطس، ثم تحين ساعة الطعام. وبعدها، أفكر قليلاً في ما عليّ فعله، وفي النهاية لا أبدأ الكتابة حتى وقـت متأخـر من اليـوم، فأكتب نصاً أو نصين». وهنا تتدخـل زوجتـه نادرة في الحوار قائلةً: «لا يزال قادراً على النهوض عند الثالثة من بعد منتصف الليل ليغير كلمـة واحـدة أزعجتـه... لا يقـول لي أبـداً ما هي».

إن لـدى نايبـول فكرة واضحة عن الحركات القومية، بسبب الجو الخانق في جزيرة مولده: «إنهم بائسون. ليـس علينا تحفيزهـم، لأن إثارة الناس وفقاً لمكانهم الجغرافي ليست ملائمة».

يعتبـر نفسـه متجـولاً، من دون أصـول: يزعجه فقـر ثقافـة ترينيـداد، ويشـعر بأنـه أجنبـيّ فـي الهنـد ولا يمكنـه التعاطـف مـع القيـم التقليديـة لإنكلتـرا الاستعمارية. بالنسبة إليه، «في مجتمع واسع وفسيح، هناك احتمالات كثيرة للتغيير الفردي والجماعي. أما فـي المجتمـع الصغيـر المحدود، فمـن الصعب جداً تغييـر شـيء. أعرف أن هـذا لن يعجب القوميين، مع أنهـم قـد لا يفكرون جميعاً بالطريقة نفسـها. الأهمية تصبـح أفضـل بازدياد اتسـاعها». هويـة كاريبية مثلاً؟ نسـأله ذلـك، ونذكـره بـأن غارثيا ماركيـث أعلن عن وجـود كتّـاب كاريبييـن، بغـض النظر عـن اللغة التي يستخدمونها.

يجيب مبتسـماً: «آه، أجـل. أهداني غابو كتاباً قبـل ثلاثـة عشـر عامـاً وكتـب: إلى كاتـب جنوب أميركي كبير... كان لطفاً منه اعتباري كذلك. لكن فكـرة قيـام النـاس في الكاريبي بأمـور غريبة باللغة تفكيـر محـدود جداً. هناك كاتـب أو كاتبان كبيران فـي الكاريبـي، لا أكثـر. إذا كان أصلـك يعـود إلى مكان صغير كترينيداد، فالمغامرة الإنسانية محدودة بالضـرورة. والحـق أنـك لـو أردت عالمـاً أغنـى، فعليـك أن تغـادر ذاك المكان بالإكـراه. كمـا أنني لا أحـب الكتّـاب الإنكليـز على نطـاق محلّي مثل توماس هاردي. فأنا في الحقيقة لا أتحمله، وأعتقد





القضية: حقوق الحيوان

يوضح نايبول قائلاً: «إنّ حقيقتي موجودة في كتبي». الكثير من أعماله يعكس التزاماً سياسياً كبيراً ضد التشدد، على عكس الانطباع الذي أخذه البعض عنه، وهو ما أدّى إلى تهديده. ومع ذلك، «لا أحد يفكر فيّ حين يتحدثون عن الكتّاب الملتزمين. فمنذ الخمسينيات والستينيات، ارتبط مفهوم الالتزام في ثقافتنا بمفهوم أن يكون المرء شيوعياً».

ولكن لو توجب عليه أن يختار قضية يلتزم بها بشكل مباشر، فهي قضية الدفاع عن حقوق الحيوان في العالم. يموّل نايبول أماكن إقامة للحيوانات في بلاد كالهند والباكستان، وقد قرر تخصيص جزء من إرثه لحمايتها. وللسبب نفسه يرفض زيارة الصين «لأن التعامل مع الحيوانات في هذا البلد رهيب، وهو أسوأ مكان في العالم لتعيش فيه إذا لم تكن من جنس البشر».

كذلك يُقلق نايبول «استمرار مصارعة الثيران في إسبانيا. فهذا تعذيب تحوّل إلى عرض». إنها مفارقة تفاجئه خاصة «في الوقت الذي مُنع فيه حتى صيد الثعالب هنا، في إنكلترا».

أنه اليوم بشكل خاص علينا معشر الكتّاب جميعاً أن نحيط بالعالم أجمع».

تلمع عينا نايبول حين يتحدث عن الأدب. أمضى أعواماً عدة كناقد للكتب - «مللتُ إلى حدّ قررتُ معه ألا أعود لقراءة أعمال أي كاتب معاصر» - ويعترف أنه في الوقت الحالي يقرأ «للقليل جداً من المؤلفين الإسبان. في أحد الأوقات قرأت جيل الثمانية والتسعين وغيرهم. ولكنهم في النهاية لم يجذبوا اهتمامي. وهم برأيي كتاب سيئون: بالاثيو فالديس، بيو باروخا، غالدوس... ما أسوأهم! وبالعكس، فإن النتاج الإسباني في القرن السادس عشر وروايات الصعاليك أثّرت فيّ كثيراً. ثيربانتس رائع ومتألق». بعض الأسماء الإنكليزية الكبيرة لا تستحق منه تعليقات أفضل. فبالنسبة إليه، جين أوستن «لا يمكنها أن تجذب إلا أولئك المهتمين بمبادئ ذاك العصر». وهنري جيمس هو «أسوأ كاتب في العالم، إذ لم يخاطر يوماً بشيء، ولم يعبّر عن نفسه بصراحة، بل نظر إلى العالم بفوقية وبتكشيرة جنتلمان. بينما لم يعِ هيمينغواي العالم الذي عاش فيه هو الآخر، حيثُ كان في باريس بين الحربين العالميتين، لكننا، قرّاءه، لا نستطيع أن نعرف إلا العصائر التي كان يشربها».



يضحك الكاتب على اقتراح توني بلير الخاص بإخضاع المهاجرين لامتحان ثقافي: «إنها فكرة سخيفة، ومحاولة للتخلص من حماقة ما للمباشرة بأخرى. حين يختار أحدهم بلداً ما ليهاجر إليه، فإنه يحاول الانخراط فيه، وفي قوانينه، ونظام أمنه، وشبكة فرصه الاقتصادية... أي إنه يحاول التماهي معه بشكل ما. ليس من المنطق أن تقول: أريد كل هذا، لكنني سأعيش على طريقتي. على البلد أن يُصرِّح: هذه قوانيننا، وهي تسري على الجميع، فإن أعجبتك، فهلُمَّ إلينا. ولكن ما هذا الذي يقولونه عن الامتحان؟ يمكن للمرء أن يكون مختلفاً طبعاً، فيحافظ على عادات طعامه أو موسيقاه أو دينه أو تقاليده الثقافية...»

ينتبه في أس نايبول، كاتب الروايات، إلى الفوارق الدقيقة التي تعكس التنوع في المجتمعات التي يزورها. حين تقرأ كتبه تجد رجلاً حساساً تتناقض شخصيته مع الشخصية اليمينية الخرقاء التي تسمه بها بعض النصوص الصحفية، لذلك سألناه بشكل مباشر: «أتعتبر نفسك محافظاً؟».

هنا تقفز امرأته من مقعدها: «لا! ليس فيديا محافظاً، بل هو عقلانيّ! لذلك يتوقع أن بعض الأمور ستسبب انفجاراً». يتابع زوجها: «أمسى التعبير عن رأيك، من دون أن تقع في هذا التقسيم للعالم في فئات مبسطة، أصعب من أي وقت مضى. من السهل جداً أن تصنّف أحدهم كي لا تتمعن في ما يقوله». تحين ساعة الشاي، وبعد تذوق فطيرة أعدتها ليدي نايبول يعتمر الكاتب إحدى قبعاته – المعلقة عند المدخل، الواحدة تلو الأخرى، كما لو أنها لوحات – ليرينا المزرعة في الخارج؛ كان هناك جدول يعبر المزرعة، فيما تسكنها أشجار الكرز والتفاح والدردار والزان... يصعب على الكاتب المشي، فيستعين بعكّازة. ليس من الصعب أن ترى في هذا المنظر الطبيعي مشاهد من كتب مثل **أحجية الوصول**. يعلق وهو يركز نظره في الأفق: «هذا هو بلدي، هذا وحسب».

في الممشى الخارجي للمنزل، رافقتنا ابنته المتبنّاة ذات الثمانية والعشرين عاماً. إنها الابنة البيولوجية لنادرة، ولقد تبناها رسمياً في العام 2000، أي قبل حصوله على جائزة نوبل بقليل. تعمل الفتاة مصممة للأزياء، وتصطحب أباها إلى عروض في أنحاء العالم كافة، وتقول: «إنه يعشق هذه العروض، ويسألني ما الفرق بين غوتشي وفالنتينو؟ ما هي برادا؟ والأمر يفتنه بالكامل».

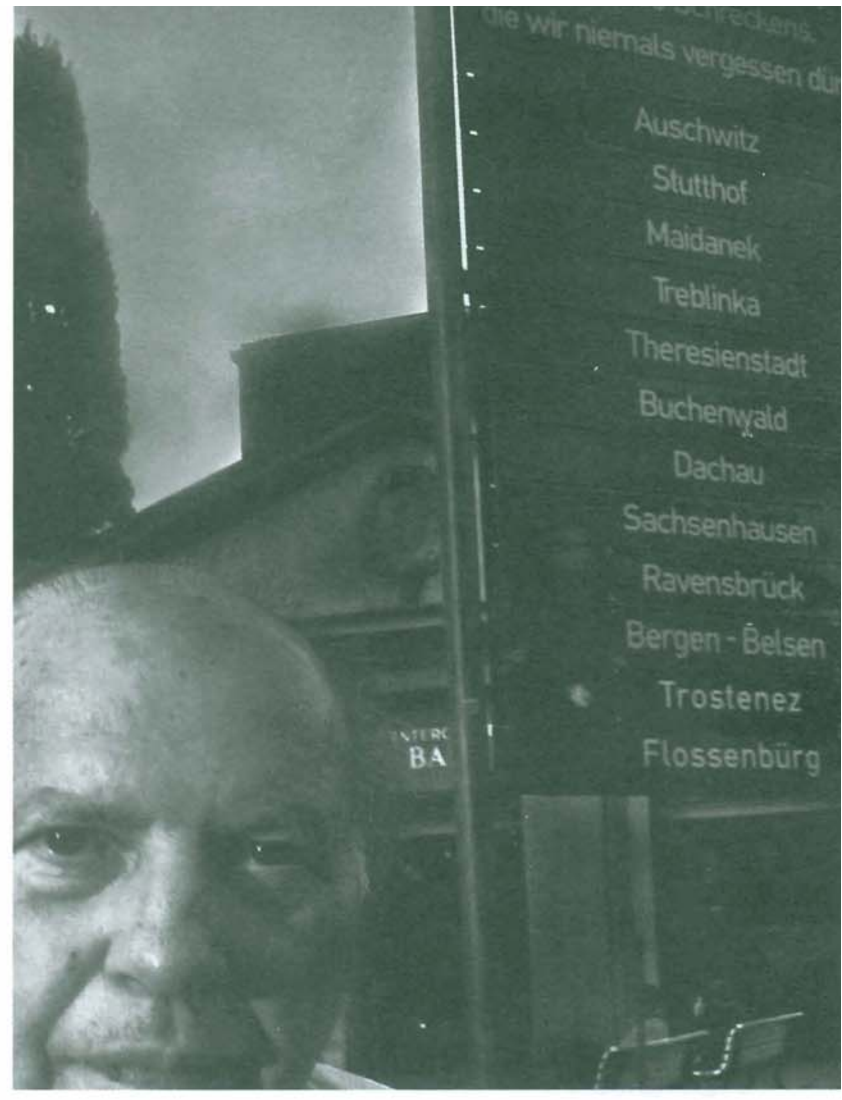
إيمرة كيرتيس



«بعد المعاناة لا يعود من السهل النظر إلى المرآة، والاعتقاد أنك تستحق الحياة واتخاذ دور جديد».

إيمرة كيرتيس هو الذاكرة الحية للذعر الذي عاشه العالم في القرن العشرين: فالبربرية النازية والديكتاتورية السوفياتية تمثّلان بالنسبة إلى الكاتب الهنغاري الاستبدادية نفسها. كما تمثل أعماله التي حازت على جائزة نوبل في العام 2002 جهداً لتحويل هذه التجربة إلى طاقة إيجابية، وللتغلب على عقدة الذنب الناشئة عن النجاة من معسكرات الاعتقال، حيث لقي الكثيرون من الأبرياء حتفهم.



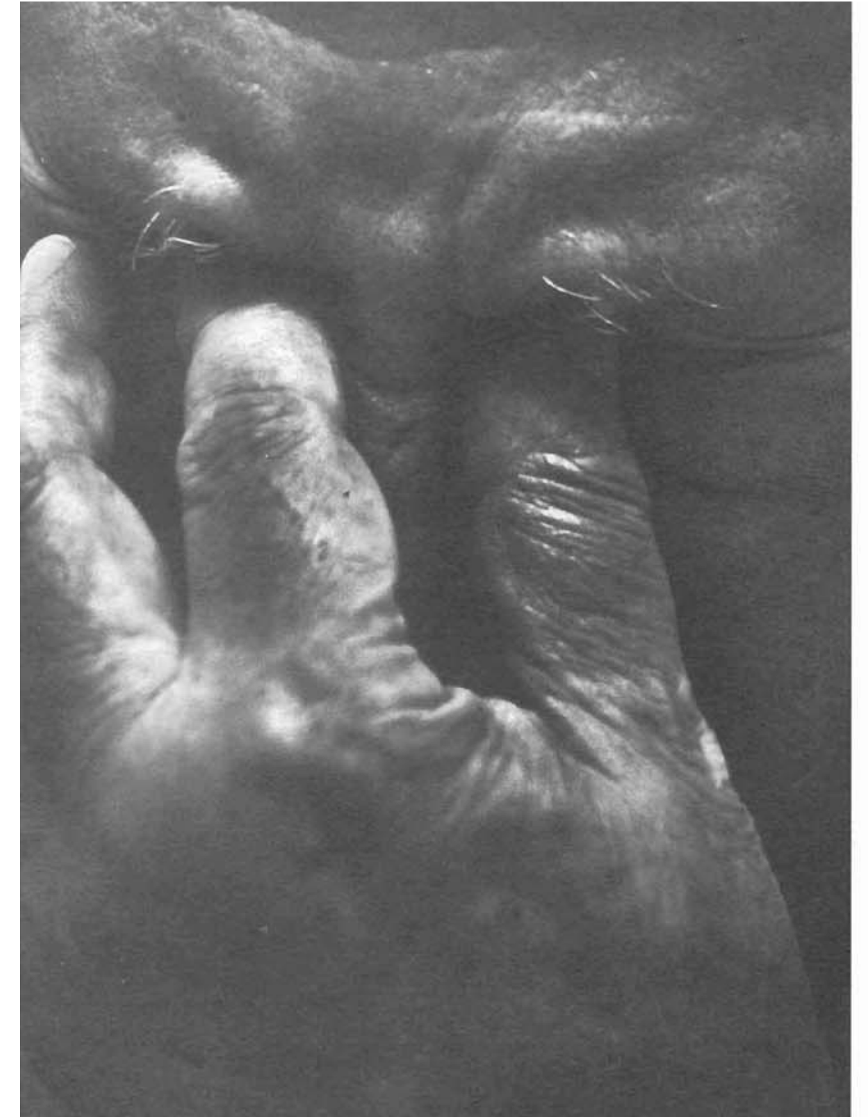


نحن جالسون في ساحة صغيرة في حي شارلوتنبيرغ في برلين، في ظلّ أشجار مورقة، وأمامنا صغار يتجولون على دراجات ذات ثلاث عجلات، وجدات يستمتعن بالنسيم العليل، وأزواج من جيل الشباب ممسكون بأيدي بعضهم بعضاً. وأمام دار عبادة حديثة من الآجر الأحمر، يضحك إيمرة كيرتيس من قلبه في أحد مقاهيه المفضلة وهو يحتسي شراباً منعشاً. تلمع الشمس، وتعبق رائحة زهور من محلّ صغير. هذه هي برلين، عاصمة الرايخ الثالث سابقاً، وهي اليوم العاصمة الأوروبية للمساحات الخضراء بأشجار يزيد عددها على أربعمئة ألف شجرة منتشرة في شوارعها. كثيراً ما تتجه عينا كيرتيس الخضراوان إلى بحيرة عيني زوجته ماجدة الزرقاوين؛ احتفلا لتوهما بذكرى زواجهما الحادية عشرة، وهما يمازحان بعضهما كثيراً، فيقول لنا الحائز على نوبل لعام 2002: «ألم تشبعا بعد يا صديقيّ؟ حسناً إذاً، لأستجمع طاقتي سأتناول بيتزا بالسجق لو سمحتما، وسأشرب كأساً!».

كيرتيس الذي يرافقنا اليوم في جولة في برلينه المفضلة ليس له أي علاقة تقريباً بالشاب ذي الأربعة عشر عاماً، الذي أجبر - حين كان في طريقه إلى المصنع ليَعمل في أحدٌ أيام عام 1944 في بودابست - أجبروه على النزول من الحافلة ليُأخَذ إلى أحد معسكرات الاعتقال التي تعتبر محطات في مأساته. منحوه رقماً (64921)، وألبسوه زياً مخططاً، وحلقوا شعره كلياً، كما حلقوا شعر إبطيه وأعضائه التناسلية. تعلم كيرتيس الشاب أن يستمتع لوقت قصير بأشعة الشمس أو بحرارة الحساء، فيما احتُقرت روحه أمام المواقد المهينة حيث أخذوا يحرقون زملاءه. «صدرت عنهم رائحة لن أستطيع نسيانها يوماً».

قد يبدو الأمر غريباً، لكن كيرتيس وزوجته يعيشان في برلين. فهما يملكان منزلاً في بودابست، لكنهما يعيشان في العاصمة الألمانية منذ ستة أعوام، في شقة صغيرة مستأجَرة، قريبة نسبياً من مكان لقائنا. اتفقنا مبدئياً على اللقاء في مقهى فندق كيمبينسكي الذي يتمتّع بجوّ المقاهي القديمة، «وهو كمنزلي الثاني».

أما مفارقة كيرتيس الكبرى - وهو الرجل الذي أخفى أكثر من أي شخص آخر ماهية معسكرات الاعتقال - فهي أنه لم يكن يدري أنه يهودي، فقال: «لم أرَ نفسي يوماً كيهودي... إلى أن خاطوا لي نجمة على ملابسي واقتادوني إلى المعسكرات. انتمى أبواي إلى طبقة وسطى منخرطة جداً في المجتمع، فلم يتحدثا إلا الهنغارية، ولم يبديا اهتمامات دينية. قررت السلطات أننا يهود... وهي هوية لم أكتسبها بالفطرة، وإنما بعيشي في المعتقل».



نشر كيرتيس كتباً عديدة في إسبانيا. كروايته القصيرة **قصة بوليسية**، التي تجري أحداثها في جمهورية متخلفة تشبه كثيراً هنغاريا الشيوعية وإسبانيا فرانكو. كما نشر مجموعة مقالات مثل **اللغة المنفية**، و**الإضبارة كي** التي يعتبرها كيرتيس «سيرة ذاتية فيها كثير من روح الدعابة».

خرج كيرتيس من معسكر الاعتقال في العام 1945، وقرر أن يصبح كاتباً في العام 1955. استغرقت منه **بلا قدر** عشر سنوات، وهي تدور حول تجربته في الاعتقال. وبعد ذلك، استغرق منه الأمر عدة سنوات أخرى لنشرها. وهكذا، أمسى عمره 46 سنة حين نُشرت أولى رواياته. قال: «احتجتُ إلى بعض الوقت لأهضم التجربة. أجل، وإلى وقت آخر لأقرر ما أريد كتابته. فالموضوع لم يكن جذاباً، ولقد احتفظتُ بكثير من الأسرار».

نرى ابتسامة كيرتيس مرسومة دائماً على شفتيه بالرغم مما عاشه. قبل أن يتوقف لشراء الفاكهة في سوق شعبية تعرض منتجاتها على الرصيف، يعترف قائلاً: «إنّ جائزة نوبل جعلتني أعيش الكثير من التجارب الجميلة، وأخرى سيئة حقاً. أنا آت من بلد صغير جداً، ملؤه الغيرة، فتعرضت لحوادث ذات طابع ديني جعلتني أعاني كثيراً». - كحرق كتبه في الشارع - «تعرضت هنغاريا لإهانات لم تتعافَ منها: بعد الحرب العالمية الأولى، فقدنا ثلثي أرضنا. هنغاريا بلد يزداد انفتاحاً يوماً بعد يوم، ويشكل جزءاً من الاتحاد الأوروبي. ومع ذلك، فإنني أكتب لأوروبا أكثر مما أكتب لبلدي».

يتجنّب كيرتيس الأماكن السياحية في نزهتنا الطويلة في شوارع برلين. يعرّف عن كتابه **الإضبارة كي** قائلاً: «إنه عبارة عن سيرة ذاتية، أتكلم فيها عن والديّ، وقصص عشقي، ودراستي، وعملي كاتباً... أطرح موضوعات فشلي وصراعاتي الداخلية. لا تقتصر حياتي على الصعود في قطار إلى معسكر تعذيب والنزول في محطة نوبل، فقد اضطررتُ إلى مناقشة موضوع ليس سهلاً أبداً: الشعور العظيم بالذنب. من الصعب جداً تجاوز الشعور بالندم الذي اعتراني لأنني نجوت بحياتي فيما أعلم أن الكثير من الناس قد ماتوا. أشعر بالخجل لنجاتي، فقد غمروني بالمنطق وبطريقة تفكير صممها الآخرون لتدميري. كان المنطقيّ أن أموت، وهو ما شرّعته الأنظمة القانونية والعاطفية والإيديولوجية. أما البقاء حياً، فهو يناقض كل ما تبنّيته شخصياً على أنه قدري. لذلك ينتحر بعض من نجوا في نهاية المطاف، لأن هناك أمراً في داخلهم يشعرهم بأن عليهم القيام بذلك. بعد المعاناة، لا يعود النظر إلى نفسك في المرآة سهلاً، أو أن تعتقد أنك جدير بالحياة، وأن تتخذ دوراً



جديداً. حصل هذا مع كثير من الكتّاب والمفكّرين والنّاس المجهولين: عاشوا لسنواتٍ وقد حُكم عليهم بالإعدام، ثم تبنّوا الحكم على أنه حكمهم الشخصي، ولذلك نفّذوه في نهاية المطاف بأنفسهم. أنا أيضاً ربما كنت سأقوم بذلك لو لم يتوجّب عليّ كتابة رواية، وهو ما شغل بالي كليّاً وأمّن لي مساحة استطعتُ أن أكون فيها حراً، لأنني بانتقالي من نظام استبدادي إلى آخر مماثل؛ الشيوعية، تابعتُ العيش في حياة خارجية موسومة بالعبودية. **الإضبارة كي** عبارة عن حوار يتناول كل هذه الأشياء بين ثلاثة كيرتيس مختلفين: واحد يجيب، وآخرَ يطرح عليه أسئلة عن حياته، وثالث يراقبهما كما لو أنهما يلعبان كرة الطاولة. وهذا الثالث يمسك من الخارج بالكرة ويرميها على الطاولة».

إلى جانب الكنيسة التذكارية، وفي كايزر - فيلهيلم - غيداشتنيسكيرشه، وهو معبد أصابه قصف الحلفاء في النزاع الأوروبي، يتذكر كيرتيس أنهم «قصفوا كل شيء، ولم يتركوا إلا برجاً لم يرمّم، ليذكّرنا حاله بسخافة الحرب». وإلى جانبه يوجد بناء في قمة الحداثة تشغله الأبرشية الحالية. تبدو الكنيسة محاصرة بالرأسمالية الألمانية: يظهر شعاران ضخمان، واحد **لميرسيدس وآخر لباير، يلتفان حولها** من فوق ناطحتي السحاب المحيطتين بها. وكانت الإضاءة الليلية تضفي على المكان ظلاً أزرق رقيقاً.

أوضح كيرتيس في كتاب **بلا قدر** أنه كان سعيداً أيضاً في المعتقل. ويشدد قائلاً: «يجب عدم تجريد كلمة واحدة من رواية أو حجر واحد من كنيسة، بل تأمل بناء الكنيسة كله. في كتابي يقترب القارئ شيئاً فشيئاً من هذه الكلمة. سعادة، عن طريق العديد الأحداث الدرامية، وحين يلتقيها فجأة، **يتولّد انفجار** أكثر فعالية بكثير من وصف المعاناة بالتفصيل. هناك أوضاع حياتية لا يمكنها أن تزداد سوءاً، ولذلك فإن أي حافز **إيجابي** في تلك اللحظات، **في** الاستراحات بين جلسات التعذيب، **يجعل** المرء يعيش مع شعور



هائل بالسلام والارتياح».

عدنا سيراً على أقدامنا إلى شارلوتنبيرغ حتى وصلنا إلى بيت الأدب، وهو مكان آخر من الأماكن المفضلة لدى الكاتب. إنه مكان ريفي، فيه مركز ثقافي ومطعم ومكتبة يمكنك أن تصل إليها بنزول الدرج. وجدنا هناك كتباً لحنّا آريندت. يقول وأمامه فنجان قهوته المئة لهذا اليوم: «نظريتها حول سخافة الشر - التي تفيد أن الأشخاص الذين يرتكبون أكبر الفظائع، يمكنهم القيام بذلك من دون اهتمام، كما لو كان ذلك أمراً سخيفاً أو عادياً - تمثل تماماً ما عشته أنا في المعسكرات».

في الكثير من روايات كيرتيس تطلب الشرطة من الأبطال أن يتحولوا إلى مخبرين، وفي ما بعد يملون عليهم المعلومات. تتحقق هذه المشاهد حين تعلو أصوات تدعو لملاحقة المتعاونين مع الشيوعية في بولونيا أو ألمانيا. بالنسبة إلى كيرتيس فإنه من النفاق أن نشعر بالصدمة. «بعد انهيار الجدار - جدار برلين - لم يرغب أحد بالاعتراف أنه تعاون مع الستالينية. أما الآن، وقد مضت سنوات عدة، نكتشف أن الكثير من الأشخاص الذين لم نشكّ في أمرهم إطلاقاً كانوا مخبرين كالكاتب التشيكي بوهوميل هرابال. ولكن، لا يمكننا أن نبسط الأمور ونضع هؤلاء الأشخاص في خانة الزعماء المتسلطين نفسها».

كما لا ينتقد بشدة الكاتبُ الهنغاري غونتر غراس، الأديبَ الحائز على جائزة نوبل والذي اعترف بتعاونه مع الأس أس: «كان شاباً يعيش في دولة اتخذ فيها الراديو والأفلام والتقنيات الرسمية كافة اتجاهاً واحداً، وبات من الطبيعي أن يبدأ التفكير كما فعل».

حول موقفه السياسي يوضح قائلاً: «الإيديولوجيات السياسية لا تتوقف عن التغيير، فهي في تحول دائم، لذلك أفضل عدم الانتماء إطلاقاً إلى أي طرف سياسي. مع ذلك، أحاول كشخص أن أكون صبوراً ومتحرراً... لو سمحوا لي. لست من اليمين ولا من اليسار، لأنني أجد السياسة بصفتها

ميداناً للتحرك بعيدة عني ببساطة، ولا أعتقد أن هذه التسميات ستساعدني لأتطور. نرى كل يوم العديد من السياسيين يغازلون الحرية لكنهم يطارحون الطغيان الغرام...».

وبينما تشرح آنا سوفيغس - المترجمة التي فسرت لنا كلام الكاتب الهنغاري - لكيرتيس حالة اللغة في إسبانيا، تقصّ علينا زوجته ماجدة بالإنكليزية كيف تعرفا إلى بعضهما: «أنا هنغارية، لكنني عشت في شيكاغو منذ عام 1956. عدتُ قبل ثلاثة عشر عاماً إلى بلادي لأفتح مكتباً لولاية إيلينوي في أوروبا الوسطى، فتعرفت إلى إيمرة في بودابست ومكثت هناك». ولدى تناولنا فطيرة التفاح والقشدة تمكنّا من جعلها تكشف لنا عن بعض تفاصيل غرفة النوم: «في الكثير من الليالي أفتح عينيّ لأجد أنه ليس في السرير... لأنه يكون قد ذهب إلى الغرفة المجاورة ليكتب. يكتب عند الفجر ساعات عدة!». يؤكد هو كلامها مطأطئ الرأس: «أنام قليلاً جداً... ولا أتمكن من الذهاب في إجازة. آخذ حاسوبي وأعمل بينما تستمتع زوجتي على الشاطئ. الأمر كالهوس أو الولع، يلح عليّ دائماً...».

يسألنا الكاتب عن إسبانيا ويحدثنا عن قرطبة وسان إيستيبان وبرشلونة، حيث يذكر قائلاً: «كنت هناك في 11 آذار 2004، عندما حصل الهجوم الإرهابي على مدريد. كنت أزور كاسا باتلو حين وصلت تلك المظاهرة المدهشة المؤلفة من مليوني شخص، وهي كتلة بشرية ضخمة حملتني معها حين خرجتُ إلى الرصيف، فشعرتُ بذاك الإحساس؛ بأنني عاجز عن الهرب وأن الكتلة البشرية تأخذني معها إلى حيث تشاء. جعلني ذلك أفكر في يومي الأول في المعتقل حين حملني تيار بشري وقادني إلى المعسكر، وهو تيار فصل الآباء عن أبنائهم، والأزواج عن زوجاتهم...».

كل شيء بالنسبة إلى كيرتيس قد يذكره بالمعتقل، ذاك الحاجز الذي تتخطى آثاره حدود الأدب. في حزيران عام 1965 كتب في مذكراته: «لن أستطيع يوماً أن أكون أباً لإنسان آخر». وفي العام 1990 نشر



القضية: أوروبا قوية

يثق إيمرة كيرتيس بأوروبا، بأمة تتحقق فيها المبادئ التي تقوم عليها، كما يقول: «حين مدت بلدان أوروبا الشرقية ذراعها باتجاه ديموقراطيات أوروبا الغربية لم تحصل إلا على تربيت على الظهر. والنتيجة هي أن الاختلافات الشاسعة بين غرب القارة وشرقها تشكل اليوم مشكلة خطيرة. تواجه أوروبا في القرن الحادي والعشرين مأزقاً بطولياً: إذ يجب عليها أن تقرر إما أن تشدّد على منظورها الأخلاقي، أو أن تفضّل التعاقد مع الشرير. إذا لم ننتج هوية أوروبية قوية وروحانية، فليس لدينا ما يضمن أننا لن نعود بصمت إلى الإبادة الجماعية كما حصل في البلقان. لا أثق بالهويات القومية، وعلى أوروبا الارتباط بالولايات المتحدة. هل يتخيل أحدنا ما كان سيحدث لو لم تتدخل الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية؟ وحدها الحماية الأميركية هي التي سمحت لألمانيا بأن تبني مستقبلاً مشتركاً وسلمياً مع فرنسا. الولايات المتحدة بلد قائم على المُثل الأوروبية الكبرى: الحرية والديموقراطية واستقلالية الفرد».



كتاب **دعاء لابن لم يولد** يشرح فيه سبب صعوبة أن تمنح الحياة إلى شخص آخر بعد تجربة معسكرات التعذيب. «يتحدث عن قصة حب تتعلق بالنزاع الذي ينشأ بين الزوجين، حين ترغب المرأة بابن ويرفض الرجل ذلك بسبب التجارب التي عاشها».

علاقة الحب بين كيرتيس وبرلين متينة. يتعجب الكاتب قائلاً: «في هذه المدينة مثلاً، نعيش نحن الذين نهوى الأوبرا حياة رائعة. اسمعاني جيداً، في برلين ثلاث دور أوبرا عظيمة. وفي كل عام يحتدم النقاش حول احتفاظ المدينة بدور الأوبرا الثلاث، فيتجادلون بشدة، ويصوتون... وفي كل عام يكون القرار بالإبقاء عليها! أليس هذا رائعاً؟ حتى إنني قبل مدة قصيرة أقمت عرضاً صغيراً قرأت فيه كتاباتي في صالة صغيرة في فيلهارمونية برلين، ورافقني في أثناء قراءتي عازف بيانو في الخلفية».

لكن ما يعجبه في العاصمة الألمانية حقيقة هو كما يقول: «أعيش فيها بقوّة، وأختبر مشاعر وشديد. اكتشفتُ فجأة أنني لم أحيَ بسلام في أي مكان: فلطالما وجدتُ الحروب أو النزاعات أو الأنظمة الديكتاتورية في أي مكان قصدته».

- ألا تشعر بالسلام في هنغاريا؟

- لا، بل أستنشق الغضب والدمار. عشتُ هناك 40 سنة من دون أن أتمكن من الحصول على جواز سفر إلى الخارج. والآن، أستمتع للمرة الأولى في مدينة منفتحة وعالمية. أتحدث الألمانية، ويعيش محرّري هنا، كما ألاحظ أن الناس يحبونني. يقطن هنا الكثير من الفنانين، فهي مدينة تجذب المواهب. تقول زوجتي إنني كالشاب الذي يكتشف مدينة كبيرة للمرة الأولى.

يشير كيرتيس برأسه من دون جدوى، في محاولة منه ليقدموا له فنجاناً آخر من القهوة، لكن العاملة في المقهى المزدحم حيث توقفنا لنستريح، تبدو وكأنها لا ترانا، فيعلق: «هل لاحظتما؟ الفعالية الألمانية في أزمة. اكتشفتُ ذلك قبل عشر سنوات، حين رأيت أن سير الحقائب معطل في المطار. حينها قلت لنفسي: لقد انتهت ألمانيا».

كينزابورو أوي



«أدافع عن وجود الفرد بصفته كينونة مفكرة مستقلة».

أول ما دفعه ليصبح كاتباً كان إدراكه العذاب الصامت الذي تعاني منه سمكة في الخطاف، لذا أصبح كاتباً ليشرح ذلك. يشعر كينزابورو أوي اليوم أنه مختص في التعبير عن العذاب الإنساني. بروحه النقدية، ولطفه، وصدقه، يقص علينا الياباني الحائز على نوبل خلال نزهته سيراً على الأقدام وفي المترو الذي يطوف طوكيو كيف تحول ابنه، المصاب بإعاقة شديدة، إلى بطل في كل أعماله الأدبية، وإلى درس مغزاه: إنّ البحث عن كل الطرائق الممكنة للتواصل يستحق العناء.



حيـن وُلـد ابنه المعوّق فـي العام 1963، ذهب كينزابـورو أوي إلـى هيروشـيما ليتشـرّب العـذاب الإنسـاني، وهـو لا يـزال حتـى اليـوم يشـيح بنظـره بعيـداً حيـن يفكـر فـي ما حـدث. يقول لنا الآن وهو يتنـاول كوبـاً من الشـاي في غرفـة جلوس منزله في طوكيـو: «خضـع هيـكاري لعمليـة مصيريـة، حيـث اضطـرّوا إلـى استئصال كتلـة حمـراء براقـة وكبيرة كمـا لـو أنهـا رأس ثان، ملتصقة في القسـم الخلفي من جمجمته». كانت نتيجةُ التدخل الجراحي تخلّفاً عقليًّا لا يمكـن معالجته. حينهـا تمثّل رد فعل أوي بالسـفر إلى هيروشـيما، وهناك صدر عنه **ملاحظات حول هيروشيما**. «كانت الرحلة الأكثر إرهاقاً وكآبة في حياتي. ولكنني بعد تمضية أسبوع هناك، وجدت المفتـاح للخروج من البئر العميقة التي وقعت فيها: إنسانية سكانها العميقة. أدهشتني شجاعتهم وطريقة حياتهـم وتفكيرهـم. قد يبدو الأمـر غريباً، لكنني أنا الـذي خرجـت مـن تلك المدينة متحمسـاً بسـببهم، وليس العكس. ربطتُ ألمي الشـخصي بآلام أولئك الرجـال والنسـاء، وقـررتُ أن أقـاوم وأكافح مثلهم. شـعرتُ بنفسـي مجبراً على مراقبة وضعي الإنسـاني بمجملـه، وراجعتُ أفكاري وتبنيتُ مفهوماً أخلاقياً للوجـود. ومنـذ ذلـك اليوم، وأنـا أرى العالم بعيون سـكان هيروشـيما. كثيـراً ما صدمني خبـر وفاة أحد أصدقائي الجدد، بسـبب عواقب الانفجار. الكثيرون منهـم لـم يرغبـوا بالشـهرة ولا أن يذكّروهـم دائمـاً بوضعهم كضحايا، حيث احتاجوا إلى بناء حياة جديدة تخلو من الوجود المستمر لذلك الرعب. ذهبت إلى الكثيـر من الجنازات، من بينها جنازة أرملة الشـاعر سانكيشي توغ الذي كتب أبياتـاً ممتازة عـن مأسـاة القنبلـة النوويـة، وكرامـة النـاس الذيـن قـرروا مقاومـة المحنـة. انتحرت أرملتـه بعـد الاضطـراب الـذي سـببه لهـا السـلوك العدائـي المناهـض لبنـاء نصـب تـذكاري تُنقش عليـه قصيـدة لزوجهـا. كتـب تـوغ: أعيدوني إلى أبـي، أعيدوني إلى أمي./ أعيدونـي إلـى جـدي





وجدتي، أعيدوني إلى أبنائي وبناتي. / أعيدوني إلى العرق البشري. / بينما تبقى هذه الحياة، هذه الحياة، أعيدوا إليّ السلام. / أتمنى ألا ينتهي يوماً. وبينما تستمر ذكرى مأساة أشخاص كهذه، كيف يمكن لهيروشيما أن تختفي من قلوبنا؟».

نحن جالسون في غرفة طعام الكاتب الحائز على نوبل للآداب في العام 1994، كينزابورو أوي في العاصمة طوكيو، في حي سيتاغايا. هدوء زن في هذه الصالة لا يمت بصلة لما رأيناه عبر نافذة سيارة الأجرة التي جاءت بنا: ناطحات السحاب الرمادية الضخمة الملتصقة بالطرقات السريعة ذات المستويات الثلاثة أو الأربعة، ورجال يرتدون زيًّا رسميًّا ويضعون ربطات عنق، «جميعهم يرتدون الزي نفسه»، يسيرون مسرعين إلى عملهم. اختلط على سائق السيارة عنوان أوي، لأن الشوارع في طوكيو لا تحمل أرقاماً. وليجد الناس طريقهم، يعتمدون عادة على الخرائط الصغيرة التي تبدو على بطاقات تعريف الأشخاص (بيزنس كارت) والتي تشير إلى الأبنية الواقعة إلى جانب البيت الذي يبحثون عنه (محل زهور، فندق،...)، لكن حي سيتاغايا يخلو من كل شيء إلا من المنازل، فلم تساعدنا الخريطة كثيراً. في النهاية، تركنا السائق عند المنعطف وقال: «لا بد من أنه هنا». ثم اختفى مبتسماً. تجولنا قليلاً في شوارع خالية من الأسماء، وحدائق مشذبة جيداً، ولكن شبكة من الأسلاك الكهربائية الفوضوية التي بشّعت من المنطقة بأكملها فاجأتنا. وحين التففنا عند إحدى الزوايا، لمحنا في نهاية الطريق رجلاً يلوح بذراعيه كشفرات المروحة صارخاً: «هنا! هنا!». هذا كينزابورو أوي. بعد أن خلعنا أحذيتنا عند مدخل داره وعبرنا باب غرفة الطعام، صرخ أحدهم بالإسبانية: «كوووومو استان أميغوس!». كان هيكاري، ابن كينزابورو أوي، تلك الشخصية التي تدعى إيّوري في روايات أبيه. «تعلم بعض العبارات في برنامج ليليّ عن اللغات يُعرض على شاشة التلفاز الياباني». هذا

ما كشف عنه أوي الذي أخذ يتذكر - فيما زوجته تقدم لنا القهوة والشطائر وفطيرة الجبن - عام 1963 الذي عاد فيه من هيروشيما قائلاً: «اكتشفت أنني لن أستطيع الكتابة إطلاقاً من دون الإشارة إلى ابني، وحوّلته إلى أساس عملي». في الحقيقة، نجد أن رواية **استيقظوا يا شباب الحقبة الجديدة!** هي قصة العلاقة الصعبة بين أب وابنه، والتي تتضمن عنفاً ولحظات متعبة جداً، بالإضافة إلى مشاهد مضيئة يشرق فيها الحب الأبوي المتبادل بقوة. يجيب أوي عن أسئلتنا بينما يسمع هيكاري الموسيقى وهو جالس إلى الطاولة المجاورة. وجودنا يقاطع حياته اليومية المعتادة: «أنهض عند السابعة صباحاً، ولا أتناول الفطور أبداً. أعمل أربع ساعات أو خمس، بعد ذلك أذهب إلى المسبح. وحين أعود، أتناول العشاء مع زوجتي وابني، ومن ثمّ أنام. أكتب دائماً هنا، في غرفة الطعام، بينما يشاهد هيكاري التلفاز أو يستمع إلى الموسيقى. هذا لا يزعجني، لأن عالمي لا يسمح لعوالم أخرى موازية بالتشويش عليه». الحديقة مليئة بأحواض طعام العصافير التي تأتي كل يوم وأعشاشها. يتأمل الكاتب عصفوراً مكسوًّا بريش أبيض وأسود ويقول: «إنه من نوع الشيجوكارا. نتعاطف كثيراً مع العصافير، ونعتني بها كما لو كانت جزءاً من العائلة، لأن ابني استطاع الكلام بفضلها. اعتقدنا أنه لن يتكلم يوماً على الأغلب، لكنني اعتدتُ أن أُسمعه أسطوانات لأصوات مختلف أنواع الطيور، وصوت إنسان يذكر أسماء الطيور صاحبة هذه الأصوات ليتعلم أن يميزها عن بعضها. وفي النهاية، جاء يوم سمع فيه زقزقة أحدها في الحديقة فدعاه باسمه. وخلال مدة، كان يجيب على العصافير فقط، دون البشر». **استيقظوا يا شباب الحقبة الجديدة!** هو الكتاب الواقعي الأول الذي ينشر في إسبانيا لأوي. «إنه أهم ما كتبت.

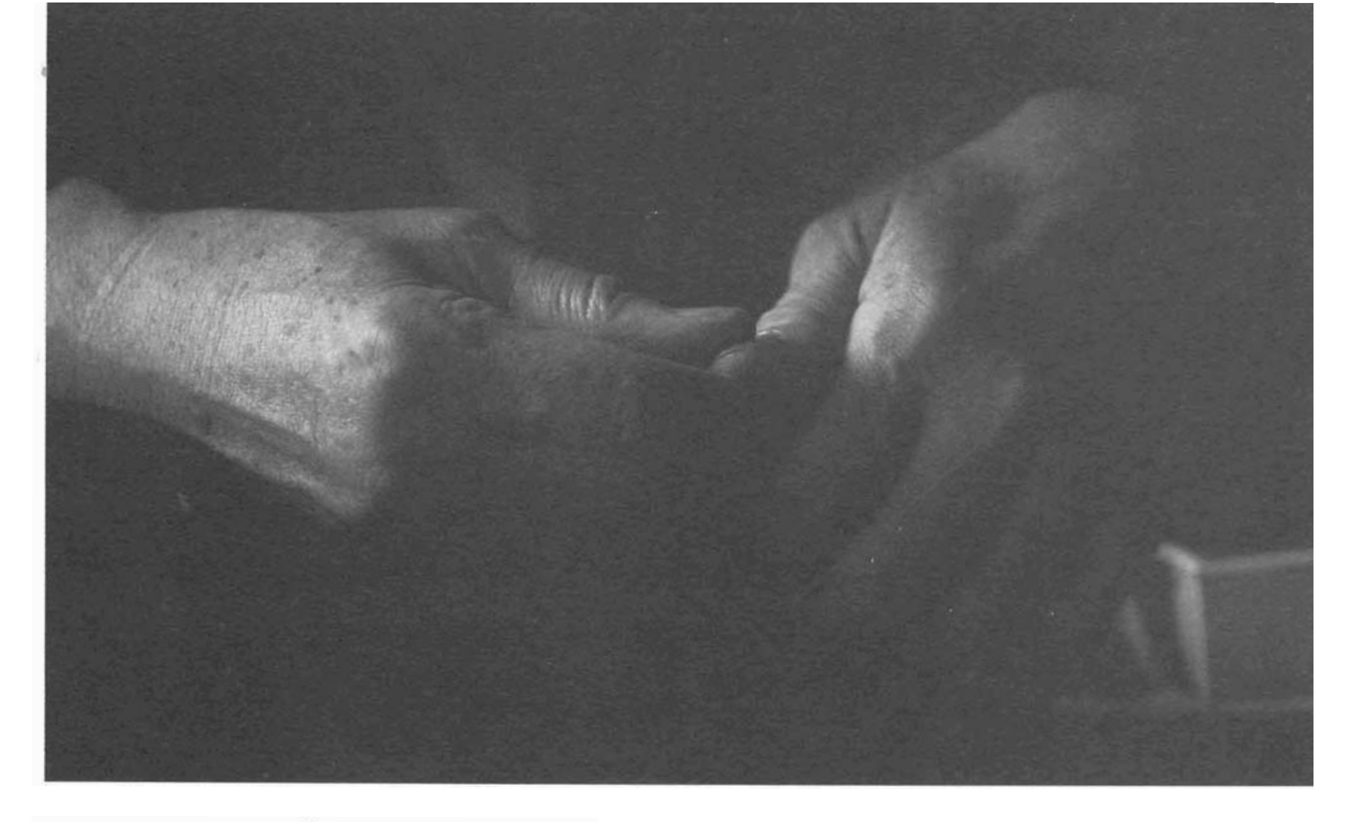


كنا نسمع عبر المسجلة لحناً ألفه هيكاري الذي استطاع أن يعبر عن نفسه بعمق عن طريق الموسيقى بالرغم من تصرفاته الطفولية في معظم الوقت. وكان



تعبيره هذا جيّداً جداً بحيث إنه أصبح مؤلفاً ناجحاً. يعلّق الكاتب بحبور: «بعض ألبوماته حققت مبيعات أكبر من بعض كتبي. هذه مقطوعة ألّفها في ذكرى ميلادي السبعين في كانون الثاني من العام 2005، وكانت هذه طريقته لتحفيز أبيه ليتابع كتابته، ويبقى سعيداً بالرغم من أعوامه السبعين. لطالما شجع كل منا الآخر، هو بالموسيقى وأنا بالكتابة. في الحقيقة، إنني أعرف ما يجول في أعماقه بفضل موسيقاه». يأخذ أوي كتاباً من مكتبته ويقرأ لنا بالإنكليزية جزءاً من قصيدة **ميلتون** لبليك: «انهضوا يا شباب الحقبة الجديدة! واجهوا بجباهكم المرتزقة الجاهلين! هناك مرتزقة في المعسكرات والبلاط والجامعة: يمكنهم، لو كان الأمر بيدهم، الإطاحة بالفكر إلى الأبد وإطالة الحرب المادية. هذه هي الرسالة التي أُحبُّ نقلها إلى الشباب. أنا ضد مبدأ الجيش، تلك الجماعة من الأشخاص التي لا تتحرك كما يملي عليها وعيها وإنما وفقاً لأوامر أشخاص آخرين. لسوء الحظ، في المجتمع الياباني الحالي، القليل جداً من الأشخاص لديهم وعيهم الخاص واستقلالهم الفكريّ، ليس في الجيش فحسب، بل في العمل أيضاً. أدافع عن وجود الفرد بصفته كياناً مفكراً مستقلاً، ليس مضطراً إلى الاتفاق مع أفكار من يحيطون به. هذا موجود في قصيدة بليك، وهو ينفع شباب إسبانيا وشباب الولايات المتحدة الذين ينضمون إلى صفوف الجيش من دون تفكير». يقاطع حادث طارئ الحوار؛ إذ يتصل أحدهم بأوي ليعلمه أن محاضراته في اليوم التالي للدفاع عن القيم السلمية للدستور اليابانيّ لن تتمّ في الفندق المحدّد سابقاً. «يدعوني المدير لاجتماع ليساعدني على إيجاد مكان آخر». علينا المغادرة، ولنستغل اللحظة طلبنا منه الذهاب بالمترو. «بالمترو؟ هذا أمر استثنائي، لأنني لم أستقلّه منذ عشر سنوات، ولكن، إذا شئتما ذلك...».

وكما انغمسنا في بيت أوي في كتاب **انهضوا يا شباب الحقبة الجديدة!** انتقلنا في المترو إلى أحد مشاهد **القفزة المميتة**، وهو عمل مستوحى من الهجوم الإرهابي باستخدام غاز الأعصاب الذي أثار



الرعب في المدينة في العام 1995. هل تجاوزوا ذاك الخوف؟ «لم يعد الناس يفكرون في ذلك. ما يقلقنا الآن هو زلزال كبير مرتقب يبدو أنه سيقع في طوكيو. وفقاً لحسابات الخبراء هناك احتمال نسبته 70 بالمئة بوقوع هذه الكارثة التي قد تتسبب بمقتل ثلاثة عشر مليون شخص خلال الأعوام الثلاثين القادمة». وصل القطار؛ كانت إحدى عرباته ورديّة اللون، وهي «للنساء فقط» نظراً إلى أن التحرشات التي تعرّضت لها بعضهن في أوقات الازدحام قد تحولت إلى مشكلة. لذلك جلسنا في عربة كل ركابها من الذكور. كان بعض المسافرين يشربون مزيجاً من الفيتامينات، فيما نام الكثيرون. يتابع أوي حديثه قائلاً: «هناك هجوم إرهابي أذكره كثيراً هو هجوم 11 آذار في مدريد، لأنني سافرتُ إلى إسبانيا بعد ذلك بأيام قليلة لأقدم أحد كتبي. كان تصوّري عن الإسبان أنهم أشخاص مرحون جداً، يحبون الاحتفال وقلوبهم شغوفة، ويضحكون كثيراً. الخلاصة أنه بلد مليء بالشمس والنور والنشاط الصاخب. وإذا بي

بصمت وحزن، وقد ذكرتني تعابيرهم القاتمة بدون كيشوت في الفصول الأخيرة من الكتاب، حين انهار وهمه وزال. كما رأيت قدرة الشعب على قيادة البلاد بطريقة ديموقراطية والتصويت لبديل من اليسار. هذا أمر تحسدون عليه، لأن أحزاب اليسار في اليابان ضعيفة جداً؛ فمقاعدهم في البرلمان قليلة جداً وهم آخذون في الانحطاط». الإرهاب والحرب والعلاقات الشخصية المدمرة: العنف موجود دائماً في أعمال أوي. «أتمنى ألا يُفسّر ذلك خطأ. لستُ أتغنّى بالعنف، بل أعكسه بقدراتي ككاتب بالطريقة الأكثر واقعية، وبشكل موضوعي كما لو أنه فيلم وثائقي، كي يتساءل القارئ بعد ذلك عن المكان الذي يأخذنا إليه ذلك». وماذا عن الجنسانية؟ «إنها مقموعة جداً في بلادي، ولا يعبرون عنها بحرية؛ الحياء كبير. أنا أتحدث عن جنسانية سعيدة حيث يتحرر الشباب ليعبروا عن أنفسهم بشكل كامل عن طريقها. الموضوع أكثر وضوحاً في كتبي الأولى، لأنني الآن بعمري هذا، لم يعد الجنس يقضّ مضجعي، أليس كذلك؟». وصلنا إلى الفندق الذي رفض استقبال كاتبنا، ويدعى سينتشري هيات، وهو البناء الفخم الذي صُوّر فيه فيلم صوفيا كابولا الشهير ضائع في الترجمة. في المفاوضات «التي لا يمكننا حضورها» مع إدارة الفندق «السبب برأيهم هو أن



اللقاءات السياسية ممنوعة في هذا الفندق. لكنني سعيد لأنهم قد تكلفوا عناء إيجاد مكان بديل لي، وهو أفضل حقيقةً»، وأغلى بعشر مرات. فاجأتنا اللباقة الزائدة وسيل الابتسامات التي حُلّ بها النزاع، لكن مترجمنا جوردي توردير أكّد لنا أنها الإجراءات المعتادة.

أمام بناء الحكومة الضخم القريب من الفندق يتابع أوي حديثه عن علاقته بالألم: «منذ صغري وأنا أهتم بكيفية استطاعة جسمنا المحدود الإحاطة بالمعاناة. اعتدتُ الذهاب لصيد السمك في صغري، وكنت أراقب السمك وهو يتحرك بشدة معلقاً بالخطاف. كان يعاني الفظائع بصمت: لا يصرخ. ذاك الصبي الذي كنته فكّر: يا له من ألم لا يُعبَّر عنه! كان هذا الدافع الأول لي كي أصبح كاتباً، لأنني اعتقدت أننا نحن الصغار كذلك يمكننا أن نجعل غيرنا يفهمنا جيداً. أصبحتُ كاتباً لأعكس ألم سمكة، واليوم أشعر أنني خبير في التعبير عن الألم الإنساني، والذي أحاول التطرق إليه بأدق ما يمكن». في طريقنا إلى معبد آساكوسا البوذي المزدحم، يدرك أوي أن اليوم هو يوم الثقافة، حيث يمنح الإمبراطور جائزة لمن سلك طريقاً ثقافياً نموذجياً. «وهي جائزة مرغوبة جداً لأنها تمنح راتباً تقاعدياً. أنا رفضتها، ففي صِغري رأيت كيف بجلوا الإمبراطور في إطار قومي قوي جداً، وهذا يخيفني لأنه يناقض الديموقراطية. بالنسبة إليّ كان رفض هذه الجائزة كرفض سلطة الإمبراطور في الاعتراف بأعمالي ومنحي جائزة. من هو ليقول إنني كاتب جيد؟ بالرغم من أنني رفضتُ الراتب ذاك إلا أن جماعات من اليمين المتطرف جاءت لتحتج أمام منزلي، فصاحوا: أنت لست يابانياً! لمَ أذناك كبيرتان إلى هذا الحدّ ما دمت لا تسمع؟ حينها خرجت زوجتي مستاءة وصرخت بصوت يفوق صوت الميكروفونات يا ذوي القضبان القصيرة! وقد أثر هذا التعبير بابني كثيراً، حتى إنه حفظه، وأخذ يردده لبعض الوقت حتى في مناسبات غير ملائمة». إنّ معبد آساكوسا المزدحم بسبب حركة السياح والصالحين «مكان هام جداً للصالحين. لستُ منهم. لكنني في صغري اعتدتُ سماع القصص المشجعة من أمي وجدي. كما قرأت الكتب المقدسة للأديان السماوية، وقرأت بليك ودانتي». يناصر أوي التدين الخاص الذي يرمز إليه هذا المكان، على عكس التطرف القومي لمعبد ياسوكوني للشينتو. بعد مغادرة المعبد أخذنا أوي إلى

مشرب تقليدي! «لنشرب قليلاً». وبالرغم من تحديق الجالسين إلى الطاولات المجاورة إلينا، تجنبهم أوي من خلال الجلوس إلى إحدى الطاولات عند الزاوية وظهره يواجه الجالسين. «في السابق، كنت أذهب إلى المشارب كثيراً مع عاملين في دور النشر. لكن، غالباً ما كان الأمر يفضي إلى مشاجرات لأنهم كانوا يقولون لي إن طريقتي في الكتابة ليست جيدة، وكان هذا يغضبني. عيّرني الكتّاب الأكبر سناً بذلك...». وشيئاً فشيئاً تفرغ زجاجة الشراب فيما ضوء النهار يفارق شوارع طوكيو. عند خروجنا من المشرب قرّر أوي أن يعود إلى المنزل بالمترو بمفرده. ولكن ألم يقل لنا إنه لا يستقلّه أبداً؟ «في شبابي، حين تنقّلتُ في وسائل النقل العامة كنت أستغل الطريق لأكتب مذكراتي. أحب اليوم أن أتذكر تلك الأيام. سأركب المترو، وأكتب كل ما حدث معي اليوم وأنا برفقتكما».



القضية: انهضوا يا شباب الحقبة الجديدة!

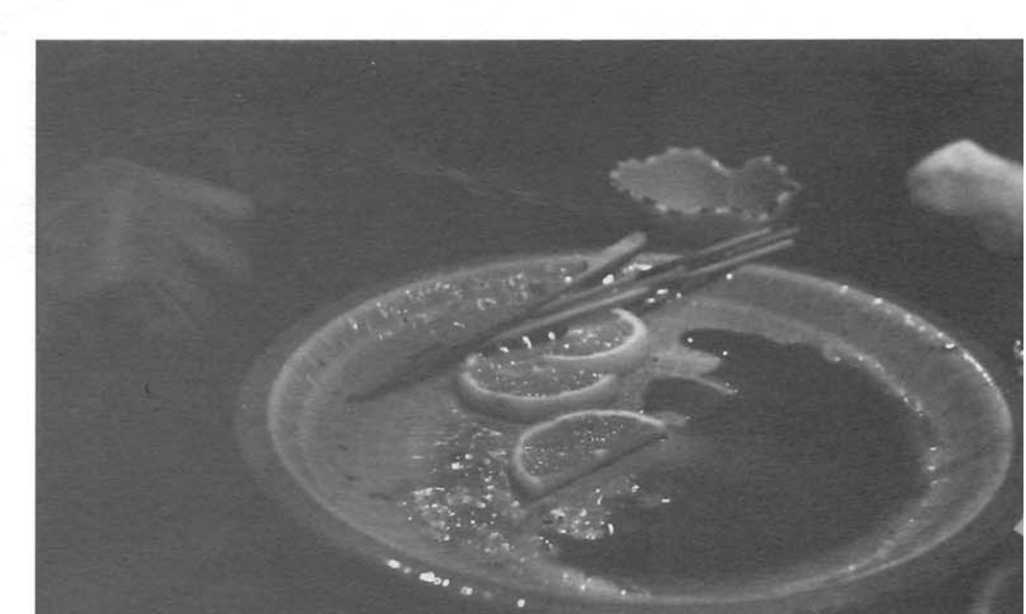
يذكر أوي أنه في العام 1963، حين عاد إلى هيروشيما، «اكتشفت أنني لن أستطيع الكتابة إطلاقاً من دون الإشارة إلى ابني، وحوّلته إلى أساس عملي». في الحقيقة، نجد أن رواية استيقظوا يا شباب الحقبة الجديدة! هي قصة العلاقة الصعبة بين أب وابنه، والتي تتضمن عنفاً ولحظات متعبة جداً، إضافة إلى مشاهد مضيئة يشرق فيها الحب الأبوي المتبادل بقوة.

ويعكس، أولاً، عملية قبولي لابني، ومن بعدها كيفية توصلنا إلى الشعور بالسعادة معاً. الأحداث كلها واقعية، لكنها تُقصّ بطريقة روائية». بالإضافة إلى هيكاري فإن مركز ثقل الرواية الآخر هو أبيات الشاعر الرومانسي الإنكليزي ويليام بليك: «أرسم عالمين: عالم قصائد بليك وعالم عائلتي. فهما يتراكبان، وعن طريق لعبة المرايا يتحدان ليكوّنا واقعاً واحداً، لأنه من الصعب أن نرسم حداً بين ما نعيشه وما نقرأه».







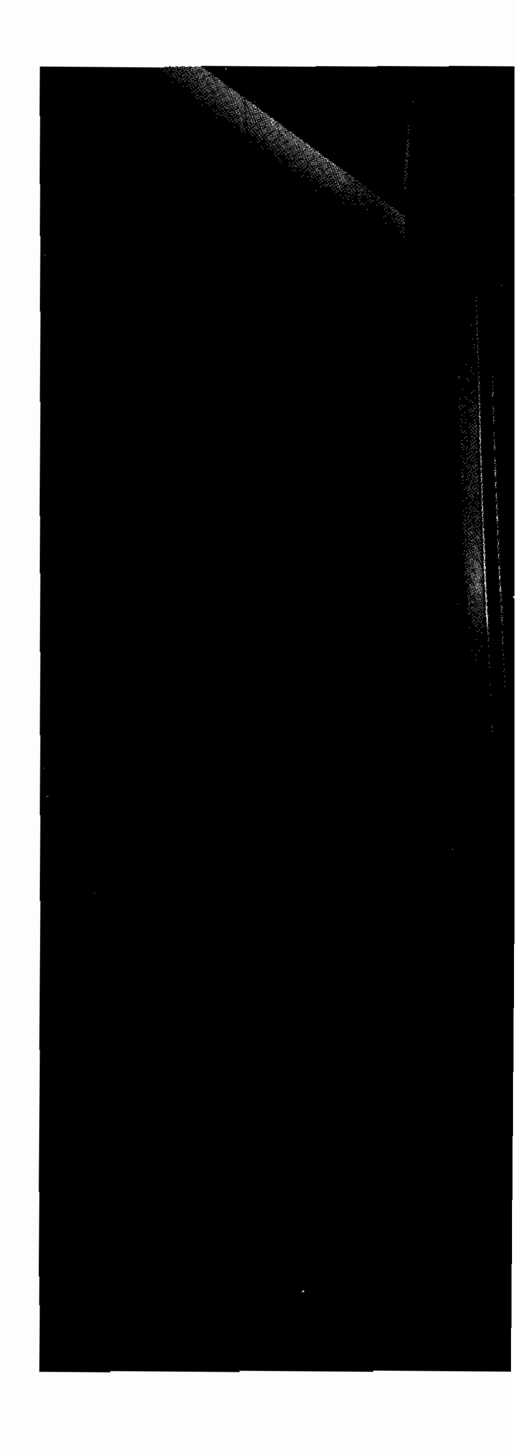


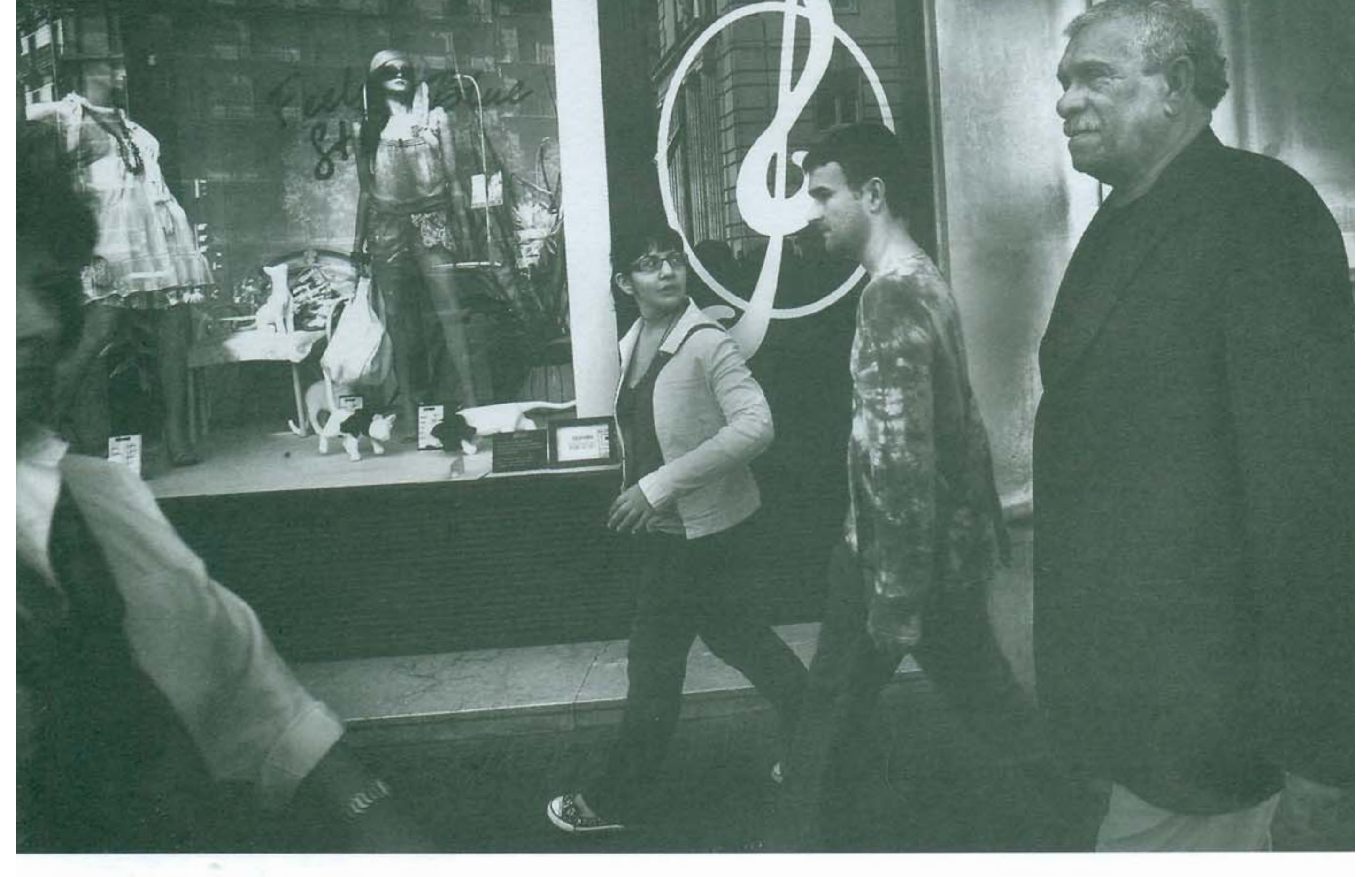
ديريك وولكوت



الافتخار بالمزيج

مقابلتنا مع ديريك وولكوت - الأديب الذي أحيا الشعر الإنكليزي بإضافة موسيقاه الكاريبية إليه - هي الوحيدة التي لم تتم في مسكن الكاتب. لقاؤنا الأول به كان في اليوم العالمي للشعر الذي نظمته مؤسسة أمير أستورياس والأونيسكو في أوفييدو في العام 2006.





مقابلتنا مع ديريك وولكوت – الأديب الذي أحيا الشعر الإنكليزي بإضافة موسيقاه الكاريبية إليه – هي الوحيدة التي لم تتم في مسكن الكاتب. لقاؤنا الأول به كان في اليوم العالمي للشعر الذي نظمته مؤسسة أمير أستورياس والأونيسكو في أوفييدو في العام 2006، وهو لقاء أتاح لنا الفرصة لإلقاء الضوء على بعض المبدعين الذين نادراً ما يُسمع صوتهم في خضم الجلبة الكبيرة التي تثيرها يومياً العروض الشعبية. في العام 2009، وبعد محاولة فاشلة لزيارة جزيرة سانتا لوثيا، زار وولكوت برشلونة حين دعاه نادي بن (PEN Club). حينها استقبلنا في غرفته في الفندق وتنزه معنا قليلاً في وسط المدينة.

في عروق ديريك وولكوت تجري دماء إنكليزية وهولندية، ودماء العبيد السود. وُلد هذا الرجل المبتسم دائماً، ذو طباع عازفي الجاز اللاتينيين، في العام 1930 في جزيرة سانتا لوثيا، ويعيش متنقلاً بين الكاريبي والولايات المتحدة. جمعت أعماله المسرحية والشعرية بين التراث الكلاسيكي وثقافات جزيرة مولده، فهو إذ يضع أعمال هوميروس في قالب كاريبيّ في كتابه **أوميروس** (1990)، فإنه قد أعاد كتابة **الأوديسا** – من منشورات فيزور – بطلب من شركة شكسبير الملكية، من دون تغيير مشاهدها أو شخصياتها. وبمناسبة تقديم عرضها الأول في مدينة ميريدا الإسبانية، أضاف وولكوت شخصية جديدة هي البحر المتوسط، أدّتها لوثيا بوسيه.

وقد شرح لنا وولكوت سبب إعادة كتابة **الأوديسا** قائلاً: «لأن بحري إيجة والكاريبي يشتركان بالكثير، ففي كل منهما تطفو سلسلة جزر متقاربة جداً، وهو ما يسمح بالسفر من جزيرة إلى أخرى، وبالتالي ينتج تبادلاً مثمراً. يقوم كتابي بشكل أساسي على البحر: من المحتمل ألا يبقى شيء من القصة لو انتزعناه».

يشكل كتّاب الكاريبيّ بالنسبة إليه وحدة متكاملة بغض النظر عن اللغة التي يكتبون بها. «بلا شك، إن كارلوس فوينتس وغابرييل غارثيا ماركيث كاتبان كاريبيّان أيضاً. نمثل العالم نفسه، فقد عشنا معاً العبودية والاحتلال والمستعمرات... وهي خبرات

دمغتنا بصفة الكتّاب؛ نقصّ الحكاية ذاتها. حين قرأت لغارثيا ماركيث للمرة الأولى حسبتُ أنه لا يفقه شيئاً. لكنني لاحقاً عدت لقراءة كتبه، ووجدت الأمر مختلفاً جداً: اكتشفتُ مزجه بين الأساطير الإفريقية والإيقاع الكاريبي بلمسات لاتينية، وأخذ احترامي له يزداد شيئاً فشيئاً». ولكن، ما هو الكاريبي؟ «نحن محظوظون: ليس لدينا سلطة اقتصادية أو سياسية، وليس لدينا نفط أو أي شيء آخر. ولذلك، فإن قوتنا مصدرها الفن وليس السياسة. أسوأ ما في الأمر هو الضغوط الخارجية التي تدفعنا لكي نصبح ما يريد غيرنا أن نكون. في دمي من إفريقيا ما يعادله من هولندا؛ هما متساويان. لقد اتهموني بأنني لست أسود بما فيه الكفاية لأنني أقول هذه الأمور، لكنني لا أريد أي ضغط من إفريقيا أو من إنكلترا. أنا كاريبيّ: إفريقيا بعيدة جداً عني. اللغة مختلفة والعادات مختلفة، ومرجعيتنا لا تقع في أي مكان في الخارج، وإنما في كينونتنا نحن القاطنين هناك اليوم». يؤكد أن حياته في الجزيرة «هي النعيم بحدّ ذاته»، ويضيف: «لكنني أسمع الراديو، وأشاهد التلفاز، وأقرأ الجرائد، وأتحدث إلى أصدقائي... وأدرك كل الألم في العالم، وخاصة ما تفعله الدول الأغنى في العالم، والتي تترك ملايين الأشخاص يموتون جوعاً بينما تتخلّص من الطعام أو تحرقه لتبقى الأسعار عالية». ثم يضيف قائلاً: «لا سوء في السياحة، فأنا أيضاً أحب الفنادق الجيدة. لكن أصحاب الفنادق المعقدين يحكمون على الشباب في جزرنا بأن يصبحوا نُدُلاً أو أن يسلّوا السيّاح، وإلا فإنهم يعرضون عليهم أعمالاً بديلة أعتبرها نوعاً آخر من العبودية».

ثم يشرح لنا قائلاً: «إن الأدب الكاريبيّ ظهر بعد الحرب العالمية الثانية؛ حين هاجر الكتّاب إلى إنكلترا، ونشروا كتبهم هناك. عندها، تم للمرة الأولى تحليل المجتمعات التي جاءوا منها وتحليل أحداثها التاريخية. كان هؤلاء الرواد أول من أطلقوا تسميات على ما يحيط بهم، فوضّحوا آراء أشخاص لم يتمكنوا من التعبير عن أنفسهم حتى ذلك الحين. أصبتُ أنا ونايبول برعشة هي مزيج من الخوف والمتعة حين





وصفنا عن طريق الأدب العالم الذي أتينا منه للمرة الأولى. لا شيء يمكن مقارنته بهذا».

تلقى وولكوت، كما يقول: «تربية إنكليزية جيدة جداً وعالية المستوى، كما لو كنتُ شاباً إنكليزياً. أردتُ أن أصبح شاعراً لأن أمي اعتادت أن تقرأ لي أبياتاً من الشعر، فتبنّيت النماذج التي وجدتها: أودن، ماكنيس، ديلان توماس. جيلي، كجيل أبي، تعامل مع النصوص الإنكليزية وكأنها تنتمي إلينا حقاً، فهي تقليد في لغتنا الأم، ولم نتساءل حول أي شيء آخر، ولم نرها بعيدة عنا أبداً، كما لم أشعر يوماً أنها غريبة عني. ما الذي علينا فعله؟ هل نتوقف عن قراءة شكسبير لأنه أبيض البشرة؟». يمكننا أن نجد في هذه التربية الكلاسيكية السبب في صرامة وولكوت في ما يتعلق بقوانين الشعر، على عكس التوجهات المعاصرة. ويصر قائلاً: «المهم في القصيدة هو طريقة التعبير عن أمر ما. أعلم أن قولي هذا يجعلني أبدو قديماً كالديناصور، لكن ذلك لا يهمني. أعرف أن الكثير من المدرسين اليوم يحثّون طلابهم – شعراء المستقبل – على التّخلّي عن تقنيات الكتابة، لكن هذا السلوك في قمة اللامبالاة بالنسبة إلى الجمال واللحن. يقول باسترناك: إن الشعراء ليس لديهم الوقت للأصالة. إن الاحتذاء بما هو جيد هو ضرب من الابتكار، فلن يكون هناك يوماً أمران متطابقان، مهما كتبت، لأنك ستختلف دوماً عن غيرك وسيصبح ما كتبته أمراً شخصياً. يقولون إن كل شيء مسموح، اللحن مات والموسيقى ماتت والإيمان مات... وكل شيء مقبول، لذلك يزداد عدد أشباه الشعراء كما ازدادت سياسة ما يشبه الديموقراطية، وهكذا نعاني من جرّاء قصائد فظيعة وحروب وقائية لا نتجرّأ على انتقادها لأن كل شيء نسبي طبعاً!».

في أوفييدو، وبينما أخذ يمزح مع صديقه سوجينكا، أو مع السوري أدونيس، أشار إلى حضور الأمسية الشعرية وعلق قائلاً: «إن اجتماع الشعراء لا تمكن مقارنته بمؤتمر لأصحاب البنوك أو الشركات أو أطباء الأسنان. السبب الرئيس هو أن همومنا تتخذ نظاماً أكثر تقدماً. لاحظ أن أول ما يفعله الديكتاتور

هو الإطاحة بالشعراء، لأنهم لا يخضعون لقوانينه ويتحدّون السلطة. يقول دانتي: إن الحب هو ما يحرك الشمس وغيرها من الأجرام. يثق الشعراء بذلك ولا يفقدون حماستهم. الآن، وهنا في إسبانيا، تنعمون بالسلام، وحين لا تجدون الكثير لتقلقوا بشأنه يبدو الشعر نشاطاً غير مفيد. ولكن، في أوقات الحروب والأزمات، هناك أمور لدى الشعب يحتاج إلى التعبير عنها، وعندها تبرز أهمية الشعر. ومع أن نجاح قصيدة جيدة لا يزيل العذاب، إلا أن المفاجئ هو أن الجمال يمكن أن يولد من الذعر».

كان أبوه رساماً، وابناً لصاحب مزرعة في باربادوس. مات في الرابعة والثلاثين من عمره، حين كان ديريك يبلغ من العمر عاماً واحداً. كتب الشعر أيضاً، ونظّم عروضاً مسرحية في جزيرة سانتا لوثيا المجاورة، وهو ما يفعله وولكوت حتى الآن، حيث يتنقل بين إخراج الأعمال المسرحية في مدن - كلندن ونيويورك - وبين إدارة شركته القديمة ترينيداد. في الحقيقة، تقدَّم أعماله على مسارح كاريبية أكثر من أي مكان آخر، وهو ما يثير حيرته، فيقول ساخراً: «بما أنني لا أنتمي إلى الوسط الثقافي، فإنني حين أذهب إلى لندن أو نيويورك لا يزالون يسألونني أهذه مسرحيتك الأولى؟ وقد كتبتُ أكثر من ثمانين مسرحية! أعرف ممثلين استثنائيين يمكنهم أن يصلوا إلى النجومية العالمية في أماكن مثل برودواي أو غيرها... لكن أحداً لا يعرفهم».

أما أمه أليكس فكانت مدرّسة، وقدمت الدعم اللازم لطموح ابنها الأدبي: «ديواني الأول كان طبعة خاصة. في العام 1949 نشرته أمي، وكلفها الأمر 200 دولار». ذهب وولكوت إلى جزيرة ترينيداد المجاورة لأن الحركة الثقافية فيها أكثر نشاطاً، وفي أحد الأوقات جمعته صداقة بفي أس نايبول الذي تفصله عنه اليوم عدائية شديدة دفعته في أيار عام 2008 لأن يقرأ علناً قصيدة عنوانها **النمس** يقول في مطلعها: «لقد عضوني، وعليّ أن أتجنب الالتهاب/ وإلا سأموت كقصص نايبول/ اقرأ رواياته الأخيرة وسترى/ ما أعنيه». كان نايبول قد هاجم قبلاً أعمال وولكوت متدنية المستوى على حدّ تعبيره، والذي بدوره يتهمه بالنظرة العنصرية إلى أعماله.

بجميع الأحوال، بدا وولكوت قليل الاهتمام بكل ذلك الجدل، فرأيناه أكثر انشغالاً بتنظيم العرض الأول - الذي قُدّم في تشرين الأول عام 2008 في الغلوب في لندن - للأوبرا الأولى من تأليفه، **دفن تيباس**، وهي مأخوذة عن نصوص لأديب آخر حائز على جائزة نوبل، وهو صديقه الإيرلندي سياموس هيني الذي يستقي مجدداً من الأدب الكلاسيكي، من **أنتيغون** لسوفوكليس. كانت الموسيقى التي تضمنت إيقاعات كاريبية كالكاليبسو وحتى الراب، من تأليف دومينيك لو جاندر، من ترينيداد، حيث حوّل وولكوت أحداث **تيباس** إلى جمهورية في أميركا الجنوبية في القرن العشرين، نجد فيها التشابه بين كريونتي وتروخيو واضحاً تقريباً. بالنسبة إلى وولكوت: «أصعب ما في الأمر، إضافة إلى الاعتياد على أن يغني الممثلون بدلاً من الكلام، هو إنتاج لغة تنبض فيها نبرة إنسانية واقعية، بالرغم من فخامتها. هذا ما اعتاد الإغريقيون الكلاسيكيون أن يفعلوه، وهو ما يحرك عواطفنا في أعمال شكسبير، فهم يخاطبوننا بكلمات تبدو بعيدة وقريبة في آنٍ معاً».

إنه يحمل راية الخلاسية («في الأدب لا يوجد عرق صاف») ويعتقد أن «أي سياسة تعارض الهجرة عنصريةٌ بطبيعتها». كما أنه يحارب الاعتقادات المسبقة في أوروبا الوسطى، حيث يتذكر قائلاً: «أوروبا نموذجٌ للتحضر، ولكنها أيضاً نموذج للبربرية. ليس هناك معنى في أن يعتمد بلد كبلدي على أوروبا في الوقت الذي لا يستطيع من فيها التفاهم مع بعضهم بعضاً. وإضافة إلى ذلك يدّعون أننا معجبون بهم!». ويثق أن «أي ثقافة تضمّ عناصر عرقية مختلفة، حتى لو أفسدتها عروق أخرى، هي أكثر غنى دائماً». مع ذلك، «لا يمكننا القول إن الأمور تتحسن، ولا إن الأعراق تختلط، فمآسي القارة الإفريقية مثال على ذلك، وهي تكرار مستمر لشرّ البشر. لم أفكر يوماً في أن المحرقة ستتكرر، لكن الفظاعة تكررت في كوسوفو، ولا تزال تتكرر كل يوم. إن جزءاً من التزام

الشـاعر يقتضـي تصوير هـذه الفظاعة». كما يعتقد أن «العنصرية لطالما وُجدت في أوروبا، ولكن لا يخطر لأحد منا أن يتساءل عن العنصرية في الكاريبي أليس كذلـك؟ يدّعـون فـي إيرلنـدا أنهـم لم يواجهـوا يوماً مشـكلة معـاداة اليهـود. كلا، بالطبـع! فهـم لم يدعوا اليهود يدخلون يوماً! في هذه الحالة، لن تكون هناك عنصرية في فرنسا أيضاً لو لم يسمحوا للجزائريين أو للأفارقة بالدخول».

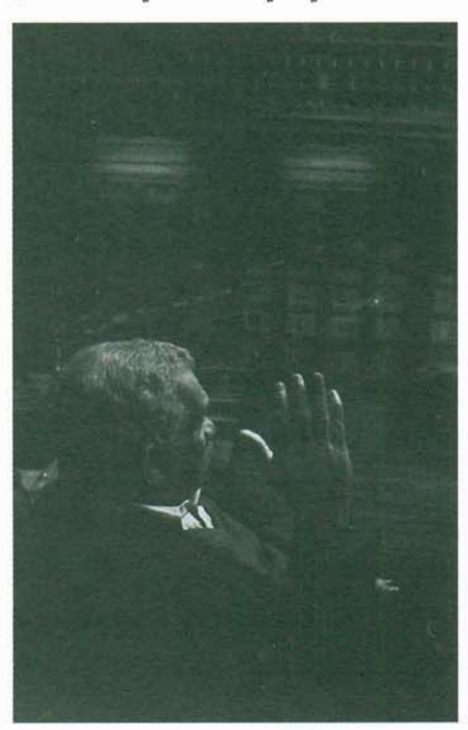
يحتقـر وولكـوت المبادئ المسـتعملة، فهو مثلاً يؤكد قائلاً: «بالنسبة إليّ، حين سـمعتك تتحدث عن الاندماج، اعتبرت أنك تسـتخدم كلمة أجنبية. تفاجئك فكـرة اختـلاط النـاس، لكننا لا نتحدث عـن الاندماج بصفته اسـتعماراً سياسـياً، بل هو أمر نعيشـه يومياً في الشـارع، حيـث تتعايـش عائـلات صينيـة وهندوسـية وإفريقية بشكل طبيعي، فهو ليس تعبيراً نطالب به، وإنما نَصف به. أنا لا أعرّف عن نفسي على أنني ضد البيض، بل أنطلق من المزيج كحقيقة موجودة منذ نشوئنا».

كيـف غيرتـك جائـزة نوبـل التـي حزت عليها في العام 1992؟ «يسـعدني أنني حصلت عليها حين أمسيت ناضجاً بما يكفي كي لا تؤثر فيّ سلباً. حين



القضية: نحو ولايات متحدة جديدة

نسأل وولكوت عن الالتزام الاجتماعي في أعماله فيجيبنا قائلاً: «الشعر وطن أسمى. لا يمكن للكاتب أن يتهرب من مسؤولياته الاجتماعية، لكننا في الوقت نفسه لسنا مؤهلين لنعطي رأينا في كل شيء كما يعتقد الكثيرون. وبالرغم من أن عملي هو صياغة الكلمات والجمل، إلاّ أنّ هناك صحفيين يُخضعونني لاستجوابات جديرة بخبير في العلاقات الدولية. بصفتي شاعراً أستعمل ذاكرتي محولاً إياها إلى حنين، إلى عنصر عاطفي». الخلاصة، إن وولكوت يحاول التوفيق بين حريته الشعرية وارتباطه الشديد بالتاريخ.





تحصـل علـى جائـزة النوبل يصبح هنـاك اهتمام كبير بأعمالـك، لكـن المهـم ألا تدعـه يؤثـر فـي عملـك. لحسـن الحـظ، إننـي أعيـش جـزءاً كبيـراً مـن السـنة معـزولاً فـي سـانتا لوثيا، وهو ما يوفـر لي الكثير من السـكينة والوقـت لأعمـل. وفي كل مـرة يجلس فيها المـرء وأمامـه الأوراق البيضاء يعود إلى نقطة الصفر، فتزول أهمية ما سبق».

لـم يكـن الوقـت الأفضل لنـزوره في سـانتا لوثيا، لأن وولكوت أبدى اسـتعداده لاسـتقبالنا في بروفا عامة لأحد أعماله في ترينيداد من جهة، ولكنه من جهة أخرى طلب منا عبر مكالمات هاتفية لاحقة أن نعوض له لاحقاً اليوميـن اللذيـن كنا سـنمضيهما معه، معلقـاً: «لأن وقتي ثميـن جـداً، فمـع أنني أحبذ أن أمضي الوقت معكما إلا أن ذلك سـيعيقني عن العمل». (يجدر التوضيح أنه كان الطلـب الوحيـد الـذي رفضنـاه فـي مقابلاتنا مـع الأدباء الفائزيـن بجائـزة نوبـل). علـى كل حـال، لـم يكن العام 2009 عاماً جيداً بالنسبة إليه، حيث رفض التقدم لمنصب بروفيسـور في أوكسـفورد بسـبب الفضيحة الجنسية التي سببتها رسائل من مجهول تتهمه بالتحرش الجنسي بطالبة من هارفارد في العام 1982. أبدى وولكوت الاستياء أمام هذه الطرائق الدنيئة لتشـويه سـمعته» التي اتبعها خصومه الأكاديميـون. رافقتـه زوجتـه الحالية إلـى أوفييدو، وهي بابتسامتها الدائمة ولطفها لم تتوقف عن مشاركته المزاح. وبالرغـم مـن ذلـك، حين تطرقنا إلى حياتـه الخاصة في لقائنـا في برشـلونة، اكتشـفنا جرحاً عميقـاً عند الكاتب، فقال: «مجرد فكرة أنني تزوجت ثلاث مرات تؤكد أنني لسـت زوجاً جيداً، أليس كذلك؟ لعله أقل جزء يعجبني في حياتي». على كل حال، هناك مشـكلات أخرى؛ في كلٍّ مـن أوفييدو وبرشـلونة حدّثنـا وولكوت من دون أن يحصل على أي مقابل مادّي.

تحـدث وولكـوت أيضـاً عن **صـوت الغروب**، وهو كتاب يجمع مقالات مختلفة من تأليفه، فيحلل، مثـلاً، أعمـال كتّـاب مختلفين مـن أصدقائه كجوزف برودسـكي أو روبـرت لويـل أو سـياموس هينـي. «أسـتصعب مصادقة كتّاب يبالغون في أخذ شـهرتهم على محمل الجد. ستدوم صداقتي مع هؤلاء الكتّاب لأنهم متواضعون في أعمالهم، وأيضاً لأنهم يمتلكون الكثيـر مـن روح الدعابة وبعيدون عن التصنّع». يذكر من بيـن كتّابه الإسـبان واللاتينييـن المفضلين لوركا وماتشادو وأليكساندر ونيرودا وفاييخو.

أورهان باموق





«لست مختبئاً، أنا أعيش في إسطنبول».

تحوّل أورهان باموق - الكاتب الذي استطاع أن يحمل القرّاء من شتّى أنحاء العالم ليتجولوا في شوارع إسطنبول ويشعروا بروحها - رغماً عن إرادته إلى رمز للحرية، فبعد تهديدات القوميين المتطرفين من الأتراك، يجد الدعم في الدعابة ليتابع إنتاج عالمه.



فـي الطائـرة التـي تحملنـا إلـى مطـار أتاتورك، كان هناك أربعة من بين كل خمسـة مسـافرين يقرأون الكتـاب نفسـه: **إسـطنبول. مدينـة وذكريـات**؛ العمـل الأخير لأورهان باموق. ترك رجل جالس إلى جانبنا، في العقد الخامس من عمره الكتاب لفترة وجيزة فوق حقيبة أعماله، وابتسم لدى رؤيته مضيق البوسفور من نافذته ومآذن الجوامع مستدقّة الرأس.

في اليوم التالي، تنزّهنا في حي سيهانغير حيث كتب باموق كتابه **إسـطنبول** ومعظم أعماله الأخرى، وعند الساعة الموعودة صعدنا السّلّم إلى حيث توجد شـقته (إذ لـم يكـن بإمـكان أحـد اسـتعمال المصعد باستثناء أولئك الذين كانوا يملكون مفتاحاً خاصًا به) فوجدناه بانتظارنا أمام الباب كصالح خيّر في معتزله. كان طويلاً، طويلاً جداً وباسم الثغر.

أول صـورة تنطبـع فـي ذاكرتـك عن شـقته هي صورة البهو، حيث يمكنك أن ترى كل أبهة البوسفور مـن خـلال زجـاج عريض يسـود غرفـة الطعام حيث يشـعر الزائر للحظة أنه مولود حديث يمد رأسـه إلى العالم. كانت الشقة التي استقبلنا فيها هي الاستوديو الخـاص بـه، أمـا منـزل العائلـة في حي نيسانتاسـي، والمبنيّ في حديقة قديمة لأحد الباشاوات، فهو على بعـد «28 دقيقـة مشـياً مـن هنـا». تمثل هـذه الدقائق الثماني والعشرون الكون الذي يعيش فيه باموق، وهو الذي عاش «دائماً في إسطنبول، بل حتى في المنزل نفسـه منذ خمسـين عاماً. لطالما قالت لي أمي لمَ لا تخـرج قليـلاً؟ لكنني ظللتُ فـي المنزل. أفضل حتى



الآن أن أبقى هنا وأكتب. هناك كتّاب غيروا لغتهم أو أمتهم أو ثقافتهم أو بلادهم، أما أنا، فلطالما عشتُ هنا في الشارع نفسه، أتشرّب بعينيّ المنظر نفسه، وأحصي القوارب التي تمر. أنظر عبر هذه النافذة، وأشعر للحظات أنني لا أحتاج إلى شيء آخر لأشعر بالسعادة».

عند سماعك قهقهاته العالية تكاد تنسى أن باموق مهدد بالموت، فمنذ أن صرّح عن أمر يمكن إثبات صحته بكل موضوعية وهو أن «أكثر من مليون أرمنيّ وثلاثين ألف كرديّ قُتلوا على هذه الأرض ولا يتجرّأ أحد تقريباً بالحديث عن ذلك»، أصبحت حياته جحيماً. فلقد اتهموه بتشويه سمعة الهوية التركية. وأخيراً، وبعد ضغط عالميّ شديد، وُضعت قضيته في الأرشيف بعد جلسات محاكمة عدة، لكنه تحت أنظار القوميين المتطرفين من الأتراك، لذلك يحتاج إلى حارس شخصي حين يخرج إلى الشارع، ويقول متحسراً. «مع أنني لا أحب ذلك، إلا أن الحكومة تعينهم لي. لا أريد أن أبالغ في ما يحدث؛ ليسوا موجودين الآن لأن هذا مكان عملي».

لا يريد باموق «إضاعة الوقت في إنكار الأكاذيب التي تنشرها صحافة المشاهير»، لذلك لم يتحدث عن الخبر الذي نشرته صحف في كل أنحاء العالم عن نفيه المزعوم إلى الولايات المتحدة. «أنا هنا، أعيش بصحة جيدة وأقفز، كما تريانني، لست مختبئاً. ما الذي حدث في شباط؟ اغتالوا صديقي الصحفيّ الأرمنيّ هرانت دينك، وساد جو ضبابيّ



من القومية والعنصرية الشديدتين. أخذ اسمي يتردّد بصفتي ضحيّة مستقبليّة، وبعد الحديث إلى الشرطة قررت أنه من الأفضل أن أذهب لبضعة أسابيع إلى جامعة كولومبيا في نيويورك حيث أدرّس بعض الصفوف، وذلك لأشعر بأمان أكبر، ولأتمكّن من العمل بهدوء على كتابي الذي يكاد ينتهي. المهم أنني عدتُ بمجرد انجلاء جو العنف هذا. أنا أعيش هنا، ويمكنكما إخبار العالم بهذا، سيسعدني ذلك لأنني مستاء من صحف المشاهير التركية التي تحول الإشاعات إلى أخبار، ومن الصحافة الغربية كذلك لأنها تكرر الأخبار من دون التأكد من صحتها. هناك صحفيون يرغبون بكتابة جملة باموق في المنفى، فيفعلون ذلك ببساطة».

لا يبدو باموق منزعجاً، بل يحاول أن يرى الجانب الطريف في ذاك الوضع. وبينما كان يحضّر لنا الشاي في مطبخه الفوضوي كمطابخ الطّلاّب، خطّطنا للقيام بنزهة في المدينة مع هذا الرجل السعيد. وحين أخبرناه عن خطّتنا هذه تردّد للحظة ثم قال ضاحكاً: «همم... إذا أردنا القيام بنزهة، فعلينا الاتصال بالحارس الشخصي. لا، لا، أتعرفان ماذا سنفعل؟ سنخرج بمفردنا لأنهم، بجميع الأحوال، سيطلقون عليكما النار أولاً معتقدين أنكما حارساي الشخصيّان!». جعلنا نمر في طريق هادئ: إذ لم تكن هناك أماكن سياحية، ولا ازدحامات، ولا بازارات... اقتصرت نزهته معنا على شوارع حيّه حيث اعترضته العناقات وصيحات التشجيع والتصفيق بين الفينة والأخرى.

بجميع الأحوال، لم تُسكت التهديدات الكاتب، فيقول شاجباً: «قانون العقوبات التركي لا يزال يدين الإضرار بالهوية الوطنية التركية». ومع أن عدد الكتاب والصحفيين الذين يُحاكمون بسببه يقلّ بعد احتجاجات مؤسسات دولية قانونية... إلا أن القانون لا يزال موجوداً! هناك من ذهب إلى السجن، وهناك من تعرض للضرب بالبيض والحجارة، وهناك من اغتيل. هناك العديد من الكتاب الذين ينتابهم الخوف؛ علينا أن ندرس كيف تم التعامل مع الصحفيين الذين اغتيلوا في بعض الوسائط التي اعتبرتهم أهدافاً مقصودة. ظروف حرية التعبير سيئة في تركيا».

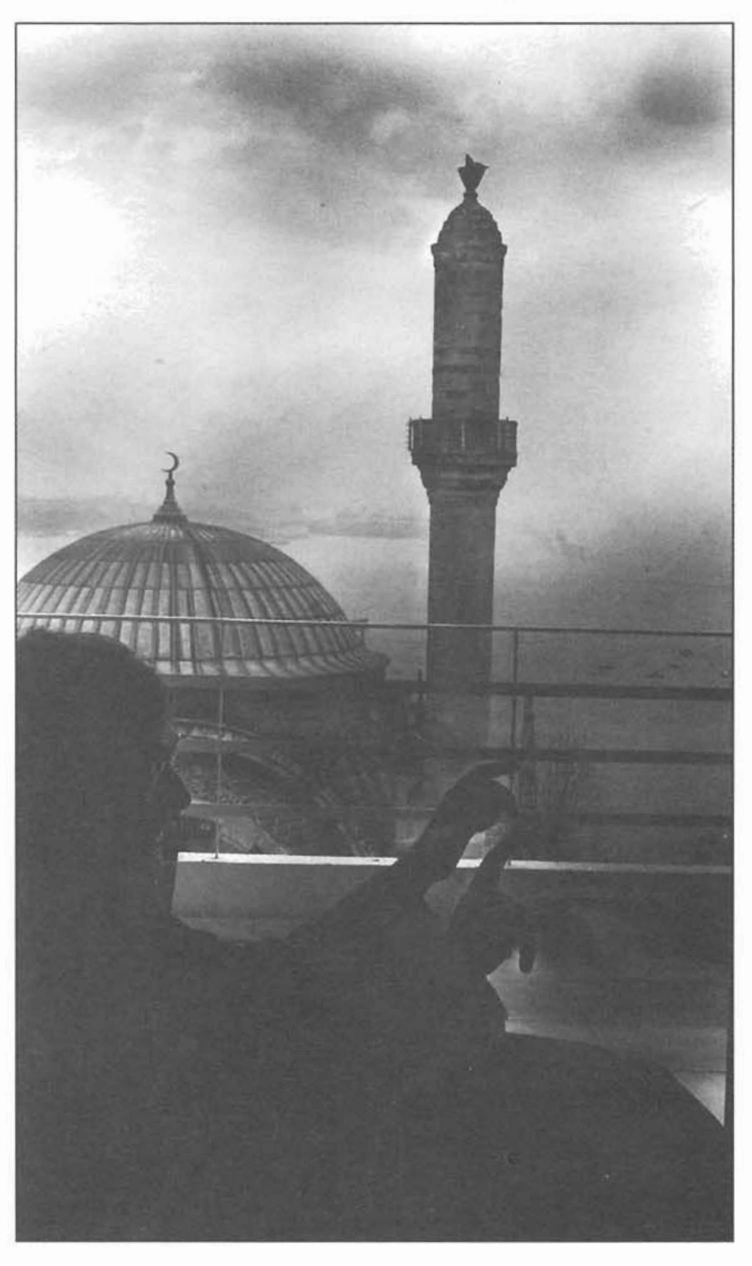
ثم يضيف: «استخدموني كما لو كنت سلاحاً قذّافاً في خضم النزاعات بين الاتحاد الأوروبي وتركيا.

أرادت بعض الوسائط المثقفَ الملتزمَ الذي لا أمثله أنا حقيقةً. انتبها، لستَ نادماً على شيء مما قلته. غالباً ما يبدأ الجدل حين يقوم صحفي بطرح أسئلة عليّ. إذ أحاول الإجابة عنها بصدق، وربما بسذاجة، وبعدها، تأخذ صحافة المشاهير التركية بعض الجمل وتبالغ فيها، وتبدأ الأخطاء. هذه اللحظات هي بمثابة اختبار لي؛ مثلما يحدث الآن. عليّ أن أتمكن من الحفاظ على كرامتي، فلا أريد أن أقول أنا خائف، سأختبئ تحت السرير. لكن فطرتي الأساسية ليست سياسية، بل أدبية: ما أرغب به هو أن أكون وحيداً في غرفة أخترع فيها القصص».

بينما كان يشتري الأرضي شوكي من بائع متجول، وهو يتذكر أن إسطنبول مسرح لكل الكتب، سألناه إن أغوته يوماً مدينة أخرى ليكتب عنها، فيعترف قائلاً: «هذا العام قمت بذلك للمرة الأولى، حيث كتبت اسكتشات صغيرة عن نيويورك؛ المدينة حيث ألقي المحاضرات».

كتب باموق بتفرّد عن الهوزون، وهي السوداوية الفريدة التي تعكسها شوارع إسطنبول. يؤكد قائلاً: «لا أشعر بالحنين، فكل ما يهمني هو الاحتفاظ به أضعه في كتبي، وهكذا لا يضيع؛ هذا ما سأورثه إلى الأجيال القادمة. حسناً، عليّ ألا أكون نرجسياً إلى هذا الحدّ لأنني أخشى أن يمحوَ المستقبل أثر الكتّاب الجيّدين والسّيئين على حدّ سواء».

ينام باموق عند الساعة الحادية عشرة كل يوم، ويقول: «لكنني مع التقدم بالعمر، لم أعد أستطيع النوم بشكل متواصل، لذلك أنهض بعد أربع ساعات كرجل عجوز. عندها، أعمل لمدة ساعة وأنا بلباس النوم، ومن ثم أعود إلى السرير. أكتب بشكل متواصل، طوال اليوم، وأكتب بيدي دائماً. حين يخيّم الظلام ينتابني الجوع، فأذهب إلى المطبخ وأحضّر بعض المعكرونة، وأحضر كأساً من الشراب، وبعد الطعام أعود إلى المائدة. لا أريد الذهاب إلى المطاعم، ورؤية أشخاص آخرين. كل ما أريده هو الكتابة؛ لقد تحوّلت إلى شخص انعزاليّ. أفضل الأوقات بالنسبة إليّ هي عند السابعة صباحاً حين أراجع في السرير ما كتبته في الليلة السابقة، وأفكر في الرواية التي أرغبُ بكتابتها وأنا نشيط الذهن، وسعيد كالأطفال».





القضية: نحو التعددية في تركيا

إن تصريحاته عن المجازر بحق الأرمن والأكراد التي ارتكبها الجيش التركي، أشعلت أكثر المشاعر السياسية انحطاطاً في تركيا الحالية. وبعد تحوله رغماً عن إرادته إلى رمز لحرية التعبير، فإنه كثيراً ما يتناول أيضاً مسائل أقليات بلاده. «الموضوع قديم. في الخمسينيات، تملّك العنف إسطنبول لأن الحكومة لم تستطع السيطرة على الكتل الشعبية التي كانت تستغلها بطريقة عنصرية: نهب الناس مؤسسات اليونانيين والأقليات الأخرى، ودمروا الكنائس وقتلوا القساوسة...».

يطالب باموق بالتعددية، فيقول: «في العام 1852، لاحظ الكاتب الفرنسي تيوفيل غوته أن الناس في شوارع إسطنبول يتكلمون التركية واليونانية والأرمنية والإيطالية والفرنسية والإنكليزية. جاء تتريك إسطنبول عنيفاً، حيث نفذت الدولة نوعاً من التطهير العرقيّ في المدينة قلّص من وجود كل هذه اللغات. أذكر في طفولتي أنهم كانوا يُصمتون الأشخاص الذين يتحدثون اليونانية أو الأرمنية في الشارع بصوت عال، فيقولون لمن يتحدّث بغير التركية: أيها المواطن، تحدث بالتركية! كما انتشرت ملصقات في كل مكان تحمل الرسالة ذاتها».

اعترف باموق في الشارع، أمام ملصق عن كرة القدم، أنه يشجع فنار بخشة، وهو من إحدى فرق المدينة الكبيرة الثلاث، إلى جانب غالاطا ساراي وبشكطاش. وفجأة، تحوّل الحديث من بطولة الدوري إلى السياسة: هل يجب على تركيا الدخول في الاتحاد الأوروبي؟ يشعر باموق «بعدم الرضا عن العملية. كل الأتراك غاضبون لأن الأمر لا يسير على ما يرام. وفي الوقت ذاته وبشكل متناقض، لعلّ عدم حصوله يسعد الأتراك أيضاً. مع الوقت، تتّناقص رغبة أوروبا بتركيا، ورغبة تركيا بأوروبا».

بالرغم من المقاومة الشديدة لبلاد مثل فرنسا، يذكرنا باموق قائلاً: «في إسبانيا، يشعر المثقفون وغيرهم من الناس أنهم أشبه بالأتراك منهم بالفرنسيين. وأفضل تعليق سمعته كان في برشلونة، حين قالوا لي وأنا مع خوان غويتيسولو أورهان: بما أنهم قد ضمونا إليهم، فسيأتي دوركم أنتم أيضاً. أتمنى أن يحصل ذلك».

- ولكن، هل تشعر أنك أوروبي؟

- لا أدري. لا أفكر في الأمر بهذه الطريقة؛ أشعر أولاً بأنني تركي، والتركي يشعر بأنه أوروبي وغير أوروبي في آن معاً. أعتقد أن أوروبا لا تقوم على المسيحية، وإنما على النهضة والتنوير والحداثة والحرية والمساواة والأخوة... هذه أوروبا التي أحبّها. أثق بهذه القيم، وأريد أن أشكل جزءاً منها. لكن، لو أن أوروبا هي لحضارة المسيحية، فأنا آسف جداً يا صديقي... نحن الأتراك سنبقى خارجاً».

يجمع باموق الكتابة مع المصداقية الجذرية التي تجعله يعترف أنه من المحتمل أن يعاني من الغيرة وغيرها من الخصال السيئة في شخصيته، والتي سببت له مشكلة مع أخيه. «قال إنه لم يحب الأجزاء من **إسطنبول** التي ذكرتُ فيها ضربه لي. أنا أقدره وأحترمه، فهو شخص جيد ومؤرّخ اقتصادي ذو شهرة عالمية، لكن أحداث كتابي حقيقية، ولا أنوي تخبئتها تحت السجادة، لذلك اضطررتُ إلى إيذائه قليلاً. في ذلك الوقت، كان من الطبيعي أن تضرب أخاك، ولا يزال الأمر طبيعياً في بعض بلاد حوض



المتوسط، فكل أبناء ناشريّ في إيطاليا يفعلون المثل الآن. لقد ترك ذلك أثراً في روحي ولديّ الحق الأخلاقي في الكتابة عن حياتي».

الغيرة التي لطالما شعر بها تشير إلى «فكرة أن مَن في الغرفة المجاورة، في مكان آخر، وفي ثقافة أخرى، وفي بلد آخر، ينعمون بأشياء أكثر إغراءً وغنىً وإثارة للاهتمام مما أحظى به». حتى حين أصبح أباً (عمر ابنته الآن خمسة عشر عاماً)، شرح لنا قائلاً: «استغرقتُ وقتاً طويلاً لأعامل الرضيعة على أنها رضيعة. أتحدث عن ذلك في كتابي القادم **ألوان أخرى** الذي يضم مجموعة من نصوصي القصيرة: في البداية، شعرت بغيرة شديدة من اهتمام زوجتي بها. أردتُ أن أصبح أنا الرضيع، ورغبتُ بالحصول على كلّ اهتمام الأم، وحين توجه هذا الاهتمام إلى ابنتي غضبتُ. كما أنني لم أعرف كيف أتحكم بهذه المسؤولية».

في هذا السياق، «لعل أكثر الكتب التي أثرت فيّ هو **اعترافات** لجان جاك روسو، إذ دفعني لقصّ حقيقة كياني وليس الحقيقة الأكبر. لا تهمني وثائق السي آي أيه أو الكيه دجي بي السرية، ولا الحقائق التاريخية المخفية. ما يهمني هو الحقائق التي لم تُكشف عن البشرية. ولاكتشافها؛ فإنّ كل ما علينا فعله هو استكشاف دواخلنا بصدق ووضوح وبراءة وبساطة. تكمن أهمية الأدب في إظهاره أموراً نعرفها كلنا، وفي جعل الشخصية الإنسانية تظهر للعيان».

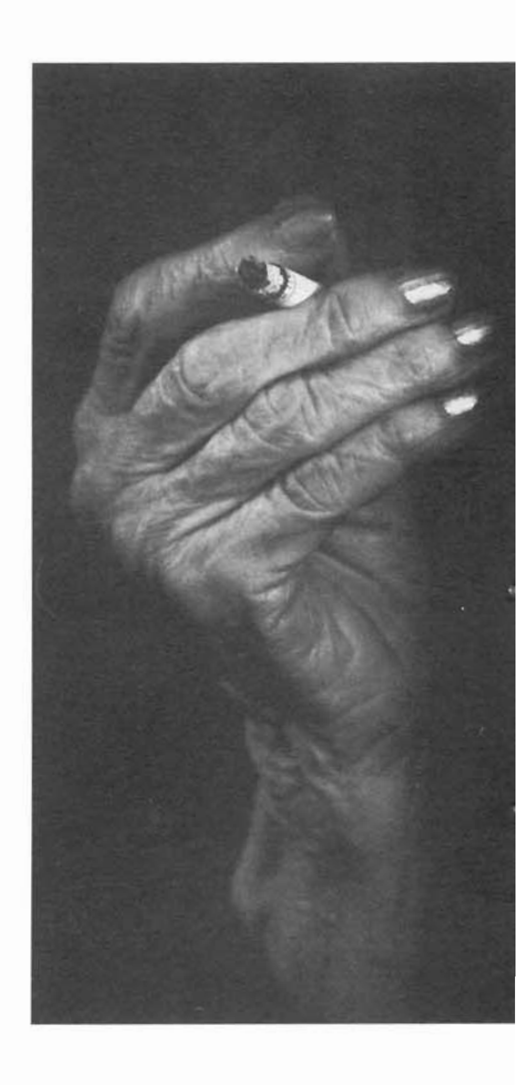
يتحدّر أورهان باموق من عائلة فوق متوسّطة مادياً، ويقول أورهان عن ماضيه كطالب يساريّ: «أذكر توقاً إلى المساواة والأخوة، وكرهاً للمتغطرسين من طبقات المجتمع العليا الذين ينظرون باحتقار إلى المعتقدات الثقافية والطبقات المحرومة. تزعجني عجرفة النخبة، فهم يحكمون هذه البلاد بالتفاخر والغطرسة، ويدمرون الديموقراطية والثقافة، مثلما تفعل حماقات الغرب في العراق وبلاد أخرى... السلوك المتعجرف والمتغطرس نفسه للذين يحكمون العالم».

بعد النزهة، عاد هذا الرجل البالغ طوله مئة وتسعة وثمانين سنتمتراً إلى العمل («تبالغ صحف المشاهير في طولي، إذ إنه لا يبلغ مئة وتسعين سنتمتراً!») في الاستوديو خاصته حيث تنتظره الأوراق المكتوبة بخط اليد لروايته الجديدة **متحف البراءة** التي يعرّف عنها قائلاً: «إنها عمل راديكالي وطموح عن إسطنبول منذ عام 1975 وحتى اليوم. وتتناول الحب الذي يشعر به رجل غني تجاه قريبة فقيرة من أقاربه البعيدين. إنها استكشاف جريء، ومحاولة لتقصّي معنى الحب: ما الذي يحدث في داخلنا حين نقع في الحب؟ إنها تدور حول عذاب الحب الذي أعرفه جيداً. يا له من عذاب!».

قرر باموق حين بلغ الثالثة والعشرين من عمره أن يصبح مؤلفاً وحبس نفسه في غرفته. استغرق ثلاث سنوات في كتابة كتابه الأول، وأربع سنوات في إيجاد من ينشره له. «لم أكسب نقوداً حتى بلغت الثلاثين من عمري، حين بدأ مستوى كتابتي يتحسن». انتاب القلق أمه، لكنه وثق بنفسه، ويقول: «أورثني أبي ثقة كبيرة بالنفس: حين كنت أخربش وأنا في الخامسة من عمري كان يصيح: هذا الطفل عبقري! وصدقتُ ذلك بالطبع... وها أنا ذا هنا». لا يزال في غرفته، ولا يزال في إسطنبول.

ويسلاوا زيمبورسكا





«لا نعرف شيئاً؛ هذا هو ما يُذهل».

الشاعرة البولندية ويسلاوا زيمبورسكا الحائزة على جائزة نوبل للآداب في العام 1996 تكتب كما تعيش: بتقشف، باحثة عن الكلمات اللازمة لقول ما يكفي. بُعدُ نظرها وقدرتها على تجاوز العصور يجعلانها مرجعاً لجيل الشباب.



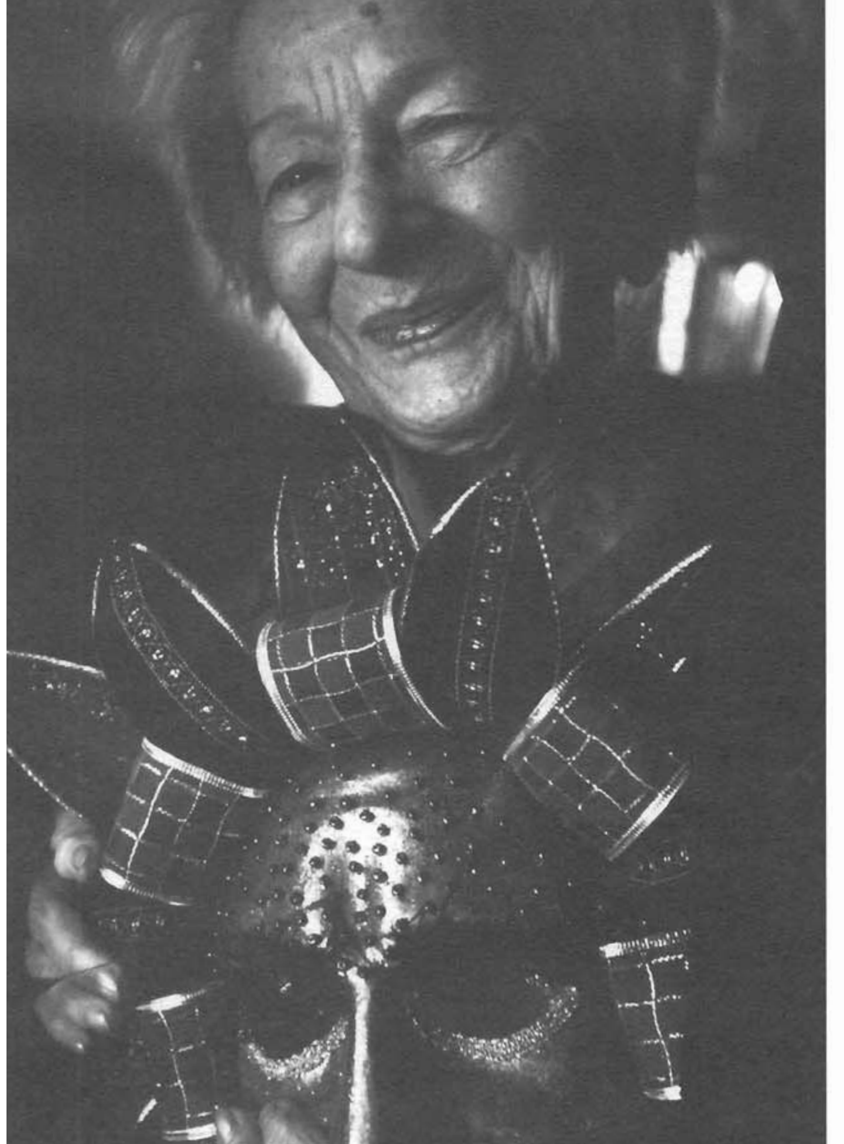
الجـو بـارد. سـافرنا إلى البـلاد التي يكتب فيها الشـعراء وهم يلبسـون القفـازات، ودليلنا الوحيد هو ديوان شعر لويسلاوا زيمبورسكا. قرأنا فيه أن الشعراء هنا في مملكة بولندا القديمة «يتغنّون بالحياة البسيطة لرعاة الفقمة بأبيات مؤلفة من صيحات مجلجلة». إذا اجتاح الحزن أحدهم، فلن يجد الأمر سهلاً: «من يُرِد الغرق فعليه أن يملك شعلة يحفر بها الأرض».

لقد أخبرونا أن كراكوفيا، وهي واحدة من أكثر المدن أدباً في أوروبا، مليئة بالكتّاب، لكننا نبحث عن واحدة فحسب. صفاتها: امرأة في الثالثة والثمانين من عمرهـا، حـازت علـى جائـزة نوبل لـلآداب في العام 1996. تعيش هنا، في كراكوفيا، منذ العام 1931.

قـال لنـا آبيـل مورثيـا مديـر معهـد ثربانتـس فـي بولنـدا حيـن عرضنـا عليـه صورتهـا: «أعرفها، فقـد ترجمتُ أعمالها إلى الإسبانية. أتقولان إنكما تريدان إجراء مقابلـة؟ هذا صعـب يا صديقيّ؛ لا تحب أبداً الحديث عن نفسها».

كان طريـق زيمبورسـكا يبعدنـا عن وسـط المدينة. لن تجد أي سـائح يقترب مـن مجموعـة الشـقق الهادئـة التي تقطن شاعرتنا في إحداها. هذا الحي المتواضع الـذي نجـول فيـه الآن فـي سـيارة أجـرة – وهـو الحـي نفسـه الـذي تقطن فيه من قبـل أن تصبح مليونيـرة بفضل الأكاديمية السـويدية – يتألـف مـن أبنيـة شـاهقة، رماديـة اللون، تصل بينها شـوارع اختفت منهـا كل الشـعارات التي تجذب السـياح إلـى كراكوفيـا، وهـي واحـدة مـن أجمل مـدن أوروبا ومدرجـة على لائحة الإرث الإنسـاني منـذ العـام 1978. كما أنه ليس بإمكانك أن ترى القلعة الملكية، أو سوق الأقمشـة، أو كاتدرائيـة سـانتا ماريا حيث يعزف أحد رجال الإطفاء على الترومبيت كل سـاعة خـلال سـاعات اليـوم... فمـا يحيط بزيمبورسكا هو الإسمنت.

هذه الجدة اللطيفة المولودة في العام 1923 فـي مدينـة كورنيـك الحاليـة، تعيـش في مكان شـديد التقشـف؛ يعطي انطباعاً بـأنّ المليون والمئتي ألـف دولار التـي منحتهـا الأكاديمية للمرأة البسـيطة التـي فتحـت لنـا الباب كان لها وقع سـيئ عليها بعد أن تخطّـت السـبعين، ونظّمـت حياتهـا. وقـد أخبرتنا لاحقـاً، «علـى الأقـل قـررتُ الاحتفـاظ بحميميّتي». دائماً ما تشير إلى النوبل بصفتها محل جزارة، وتؤكد بتواضـع: «لـولا جهود آندريه بوديغـار، مترجمي إلى اللغة السويدية، لما كانوا أعطوني إياها... ولكنتُ أكثر هـدوءاً الآن، مـن دون هذه الجبال من الرسـائل التي يجب عليّ الرّد عليها، وكل هذه المشاكل الاقتصادية،



والصفقات مع البنوك التي لم أختبرها قبلاً. لهذا، أقوم بصناعة الملصقات لأسترخي».

لم يكن الوصول إلى زيمبورسكا سهلاً، وحين وجدنا نفسينا أمامها جالسين على أريكة في غرفة طعامها، أوضحت لنا بعض الشروط:

- أولاً، لا أحب الحديث عن الشعر. ثانياً، لا أحب الحديث عن ويسلاوا زيمبورسكا، أي عني. وثالثاً لا أحب الحديث عن السياسة. ما الذي بقي لنا؟ يمكنني أن أحدثكما عن الحيوانات، وعن النباتات، وعن الحب قليلاً وعن الصداقة قليلاً، ما الذي تريدان شربه؟ ما الذي يفعله هذا السيد؟ أهو مصوّر؟ لا تصور يديّ لو سمحت، فهما فظيعتان، فلقد انكسرتا منذ ستة أشهر. لم أعد شخصاً تُلتقَطُ له الصور، ففي إمكاني الحديث جيداً، أما الصور...

في الوقت الذي ضحكت فيه زيمبورسكا وذهبت إلى المطبخ لتحضير الكؤوس، نظرنا نظرة خاطفة إلى مترجمنا مدير الثربانتس، فرأينا على وجهه نظرة يقول لنا من خلالها: «ألم أقل لكما...». لكن صاحبة البيت عادت على الفور بكؤوس مليئة، وشعرنا أنها في نهاية الأمر قد تنكث بوعدها لنتمكّن من إجراء مقابلة طبيعية معها. أشعلت سيجارة وتوجّهت إلينا بسؤال: «ألا تدخنان؟ يا سلام، هكذا ستعيشان طويلاً! تخيلا: أنا عمري ثلاثة وثمانون عاماً وأنا أدخن. وهكذا، فأنتما... ها ها ها!».

كانت ضحكة زيمبورسكا مُعدِية ومليئة بالحيوية وكأنها ضحكة طفلة. كشفت لنا قائلةً: «لدي الكثير من العيوب، وخصلة حميدة واحدة: الفضول لمعرفة كل شيء. هذا هو دافعي، وفي خطابي خلال استلام جائزة نوبل أجبتُ على أحد أسفار العهد القديم الذي يؤكد أنه ما من جديد تحت الشمس، بأنّ الحياة غنيّة بحيث إن كل شيء يطفح بالتنوع».

هكذا تتشاجر مع نفسها في قصيدتها التي لم تنشر بعد **قلة اهتمام**: «البارحة أسأت السلوك في الكون./ عشتُ اليوم كله من دون أن أتساءل عن شيء،/ من دون أن يفاجئني شيء/ قمتُ بأعمال يومية/ كما لو كان ذلك كلّ ما عليّ فعله».

عرضت علينا زيمبورسكا ملصقاتها: بطاقات صغيرة مصنوعة من قصاصات الجرائد والمجلات والأوراق... أعمالاً تتراوح بين البساطة والحدّة، بالنسبة إليها إنها طريقة للراحة، يهمها أن تعرف عن رحلتنا من إسبانيا، فهي لا تسافر تقريباً، وقد أخبرتنا قائلة: «لا أستطيع تعلم اللغات أبداً. يمكنني أن أقرأ الفرنسية والألمانية قليلاً، لكنني لا أتحدث



القضية: إنقاذ المحميات البيئية في أوروبا

هي محصّنة ضد الإيديولوجيات والنظريات المجرّدة (أخطائي حصلت في مرحلة الشباب)، في بدايات سنوات ما بعد الحرب، تعاطفت مع الشيوعية، بالرغم من أنها لم تصل إلى حدّ أن تصبح ناشطة. في أواسط الخمسينيات، اكتشفت أنها قد خُدعت إلى حدّ غيّرت معه أسلوبها في الكتابة. في الثمانينيات، انضمّت إلى الحركة السياسيّة النقابية تضامن بسبب مطالبتها بالديموقراطية، لكن الأحداث اللاحقة في بلادها لم تسعدها. وقّعت على عريضة ضد شقّ طريق سريع يخترق وادي روسبودا، «حيث تعشش طيور اللقلق السوداء، ويعيش النسر والذئب والوشق وغيرها من الكائنات المهددة بالانقراض؛ هي مستنقعات مدهشة، لكنّ ذلك لم يعنِ الحكومة في شيء بالرغم من توفر طريق بديل له. أخطر ما في الأمر هو أنه قرار غير ديموقراطي أبداً، فأغلب البولنديين يعارضون هذا المشروع». وبفضل ضغط زيمبورسكا والآلاف غيرها من المواطنين، بالإضافة إلى شكاوى الاتحاد الأوروبي، قررت السلطات البولندية في آذار من العام 2009 تعديل مسار الطريق.

إلا البولندية. وهكذا، حين أسافر، أعتمد كلياً على الشخص الذي يرافقني ولا يمكنني أن أتواصل بشكل مباشر مع الحياة في أي مكان، وهو ما يغضبني. أمضيتُ مرحلة من شبابي مع النازيّة حيث لم ندرس شيئاً، ومرحلة أخرى من شبابي أمضيتها مع الشيوعية التي لم تشجع كثيراً على التواصل مع الأجانب».

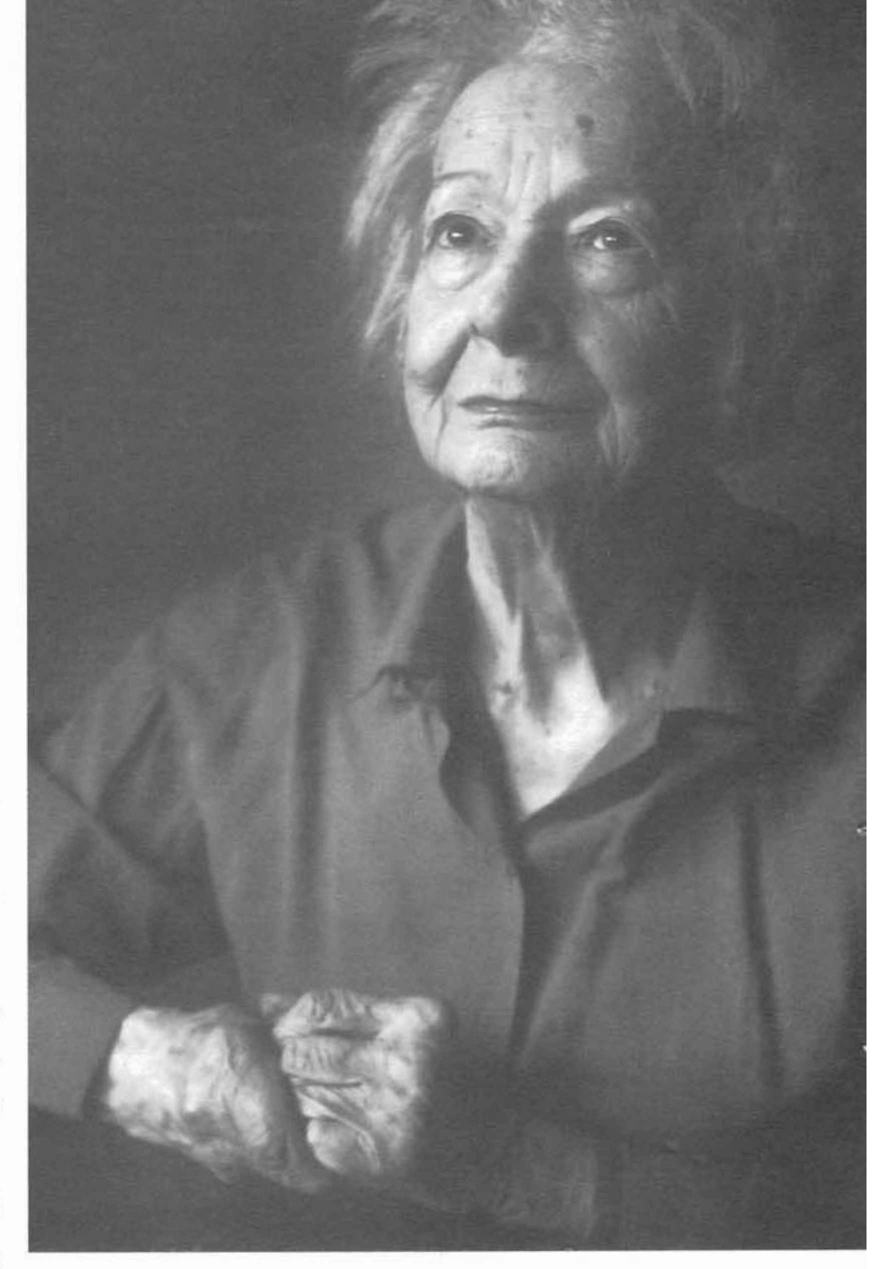
يذكّر معسكر الاعتقال القريب - وهو أحد أشهر أماكن الجذب السياحي في المنطقة - زيمبورسكا بالسنوات الأولى من الأربعينيات في كراكوفيا المُحتلّة، حين «منع الألمان البولنديين من الالتحاق بالمدارس الحكومية»، فاضطُرَّت إلى الدراسة في صفوف سرية، وعملت في الوقت ذاته في شركة للقطارات لئلا يضعوها في معسكر عمل.

هنا، في كراكوفيا، تحزننا أكثر من أي مكان آخر لامبالاة الأوروبيين تجاه حظ البولنديين، لأنك بمجرد المشي في شوارعها تجد أنها مدينة في أوروبا الوسطى مثل براغ أو فيينا، بينما تبدو العاصمة وارسو أقرب إلى أوروبا الغربية بشكل أو بآخر.

لم تتوقع زيمبورسكا أبداً نيل جائزة نوبل التي حظيت بها في العام 1996. عندها، كان شيزلاو ميلوز، وهو حائز آخر على جائزة نوبل (1980) من كراكوفيا، لا يزال على قيد الحياة، وقد توفّي حينها فائز بولندي آخر هو إسحق باشيفيس سينغر (1978) والذي كتب باليدية. لم تكن زيمبورسكا قد نشرت إلا دزينة من الكتب الصغيرة جداً، وهو عدد قليل جداً بالمقارنة مع غيرها ممن تاقوا إلى الجائزة من بلادها، إذ لم تكن كتبها قد ترجمت في كثير من البلاد - مثل إسبانيا - كما أنها ليست أكثر كتّاب بولندا انتشاراً عالمياً كما هو حال سانيسلو ليم مؤلف **سولاريس**، أو ريتشارد كابوسينسكي.

الاختصار والإرهاب والحاضر

لا تزال صفتها الاختصار، فديوانها **نقطتان** الصغير كذلك (ثمانون صفحة نستثني منها ستاً وعشرين صفحة في المقدمة) استغرق سنوات عديدة لينتهي. أتشعر أنها تكتب القليل؟ تعترف قائلة: «أنا



لا أعمل كل يوم؛ لستُ منظمةً أبداً».

لا يعتقد أحدكم أن هذه المؤلفة معزولة عن العالم، فهي تعترف أن «كل شيء سياسة، حتى القصائد غير السياسية».

الحاضر – «كلمة لا أطيقها» – قد اخترق مرات عدة صفحات زيمبروسكا. في كتابها **لحظة** المنشور في العام 2002 كتبت قصيدة عن الهجمات على برجي التجارة العالمية (صورة 11 أيلول)، تحدثت فيها عن الضحايا الذين رموا بأنفسهم في الفراغ من أعلى ناطحتي السحاب: «أردت تجميد تلك اللحظة. رأيتُ في صحيفة صورة لهؤلاء الأشخاص المتجمدين في طيرانهم نحو الموت، ومفاتيحهم وأشياء أخرى تتساقط من جيوبهم، وأردتُ فعل المثل في قصيدة؛ أي تجميد تلك اللحظة، لأحافظ على حياتهم. أيّ قصيدة هي لحظة».

لكنها اهتمّت بالإرهاب قبل ذلك بعقود في ديوان **إرهابي، يراقب** (1976) الذي يركز على ما يحدث في الدقائق السابقة للهجوم: «ستنفجر القنبلة في المشرب عند الثالثة وعشرين دقيقة./ الساعة الآن تقارب الثالثة وست عشرة دقيقة./ لا يزال بعضهم يملك الوقت ليخرج./ وليدخل غيرهم...». تشرح قائلة: «هذه هي طريقتي في الحديث عن السياسة. لا أحب الحاضر، لكنني أحب مظاهر الواقع التي نعرف أنها دخلت التاريخ بالرغم من أنها حصلت للتو، أكثر بكثير من الأخبار اليومية التي تلاحقنا منذ أيام قابيل وهابيل. انتقدتُ في كتابي الإرهاب في مرحلة اعتُبر فيها الإرهابيون في بلدي أبطالاً وأشخاصاً نبلاء ويستحقون المديح».

هكذا، ومن دون انتباه منّا، يهرب الحديث من سياقه الصحفي ليتحول إلى سياق شعريّ. وتؤكد لنا بإيماءة من يستطيع التحليق بين المجرات: «كيف أرى العالم اليوم؟ الأفضل أن أنظر إليه من الفضاء. حتى القرن العشرين، كان كوكباً أزرق يدور بصمت في الكون، لكنه الآن كرة هادرة. ألا تسمعانها؟ إنها تتكلم طوال الوقت، إنها فضائحية؛ كرة ثرثارة لديها الكثير من الكلمات! هناك الكثير من المعلومات التي تنتشر في أصقاع الأرض خلال دقيقتين، ولكن لو انتبهنا لوجدنا أنها حماقات، ومعلومات من دون أيّ أهمية».

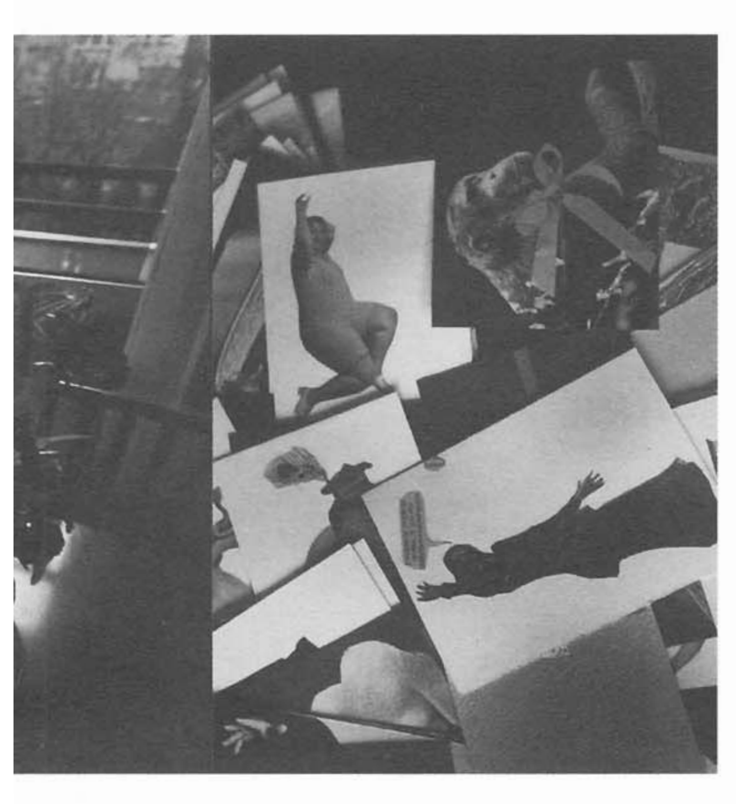
ذكرت لنا مثالاً قائلة: «من خبرتي الخاصة. كثيراً ما يضعون ميكروفوناً في فمي في حين أذهب إلى مكان ما، لأن أمراً قد حدث في أحد أجزاء الأرض،

ويسألونني: ما رأي حضرتك؟ وأجيبهم دائماً: أحتاج إلى التفكير فيه. فيقولون لي: لا، لا، نحتاج إلى إجابتك الآن. أقول: لكنني أحتاج إلى الوقت للتأمّل في الموضوع؛ قد أتمكن من إجابتكم غداً. ومع ذلك يرفضون دائماً! لا يستوعب منطقهم أن يحتاج أحد ما إلى يوم كامل ليفكّر في ما سيقوله عن أمر مهم. يوافق الكثير من الناس على الإجابة مباشرة، وتكون جملهم عادة منمّة عن غباء. أنا من الأشخاص الذين لا يزالون يعتقدون أنه علينا أن نفكر في كل شيء ولو قليلاً، وأن الانطباع الأول ليس دائماً هو الأدق والأفضل والأكثر تماسكاً. في الحقيقة، إنني أكتب بالطريقة نفسها: عليّ أن أسير وأفكر وأقلّب الموضوع وأنتقل من مكان إلى آخر...».

تحدثت بين الفينة والأخرى عن السياسة، ولو أنّ الأمر كان يحدث قليلاً. ومن المعروف عنها معارضتها للنظرة القوميّة والكاثوليكية إلى التوأم كازينسكي، وتؤكد قائلة: «الوضع السياسي الذي نعيشه غير مشجع أبداً. لم أتخيل يوماً أن وقتنا الحالي سيكون على ما هو عليه اليوم».

ثمّ تحدّثنا عن الظروف التاريخية التي تغذّي المشاكسين في بولندا: إنه بلد مُحي عن الخريطة مرّات عديدة، وعاقبته ألمانيا النازية وروسيا الشيوعية، لذلك تعشش في دي أن أيه كل بولندي شكوك مشروعة في بروكسل وجاراتها.

إنها لا تعتنق القومية، «ولا حتى البيئية. صفر لكل ياء نسبية! ليس علينا أن نستسلم أبداً لأفكار الجماعة. لا يمكن أن نصبح حشرة عالقة في الفلين وقد ألصق عليها اسم في الأسفل. من الأفضل أن نتمكن من الاستمرار في الطيران؛ في البداية أعجبتُ بالنظام الشيوعي، وكتبتُ قصائد عن الواقعية الاجتماعية، فقد اعتقدتُ حقاً أنها طريقة لتحرير الناس بعد أن عشتُ الاحتلال النازيّ؛ وهو الكراهية بأقوى أشكالها، وشعرتُ أن النقيض أصبح ضرورياً: أن تحب الناس كثيراً؛ هذا ما عنته لي الشيوعية؛ الحب الكبير للجميع من دون التمييز بأي شكل من الأشكال. بعد ذلك، فهمت أن حب البشرية ليس واجباً على الإطلاق،

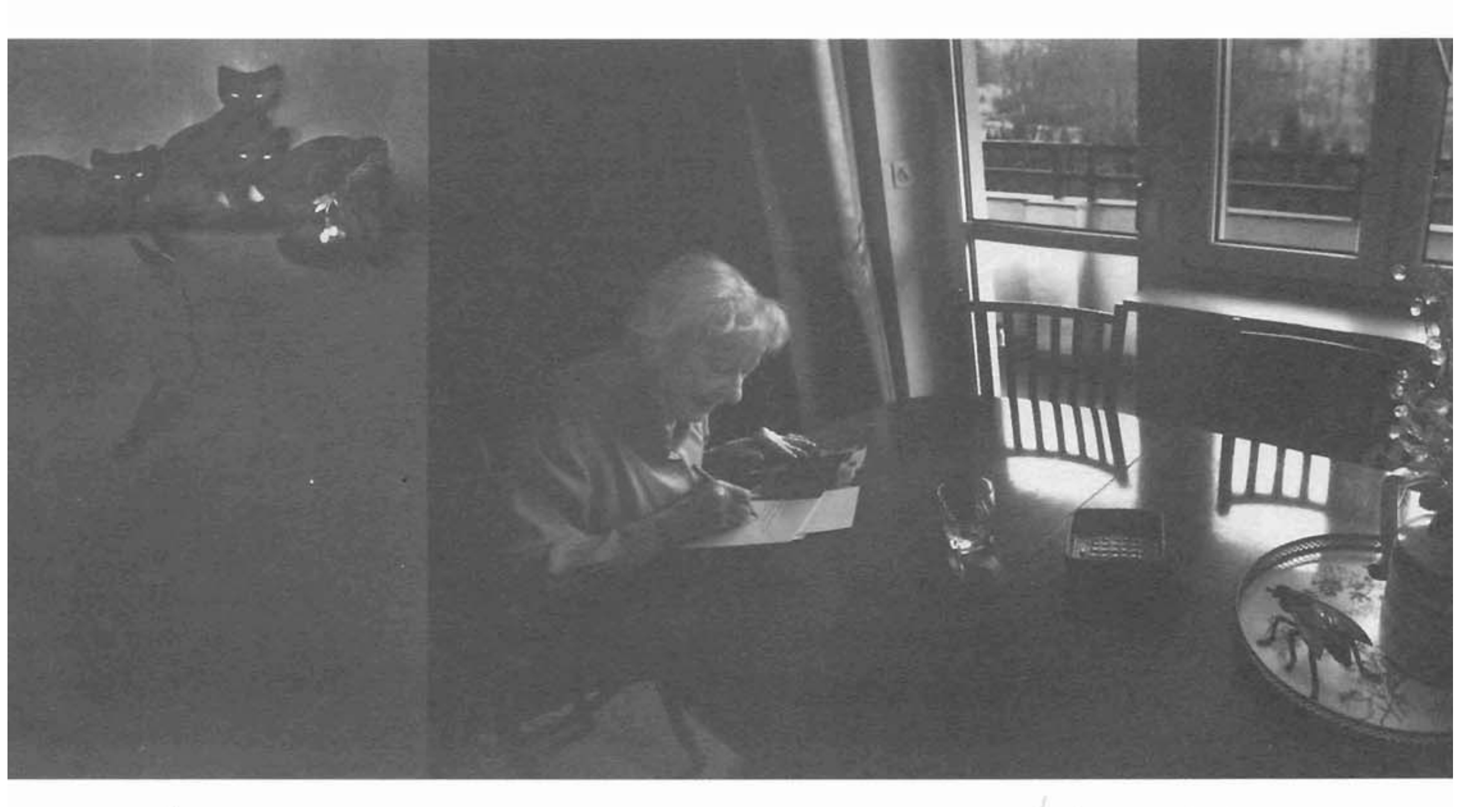


فهي لا تستحقه! يجب تقدير ما يحدث للبشر، وفهم ذلك، واختبار التعاطف معهم، وهذا يكفي. لسوء الحظ، إن هذا الحب الكبير للبشرية تنتج عنه دائماً أسوأ الأمور؛ جحيم حقيقي».

يستقرّ **دون كيشوت** على أحد رفوف مكتبتها. تسألنا: «ما رأيكما فيه؟ أعتقد أنه عمل هام جداً، لكنه قد تغير كثيراً مع مرور الوقت. حين نُشر قبل أكثر من أربعمئة عام كان كتاباً ممتعاً إلى حدٍّ كبير. أما في أيامنا هذه، فهو كتاب حزين، على الأقل بالنسبة إليّ. حين تغلقه تشعر بأنه قد ترسّبت في روحك بقايا مرّة، كما لو أن السخرية أصبحت عجوزاً، أليس كذلك؟».

إنّ الكثير من قصائد زيمبورسكا عبارة عن قراءات للتراث: كتب، ولوحات، ومناظر معروفة تنظر إليها من زاوية جديدة. «أقول للقارئ انتبه إلى هذا التفصيل. أحاول أن أُظهر أن الحياة غنية إلى ما لانهاية، حتى في الأمور الأكثر بديهية. كل شيء يتيح لنا على الأقل ست وجهات نظر: من الجوانب الأربعة، ومن فوق ومن تحت».

تُضحكها تفسيرات الآخرين لقصائدها، فتقول: «حين يقولون، مثلاً، إنني في قصيدتي عن رجل الثلج إنما أتحدث عن ستالين، أو حين يحاولون تحليل ما



يرمز إليه الحجر. هناك عادة مبالغ فيها، وهي القراءة بين السطور، والبحث عن رسائل سرية. لا تخبّئ قصائدي شيئاً. ولو أردتُ انتقاد التوأم كازينسكي فسأسميهما باسميهما، من دون أن أقارنهما برومولوس وريموس».

كثيراً ما نجد الحيوانات في دور البطولة في قصائدها. هي التي لا تملك حيواناً «لأن هذه شقة صغيرة في المدينة». وتقول: «ما من شعر من دون حيوانات أو نباتات أو حجارة، لأننا جميعاً معاً على سطح الأرض. يعجبني عمل باحثة الطبيعة جين غودول التي درست القرود كأفراد، واكتشفت لديها مزايا تشبه تلك التي تميزنا نحن البشر. إننا مختلفون دائماً».

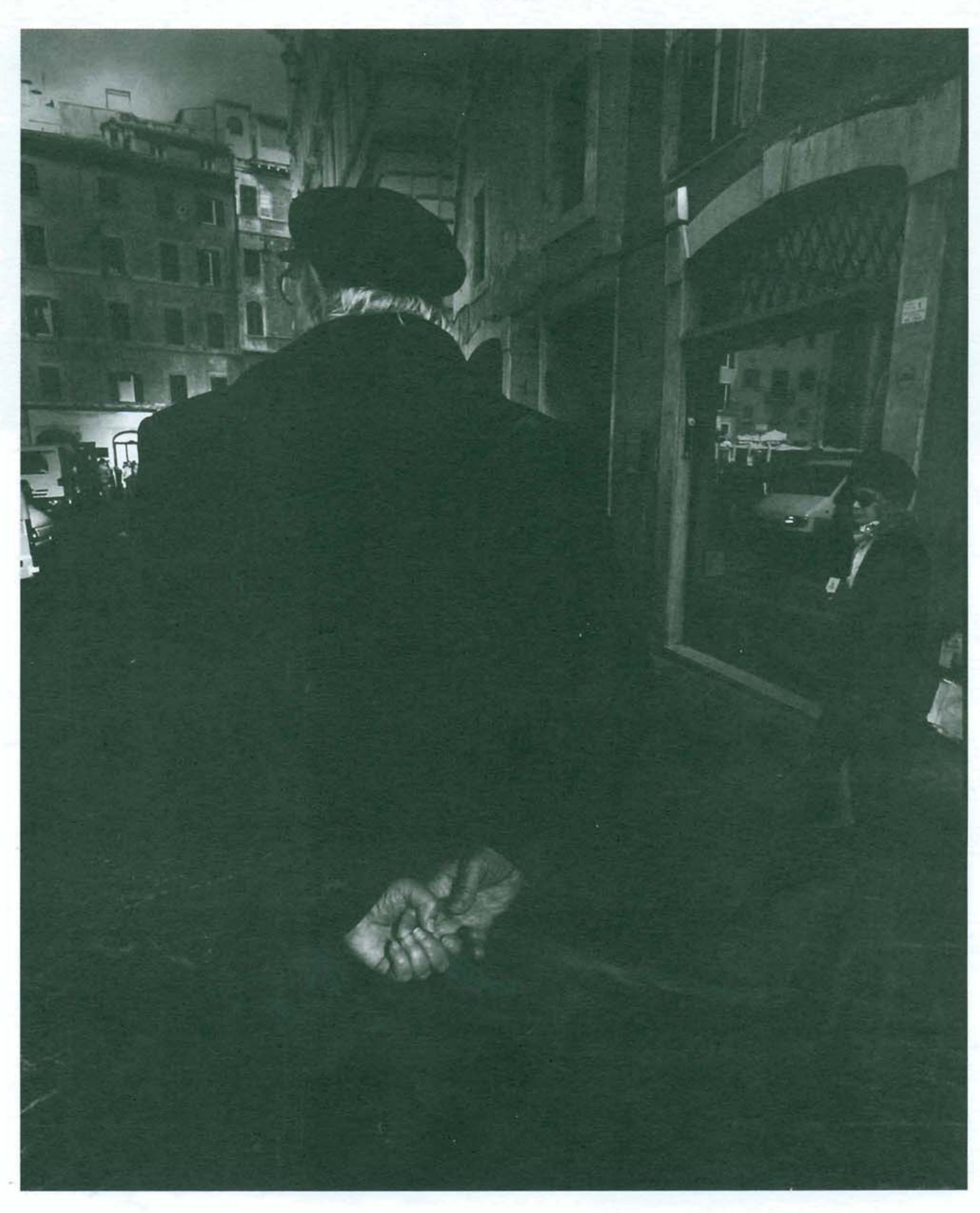
يردد الطلاب البولنديون في المدارس قصيدتها **قط في شقة فارغة**. وتكشف لنا أن «هذا القط - الذي عليه أن يعتاد على العيش في شقة لم يعد فيها صاحبه، إذ مات - جرح كبير في قلبي. أتحدث هناك عن ألمي لفقدان رفيقي وحبي الكبير الشاعر كورنيل فيليبوفيكز، الذي توفي في العام 1990. ليس القط وحده حزيناً، بل أنا أيضاً. ولكن... أنا أتحدث كثيراً عن نفسي، وهذا غريب جداً. عشت في حياتي قصص حب عديدة: في شبابي، ثم مع زوجي الأول آدم فلوديك... كل منها مختلفة عن الأخرى. لا أزال صديقة أولئك الذين لا يزالون أحياء، لأن أمراً قد حدث في كل حالة يستحق أن أتذكره».

في ما يتعلق بالشباب

تحب أن تعرّف عن نفسها من باب الإطراء بأنها قديمة، ولكنها تملك الكثير من المعجبين الشباب. يمكننا أن نقول إنها قبل خمسة وثلاثين عاماً كانت قد أصبحت معاصرة، حين أهدت قصيدتها **إعلان** إلى الرحمة الكيمائية، قبل غزو المخدرات الصناعية الهائل صالات الديسكو: «ليس عليك إلا أن تتناولني/ ضعني تحت لسانك/ ليس عليك إلا أن تبتلعني/ تكفيك رشفة ماء (...) من قال/ إن الحياة تحتاج إلى الشجاعة؟/ أعطني جحيمك/ لأنسجه حلماً...».

تعترف قائلة: «إنني على اتصال بالشباب، فأتحدث إليهم حول الكثير من الأمور. لكن الشباب الذين أستقبلهم طيبون: يدرسون كثيراً ويتأملون في الحياة. أما أصحاب المشاكل، فلا أشعر أنهم قريبون مني، فأنا أفضّل أولئك الذين يفعلون ما يفعله الجميع ويبدون غير مرئيين».

داريو فو



"السخرية هي أكثر الأسلحة فاعلية في وجه السلطة".

كل عرض من عروضه مليء بالضحكات، والسخرية، والتهكم، وأصوات الجمهور. يستطيع الإبداع مباشرةً، معتمداً على ما يراه ويسمعه، لأن المهرج الكبير الذي حاز على جائزة نوبل يثق بالمواطنين وبمشاركتهم. داريو فو إعصار مرادف لزوجته الممثلة، والعضو في مجلس الشيوخ فرانكا رامة التي يربطه بها التزام حياتيّ، وفنيّ، وسياسيّ عميق.

لا نعرف جيداً كيف حدث ذلك. ولكننا كنا في روما عند الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، جالسين على الأرض في قاعة في جامعة لا سابيينزا نغني بيلا تشاو، وبانديرا روسا، وأغاني أخرى مشابهة. لم يكن الأمر مهماً، لولا وجود شخصية تبتسم أمامنا وتكرر بقوة، وبحماسة معدية، المقطع التالي: «آفانتي بوبولو، آلا ريسكوسا، بانديرا روسا تريونفيرا». نحن نتحدث عن أكبر رجل استعراضي يحظى بجائزة نوبل: داريو فو الذي يحتفل بذكرى ميلاده الثمانين مع مجموعة من الأصدقاء الذين جاءوا من كل أنحاء إيطاليا. حتى إن المصور كيم مانريسا كان يبدو منفعلاً، وكان يجلس حولنا كورس لامتناهٍ من الطلاب الشباب الذين كانوا يرددون: «بيلا تشاو تشاو تشاو» في هذه القاعة التي تحولت بقدرة قادر إلى ضرب من ضروب السرداب المسرحي الثوري. يعلق فو سعيداً: «هذا ما فعلته دائماً: آتي بالمسرح إلى أماكن لا يفترض أن يكون فيها. في أثناء دراستي، قمت بالكثير من الأعمال في القطار الذي حملني من البيت إلى المدرسة، وبالعكس. وبعدها، قدمت عروضي في معامل مزدحمة وأسواق وسجون وساحات ومدارس... إنّ أي مكان يعتبر جيّداً، لأن المسرح فنّ شعبيّ. في بعض الصالات تُقدّم عروضي بأسعار باهظة، وأنا ممتنّ لهذا الاهتمام، لكنني في أعماقي أشعر بأن الناس الذين يذهبون لمشاهدة أعمالي في هذه الأماكن ليسوا جمهوري المفضل».

تطلق زوجته فرانكا رامة صيحات تشجيع من بين الجمهور. جائزة نوبل التي حاز عليها في العام 1997 مُنحت له أيضاً للشراكة التي تجمعه بالممثلة الإيطالية الأسطورية، المنتخبة حديثاً عضواً في مجلس الشيوخ في حزب القاضي دي بييترو، والمسؤولة عن عملية الأيدي النظيفة. يبدوان معاً كمؤلف واحد ذي رأسين: لديهما شركتهما الخاصة، ويكتبان ويترجمان معاً، وينضم إلى هذا الثنائي أحياناً ابنهما جاكوبو. يعترف فو، على سبيل المثال، قائلاً: «قد أنهيت الآن عملاً عن التبشير والنساء ساهم في كتابته ابني، وهو عبارة عن قصة عائلية لأن فرانكا كتبتها، وأضاف إليها جاكوبو بعض الأمور، وفي نهاية الأمر عملتُ فيها قليلاً أنا أيضاً». فو هو أكثر كاتب مسرحيّ تُمثَّل أعماله في العالم، لكن هذا العمل عن حياتنا اليوميّة، والذي كتبته زوجته بشكل أساسي، هو الأكثر تميزاً في سجل أعماله الحالية. تقول رامة مازحةً: «أقول له في المنزل دائماً لأخفف من زهوه: لعلك قد حزتَ على جائزة نوبل، لكن المسرحية الأكثر نجاحاً هي من تأليفي».

بينما يرقص فو مع طلاب متنكرين بأزياء شخصيات مسرحية **كوميديا الفن**، نفكّر في أن اليوم السابق؛ يوم وصولنا إلى روما، كان أكثر اعتيادية، حيث شربنا الشوكولاته الساخنة مع داريو وفرانكا في مقهى بجانب مسرح فيتوريا. وللتخفيف من توترنا قرأ علينا فو نصاً يجمع عشرات اللغات واللهجات، استطعنا فهمه بما يشبه الإنجاز. ضحك داريو وقال: «ها ها، هذا ما اعتاد أن يفعله المهرجون القدماء. ففي كل منطقة انتشرت لهجة مختلفة، وتوجّب عليهم التأكد من أن يفهمهم أبناء كل تلك المناطق، فاستطاعوا ذلك من خلال تقليد الكلمات المفتاحية في لغات عدة وتكرارها. أستعمل في أعمالي كل اللهجات الإيطالية تقريباً: لهجات نابولي، وكالابريا، وميلانو والبندقية، ولومبارديا».

عاش فو، ابن عامل القطارات، في طفولته في أماكن مختلفة من إيطاليا، فقال: «وسافرتُ بالقطار إلى كل مكان، حيث حصلتُ على التذاكر مجاناً. وهكذا، تعرفتُ إلى الكثير من الأشخاص المثيرين للاهتمام. كما قال الطبيب النفسي بيتلهايم لمرضاه: احكوا لي عن السنوات السبع الأولى من حياتكم، فكل شيء يكمن فيها. يمكنكم الاحتفاظ بباقي السنوات».

في أحد الأيام، تبنّى داريو فو مهمة العامل في الأدب، وقرر أن يفكك التراث قطعة قطعة ليجعلنا نرى أن النصوص الكلاسيكية ليست دوماً كما نراها، سواء أتحدثت عن الإنجيل، أم عن ألغاز العصور

الوسطى، أم عن الأساطير اليونانية، أم عن لوحات عصر النهضة. وهو يتصرف بالمثل في ما يخصها جميعاً: يذهب إلى الأعمال الأصلية، ويُظهر وجود ترجمة أخرى لتلك التي وصلتنا، «ترتبط بخطاب السلطة». بالنسبة إلى فو، «لا توجد ثقافة عليا وأخرى دنيا، كما يجعلوننا نعتقد في المدرسة، فالكرامة نفسها توجد في كل الثقافات، ويكفينا أن نعرف مفاتيحها لنكتشف ذلك».

قبل العرض الجامعيّ تناولنا العشاء مع فو ورامة وأصدقائهم القدامى، ومنهم جيوفانا ماريني، نجمة الغناء الشعبي في نابولي. تعلمنا معهم كلمات أغانٍ مثل «لا بيللا لافا آل فوسو» بلهجة بين لومبارديا وفينيتو، ذات طابع إيروتيكي واضح، وتعرّفنا إلى الموضوعات التي تناولتها أغاني العمال في المصانع في الستينيات والسبعينيات. وبعد الحلويات، قدم طلاب لا سابيينزا عرضاً ممتعاً عن مشاكل الحب. وبعدها، بدأ عرض الأغاني في صالة بسيطة تغصّ بجمهور شابّ يهلل لفو واقفاً.

مسرح جماعي

كثيراً ما يقاطع الكاتب المغنّين ليشرح ما وراء كل موضوع، كما يروي ذلك مع النكات مصدراً أصواتاً غريبة، ومغيّراً نبرته وهو يقفز ويقوم بإيماءات تجعله ينال إعجاب الجمهور (ويروي لنا في ما بعد أنه لا يفهم «الكلمة من دون الإيماءة»). يشبه الأمر مقطعاً ارتجالياً تصرخ فيه فرانكا ببعض الأشياء، ويقلدها الجمهور في نهاية المطاف، مما يُفسح المجال لردود بارعة. يتذكر بعد ذلك وجود «مرحلة أملى عليّ فيها الجمهور مباشرة موضوعات أعمالي. ومع نهاية العمل، اعتدتُ أن أنظّم اجتماعاً أسألهم فيه عمّا يريدون مني أن أتحدث عنه. هكذا، وُلدت مثلاً مسرحية **لا يدفع أحد هنا!** عن نساء يقررن نهب السوبرماركات بسبب عدم تمكنهن من شراء منتجاتها».

في لحظة معينة يتحدث عن أغنية ريفيّة: «علينا أن نغنّيها هكذا، وجسمنا يتحرك بهذه الطريقة، كما لو كنا في الحصاد. إنه انسجام إيمائي يخفف الجهد،





كما أن الإيقاع الموسيقي مثاليّ للحصاد. أتلاحظان؟ فحوى الانسجام والإيقاع أمر خاص بالشعب وليس بالأرستقراطية كما علّمونا دائماً».

في الأيام التي دام فيها لقاؤنا، أقيمت في روما العديد من حفلات التكريم لداريو فو وفرانكا رامة اللذين مر على عملهما المشترك خمسون عاماً. يتذكر فو عند باب منزله، إلى جانب الهيكل الروماني: «بدأت بهذا على أنه لعبة، فأنا أنحدر من منطقة يعتبر اختراعُ القصص فيها أمراً اعتياديًا، حيث يباشر الشباب باكراً البحث عن مواقف غريبة ليحيلوها إلى تهكم أو سخرية. درستُ العمارة وعملت فيها، لكنني في أحد الأيام اكتشفتُ أنني لم أحظَ بالمهمات إلا بفضل الرشى ودفع الكومسيون للحكومة والأحزاب السياسية. تأثرتُ إلى حدّ أصبتُ معه بالاكتئاب، فذهبت إلى طبيب، هو صديق جيد لي، وقال: قم بشيء تحبه؛ شيء لطالما حلمت به. هكذا، أنقذني المسرح من دخول مستشفى المجانين. كنت في الرابعة والعشرين من عمري، وباشرتُ حياة جديدة».

ومع أن فو يعيش في ميلانو، إلاّ أنّ زياراته إلى روما تزداد ليكون مع زوجته عضو مجلس الشيوخ. «لا أريد أن يبدو الأمر تحسراً لأنني قد ولدتُ في ميلانو، كممثل ومخرج وكاتب وليس جسدياً، وأنا أدين لها بالكثير. لكنني وفرانكا لسنا موجودين هناك. نلاحظ نماذج عاطفية في كل إيطاليا: في كالابريا، وصقلية، ونابولي، وروما وفلورنسا... ولكن ليس في ميلانو، وهي مدينة الثورة الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية، بكل كتابها، وفنانيها، ورساميها، ومخرجيها المسرحيين، والسينمائيين الهامين... كل هذا قد اختفى بإرادة المدينة، التي لم تعد تحتفظ إلا بنصف مسارحها التي وُجدت حينها. أما في روما، فيحدث العكس. ففي المدة الزمنية نفسها، تضاعف عدد المسارح، وازداد عدد المعارض والأفكار والمظاهرات بشكل كبير...».

انتهى حفل التكريم الكبير الذي أقامته العاصمة على شرف فو في القاعة العظمى في جامعة لا سابيينزا بعرض كبير للألعاب النارية، وبالمطالبة بانتخاب رجال الفكر التقدميين في إيطاليا (مثل السينمائية سابينا غوزانتي مخرجة فيلم يحيا ثباتيرو).

في ذاك المهرجان أهدوا فو قناعاً قديماً، فعلّق قائلاً من حيث يجلس على مقعده: «هذه هدية خطرة جداً. تعرفتُ ذات مرة إلى ممثل كبير من هذا البلد اعتاد تمثيل دور آرليكين. وفي نهاية الأمر، لم يستطع أن يمثل أي دور من دون القناع. حتى إنه كان يضعه خارج المسرح، لكنه اكتشف أخيراً أن المهم هو القيام بالأمور من دونه. الخطر الذي يلاحقنا نحن الممثلين هو التالي: لا قيمة لنا من دون القناع».

بعد وقت قصير، قفز فو إلى المسرح من دون نص، ليقدم نوعاً من اسكتشات العصور الوسطى مبنيًا

على نص قديم. فمثّل دور شاب متزوج حديثاً يبحث فـي الريـف وفي منزل حماته عن ثمرة بابايا لزوجته. سـرعان ما يكتشـف الجمهور أن المهرج باسـتعماله هذا التعبير الغريب، إنما يشـير إلى الأعضاء الجنسـية الأنثوية. لماذا لا يسـميها باسـمها؟ هذا ما نسـأله إياه فـي اليـوم التالي في أثناء تجولنا بين آثار مركز روما، فيقـول: «أسـتخدم تعابير من اللهجـات القديمة لأنها تسمح لي بتجنب الابتذال. مثلاً، لا شيء يثير ذعري أكثـر مـن هـذه الحركة التي كثيراً ما نراها عبر شاشـة التلفاز (ويحرك ذراعيه ممثلاً العملية الجنسية). اللقاء العاطفي وبعض أجزاء الجسم أشياء مهمة ومحترمة. وللإشارة إليها أفضل اللعب على الكلمات أو اللجوء إلـى الفنتازيـا والتبديـل. أما العكس، عـذراً على هذه الكلمـة، فهـو بـراز. لا داعـي للهبوط بالمستوى كي يضحـك آخـر غبـي فـي المسـرح. فاسـتعمال التعبير الجنسـي بصراحـة ابتـذال ونقـص في اللباقـة والقوة التعبيريـة. مـن الأفضـل إعـادة صياغتـه لتضفي على المسـرح جـواً ميتافيزيقيـاً ملـؤه المفاجـأة والتّألّـق. الفابيـلات فـي العصور الوسـطى، وأغلبهـا كوميدي، تحدثـت عـن الجنـس بإيجابيـة وحـب، مـن دون أن تطغى عليها فكرة الجنس الحيواني المبتذلة والمهينة كهذه التي نقرأها اليوم. افهماني، لسـت أتحدث عن التزمت، ففي سجلي واحد وأربعون تهمة من الرقابة، وقد حبسوني مرات عدة كذلك».

ضد البرلوسكونية

بعد التوقف في المعبد الروماني، نصل إلى أبواب مجلس الشيوخ حيث يتوجب على فرانكا رامة مباشرة عملها. فو واثق أن الأولوية السياسـية في إيطاليا هي تدمير ما تبقى من البرلوسكونية: «صرح بيرلوسكوني إنه يريد الانسحاب ليعيش في جزيرة بعيدة وغريبة... وليفعـل ذلـك. ومـع هذا، فقد بقي فـي إيطاليا. وبدلاً من أن يهدأ، فهو يبدو كالممسـوس، يخشـى أن تتغير القوانيـن التـي تضمـن احتكاره شـبه الكامل لوسـائل النقـل، ويمارس الكثير مـن الضغوطات ليحافظ على وضعـه الراهـن... علـى الحكومـة أن تكـون صارمة، فتلغي هذه القوانين ولا تترك له خياراً إلا الرحيل عن هذا البلد كي لا يعود إليه مطلقاً».

يقبّـل فـو زوجتـه ويسـتأذن للانصـراف، ونقرر الدخـول مـع رامـة إلـى مكتبهـا، حيـث تقـص علينا قائـلاً: «حصلـتُ علـى المنصـب مـن دون أي حملة انتخابيـة، أو ملصـق يحمـل صورتـي، أو ظهور على شاشـات التلفزة. لكن الشـهور الأولى كانت فظيعة: يقـوم النـاس بمـا يحلـو لهـم، ويصوتون لمـن يريده زعيمهم: أحمر، أخضر... لا أحد يصغي إليك، وليس هناك نقاش... ورواتبنا فضيحة، وهي أعلى بكثير من رواتب السياسـيين الإسـبان: أقبض كل شـهر خمسـة عشر ألف يورو أو ستة عشر ألفاً».

يبتسـم فو ورامة دائماً، وهما مستعدان للمزاح وللنقـد الذاتـي. ومـع ذلـك، هنـاك موضـوع ممنـوع بينهمـا، ترويـه لنـا رامة فـي مكتبها قائلـة: «في العام 1973، اختطفتنـي مجموعة مـن الرجال واغتصبوني. كان الأمر بمثابة تخويـف سياسـي. كان عمري حينها واحـداً وأربعيـن عامـاً. وفي تلـك المرحلة، كنت قد تفرغـتُ لزيـارة السـجون لأحـاول تحريـر السـجناء السياسـيين والعمال والمناضلين ضد الفاشـية... أذكر الأمر كما لو أنه حدث البارحة.

شعرتُ بمسدس أو بإصبع مصوّب على ظهري، ووضعوني في عربة للبضائع. كانوا أربعة خاطفين، وما فعلـه بـي أولئك الأربعة؛ الواحد تلو الآخر لسـاعات وساعات، كان فظيعاً، إلى حدّ أنني احتجتُ إلى وقت طويل لأتمكن من شرحه. حين عدتُ إلى المنزل لم أملك من القوة إلا ما يكفي لأقول لداريو والشـرطة إنهم قد ضربوني. ولأتمكن من إخراج كل ما بداخلي اضطـررتُ إلى كتابة مونولوج مسـرحي، **الاغتصاب**، وأقصّه على شـخصيتي. حين عُرضت المسـرحية في برشـلونة، أصيب أحد الحضور بنوبة صرع. اكتشـف داريو كل شـيء بعد سـنوات من حدوث الأمر، ولـم يتمكن حتى من مشـاهدة ذاك العرض. أسـوأ ما في الأمـر هـو أننـا اكتشـفنا أن هاتفي مراقـب، وأنهم لـم يدفعوا ثمن ما فعلوه... ولن يدفعوا. لقد سقط حقي. نظّم اختطافي الكارابينيري، أي رجال الشرطة، وهناك

شهادات تؤكد أنهم قد شربوا نخب اغتصابي في بعض الثكنات. لا أتحدث أبداً عن هذا، لأنه يؤلمني...».

التزام بيئيّ

بالرغم من الانفعال الذي تقصّ به فرانكا ذاك الحادث الأليم، إلاّ أننا لا نشعر بكراهية في كلماتها، ولا في كلمات داريو حين وجدناه في مسرح الأرجنتين، وهو جوهرة من القرن الثامن عشر، على بعد أمتار من مجلس الشيوخ. كان يطلب من مجموعة كبيرة من الشباب الذين اجتمعوا لسماعه أن يلتزموا بدفاع شديد عن البيئة، وبعدها طرح مجموعة من الطرائق المحددة لإنقاذ النظام البيئي، والتي لا يتم تنفيذها بسبب ضغوط من السلطة الاقتصادية.

البيئة هي أحد القطارات الكثيرة التي يسافر فيها داريو واقفاً اليوم. يعلق سعيداً مع نهاية عرضه الذي جمع بين الالتزام والضحك «مسرح مليء بالشباب! جاءوا ليتحدثوا عن السياسة! السخرية هي أكثر الأسلحة فاعلية في وجه السلطة. كان المهرجون على علم بذلك، لذلك أحرقوهم. السلطة لا تحتمل الظرافة، ولا حتى الزعماء الذين يدّعون الديموقراطية، لأن الضحك يحرر الإنسان من مخاوفه. إنّ جائزة نوبل التي أعطوني إياها تعويض لكل أولئك المهرجين الجوالين الذين تجرأوا على إظهار الظلم وآلام الناس». يعانقنا فو ثم يختفي في أحد الأزقة. نراقب معطفه وقبعته ووشاحه حتى اختفى بين الحشود. من المؤكد أنه سيموت منتعلاً جزمته. تصفيق.



القضية: الانتقال بإيطاليا إلى الديموقراطية

حتى لو لم يرشّح نفسه كمحافظ يساري لمدينة ميلانو، لا يزال فو ملتزماً بالقضية. يشارك بحركة ليبيرا سيتادينانزا، الاسم الجديد لجيروتوندي، وهي شبكة مدنية نشأت قبل ثلاث سنوات، ونظمت مظاهرات ضد برلوسكوني واستغلال السياسيين للرسائل القصيرة والإنترنت، وتمكنت من إخراج مليوني إيطالي إلى الشارع. يؤكد فو قائلاً: «علينا أن نصبح الوعي الناقد لليسار، فنبدع الآراء، ونضغط على الحكومة الجديدة من دون أن نساهم في إسقاطها، لأن حكومةً متوسطة الجودة كحكومة برودي أفضل من عودة التمساح برلوسكوني. علينا أن نضغط على برودي ليعيد تأسيس التوازن الديموقراطي، ويعيد للتعليم جلاله، ويمنع العفو عن السياسيين المتهمين بالفساد. على السياسة أن تمسي على اتصال بالحياة اليومية». فو الفوضويّ الذي عارض الحزب الشيوعي القديم الذي حكم بلاده، أصبح رائداً كذلك في محاربة المافيا التي توقّع انتشارها الحاليّ قبل ثلاثين عاماً. يتوق فو وزوجته إلى زعيم مثل رودريغث ثاباتيرو «الذي سحب القوات من العراق في غضون أربع وعشرين ساعة».

ثــورة نوبــل

حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL



وول سوجينكا دوريس ليسينغ خوسيه ساراماغو
نادين غورديمر غاو كسينغجيان غابرييل غارثيا ماركيث
غونتر غراس نجيب محفوظ توني موريسون
في أس نايبول إيمرة كيرتيس كينزابورو أوي
ديريك وولكوت أورهان باموق ويسلاوا زيمبورسكا داريو فو

يجمع كتاب ثورة نوبل الأحاديث التي أجراها الصحفي شاڨي آيين خلال ثلاث سنوات مع ستة عشر شخصاً حازوا على جائزة نوبل للآداب، وقد رافقته طوال ذاك الوقت نظرة كيم مانريسا، المصور ذي الشهرة العالمية، وهو ما يجعل من هذه المقابلات تحقيقاتٍ صحفية استثنائية. سافر آيين ومانريسا حول العالم ليكشفا لنا عن طريقة تفكير كلّ من هؤلاء الأشخاص، والصفات الأكثر حميمية في شخصيات هؤلاء الكتّاب الذين يكافحون لإنتاج مساحاتٍ حيوية ومعبّرة من الحرية، وللحفاظ عليها. وخلاصة عملهما جاءت لتشكّل ثورة نوبل.







جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com



للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.